كتاب فيهِ ما فيهِ

أحاديث مولانا
جلال الدين الرومي

شاعر الصوفية الأكبر

ترجمة عن الفارسية

عيسى علي العاكوب



المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

تقديم مترجم الكتاب

صيّر الرّوميُّ طيني جوهرا   من غباري شاد كونا آخرا

محمد إقبال

الحمدُ للهِ الذي فجّر ينابيعَ الحكمة من قلوب الصّادقين فجَرَتْ، وفتح لها أسماعَ المحبّين والرّاغبين فسُرّت، ونوّر بها بصائر المتوجّهين والطالبين فأبصرت.

أحمدُه حمْدَ معترفٍ بمنّته في حمده، وأشكره شكْرَ عارفٍ بإحسانه ورِفْده، وأستغفره من كلّ ذنب في هَزْل العمل وجِدّه، وأستعينه استعانة من عَلِم أن كلّ شيء من عنده.

وأصلّي على سيّدنا محمّد نبيّه الكريم وعبْده، وعلى آله وأصحابه وذرّيته وكافّة أهل وُدّه، صلاةً أؤدّي بها ما وجب من تعظيم قدره ومجده، وأسلّم عليه وعليهم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله على ذلك.

وبعد:

فما ثمّ إلاّ الله، من عرفه فقد فاز الفوز العظيم، ومن نسيه فقد خسر الخسران المبين. وقد تفاوتت منازلُ الخَلْق على طريق المعرفة هذا، فكان منهم السابقُ والمصلّي والمحلّي.. والسُّكَيْت.

وقد هيّأ المولى سبحانه أن يكون بين الناس مَنْ ينادي للإيمان؛ ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٣/٣]، أي اعرفوا ربّكم حقّ المعرفة، واجعلوه الغاية والقصد من كلّ ما تأخذون وما تدَعون. وينتمي إلى هذا الصنف الممتاز قافلةُ الرّسل والأنبياء والصالحين والأولياء. هذا الصنفُ الذي لم يرَ إلاّ الله، فحقّق معنى: (لا إله إلاّ الله).

وإذا كان هذا النفرُ صنفًا خاصًّا من الخلق، فقد جعل الحقّ سبحانه كلامهم صنفًا خاصًّا من الكلام. ويقف المرءُ في أعلى هرم الحقيقة حين يقول: إنّ تقديم كلام هؤلاء لأبناء هذه الأمة العظيمة من فروض الكفاية؛ فإنّ الذي نحن في أشدّ الحاجة إليه: إصلاح القلوب.

نعم، نحن في حاجة إلى الإخلاص التامّ. إنّ صُوَر الأعمال وظواهرها لا تفيد، وإنّما الذي يفيد هو (الإخلاص). وفي هذا يقول العارف الكبير ابن عطاء الله:

"الأعمالُ صورٌ قائمة، وأرواحُها وجودُ سِرِّ الإخلاص فيها".

وقد ذهب كثيرٌ من أهل التحقيق إلى أنّ جلال الدّين الرّوميّ واحدٌ من ذلك الصنف الخاصّ من الخلق الذي أومأنا إليه قبلُ، وأنّ كلامه من ذلك الصنف الخاصّ من الكلام.

وقد غمرني المولى - سبحانه - بنَعْمائه، حين هيّأني منذ سنوات للإسهام في تقديم هذه الشخصية المدهشة وآثارها العظيمة إلى أبناء الأمة. فكان أن ترجمتُ قبل هذا الكتاب ثلاثة كتب عن الإنكليزية، مما له صلة بمولانا جلال الدّين.

ويستلزم التقديمُ لهذا الكتاب أن أتحدّث عن ثلاثة أشياء: مولانا جلال الدّين الرّوميّ، وكتاب فيه ما فيه، وحكايتي مع الترجمة.

أمّا مؤلّف (كتاب فيه ما فيه) فرجلٌ اسمه محمّد، ولقبُه جلال الدّين[1]. ويذكره أحبّاؤه وأصدقاؤه بلفظ (مولانا) التي تعني، مثل لقب (خواجه)، ضربًا من التقدير المعنويّ - والاجتماعيّ. وهذا اللفظ (مولانا) ترجمة للكلمة الفارسيّة (خداوندكار)، ويقال: إنّ والده هو الذي خاطبه أولاً بهذا اللّقب. وفي المصادر الفارسية الحديثة اشتهر مولانا بـ(مَوْلَوِي).

ويُذكر أحياناً باسم (الرّوميّ) و(مولانا الرّوميّ)؛ لأنه عاش في بلاد الرّوم؛ آسية الصغرى قديمًا، وتركية اليوم. ومرقدُه هو ومرقد أبيه وأسرته في مدينة قُونِيَة التركيّة. وفي بلدان الغرب يعرفه الجميع باسم (الرّوميّ).

في السادس من ربيع الأول سنة (٦٠٤هـ/ ٣٠أيلول ١٢٠٧م) وُلد مولانا في مدينة بَلْخ؛ إحدى مدن خراسان. وفي المصادر التي أُلّفت بعد مولانا يطالعنا بهاءُ الدّين محمّد المعروف بـ(بهاء ولَد)، والد مولانا، فقيهًا كبيرًا، وصاحب فتوى، ومن شيوخ الطريقة الكُبْرَوية (أتباع الشيخ نجم الدّين كبرى)، وصاحبَ لقب (سلطان العلماء). ويقال: إنّ النبيّ محمّدًا، عليه الصلاة والسلام، هو الذي خلع عليه هذا اللقب في المنام.

وتذهب بعضُ الرّوايات إلى انتساب بهاء ولَد من جهة الأب إلى الخليفة الأوّل لرسول الله، عليه الصلاة والسلام، (أبي بكر الصدّيق)؛ ومن جهة الأمّ إلى أسرة ملوك خوارزم.

---

(١) اعتمدنا في إعداد هذه السّيرة المختصرة لحياة مولانا الرّوميّ على المقدّمة القيّمة التي كتبها الدكتور محمد استعلامي لتحقيقه (مثنوي) مولانا جلال الدّين الرّوميّ. الطبعة الخامسة، انتشارات زوّار، طهران، ١٣٧٥ شمسي. ويمكن الرجوع في هذا الشأن أيضًا إلى كتبي الأخرى للترجمة: "بدْ الشعر - خمسة شعراء متصوّفة من فارس" نشر دار الفكر في دمشق، و "الشمس المنتصرة - دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدّين الرّوميّ" للأستاذة أنماري شيمل، و"جلال الدّين الرّوميّ والتصوّف" للأستاذة إيفا دي فيتراي - ميروفتش، نشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ في إيران [المترجم].

ويُفهم من الرّوايات أنّه كان لهذا الوالد في بَلْخ نقاشٌ وحِجاج مع ملوك خوارزم ومع الإمام الفخر الرّازي؛ إذ كان يقول لهم: إنّكم أسارى ظواهر لا قيمة لها، وأنّكم محرومون من هبة إدراك الحقائق.

ويبدو أنّ هذه العلاقة غير الوديّة وتوقّعَ هجوم المغول، مما دفع إلى أن يضيق بهاء ولَد بالإقامة في خُراسان، ومن ثم يهاجر مع أسرته إلى آسية الصغرى، التي كانت موئلاً لكثير من العلماء والمفكّرين والعارفين.

ويبدو أنّ بَهاء وَلَد حتى قبل الهجرة ببضع سنين لم يكن يعيش في بَلْخ، بل أقام مُددًا قصيرة أو متناوبة في مدن خراسان الأخرى، مثل وخش وتِرْمِذْ وسمرقند.

أمّا الرحلة الطويلة التي انتهت ببهاء ولد وأسرته إلى قونية فيبدو أنها بدأت سنة (٦١٦ أو ٦١٧هـ)، في الوقت الذي اتسع فيه نطاق هجمات المغول على مدن خراسان. كانت الرّحلة بنيّة أداء فريضة الحجّ إلى مكّة المكرّمة، ثمّ يكون ما يكون من أمر الإقامة. وهكذا وصلت الأسرة إلى نيسابور، عروس مدن خراسان، حيث استقبلهم الشيخ فريدُ الدّين العطّار العارف والشاعر الكبير، الذي كان في سوق العطّارين في هذه المدينة في زاوية ممّا يمكن تسميتُه اليومَ صيدلية، يعالج المرضى بعقاقيره، وينظم الشعر العِرْفانيّ، ويؤلّف الكُتُبَ القيّمة.

وتذهب بعض الرّوايات إلى أنّ شيخ سوق العطّارين هذا كان مندهشًا بإدراك مولانا، الشابّ الصغير، وذكائه وألمعيّته، وأنه أهداه كتابه (أسرارنامه)، وقال لوالده: إنّ ابنه سيضرم النّارَ سريعًا في هشيم العالَم.

ثمّ من نيسابور إلى بغداد، وهناك أحاديث عن إقامتهم فيها ثلاثة أيام، وعن أنّ بهاء ولَد تحدّث عن احتمال نهاية الخلافة العباسية، وعن حضور الخليفة مجلسَه، وعن ذهاب شهاب الدّين أبي حفص السُّهروردي، العارف والعالِم

الشهير وصاحب الكتاب النفيس (عوارف المعارف)، للقائه. ومن بغداد إلى الحجاز، ومن هناك إلى الشام، حيث أقاما مدّة.

وتتحدّث روايات غير محقّقة عن سفرهما إلى أرْزَنْجان في بلاد أرمينية، وكانت لهما وقفات طويلة نسبيًّا في آقْ شَهْر، ومَلَطْية، ولارندة.

وقد توفّيت والدةُ مولانا، مؤمنة خاتون، في لارندة. ثم اقترن مولانا في هذه المدينة بـ(جوهر خاتون) التي كانت والدة سلطان ولَد، ابن مولانا.

وقد حطّ بهاءُ ولَد ومولانا والأسرة رحالَهم في قونيَة سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) حيث أكرم سلطانُ سلاجقة الرّوم في قونية، علاء الدّين كَيْقُباذ، وِفادتهم.

وفي اليوم الثامن عشر من ربيع الثاني سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) ودّع بهاءُ ولَد الدنيا، فخلفه ابنُه مولانا جلال الدّين في الفقه والإفتاء والتدريس.

وبعد عام من وفاة بهاء ولَد وصل من خراسان إلى قونية برهانُ الدّين محقّق الترمذيّ، تلميذ بهاء ولَد. كان يؤمّل لقاء شيخه الذي اشتاق إليه كثيرًا، وأمضّه فِراقُه. وقد تولّى برهان الدّين تعليم مولانا، فعرض عليه أولاً ما كان قد تعلّمه من والده بهاء ولَد، ثم اقترح عليه السفر إلى الشام؛ لزيادة محصوله العلميّ. وهكذا أوفده إلى حلب، وخرج معه مشيّعًا حتى قيصَريّة. ومنذ ذلك الوقت حتى انصرام تسع سنوات ظلّ برهان الدّين حبيبًا ومرشدًا لمولانا، في قُرْبه وفي بُعْده. ويقال: إنّ مولانا بقي مدّة في حلب، ثم يمّم شطر دمشق. ويرى بعضُ المحقّقين أنّ المعارف الواسعة التي حصّلها مولانا في مجال العلوم الإسلامية ثم بدت جليّة في (المثنوي) إنما ظفر بها وهو في حلب ودمشق؛ لأنه في تلك السنين كانت كبرياتُ المدارس الإسلامية في هاتين المدينتين، وقد اعتلى كرسيّ التدريس فيهما أبرزُ الفقهاءِ الأحناف. وكان قريبًا من تلك المدارس الشيخ محيي

الدّين بن عربيّ، العارف والمعلّم الكبير للعِرْفان، في دمشق. وكان طلاّبُ عِلْم القال وعلم الحال يمّمون شطر دمشق من كلّ فجّ في العالم الإسلاميّ.

ثم عاد مولانا إلى قونية في إهاب عالِم بارز في العلوم الإسلامية، وتقدّم الفقهاء وعلماءُ الشرع لاستقباله، كما احتفى بعودته أتباعُ التصوّف، الذين عدّوه واحدًا منهم. ويبدو أنّ برهان الدّين محقّق كلّفه ببعض الخلوات وأعدّه ليكون مرشدًا كبيرًا وأستاذًا من أساتذة العرفان الكبار. وقد توفّي برهان الدين سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤١م) في قيصرية. أمّا مولانا فقد ظلّ يتولّى التدريس والإرشاد، ويلتفّ حوله عددٌ من المريدين.

واستمرّت الحالُ على ذلك حتى سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٢م)، إذ حدث انقلابٌ كبير في حياة مولانا. ففي يوم الاثنين، السادس والعشرين مِنْ جُمادى الثانية سنة ٦٤٢هـ، طلع شمسُ تَبْريز في قونية؛ وهو رجل مديد القامة، موحّن الوجه، ملئت عيناه غضبًا وشفقةً، كثير الحزن، في سنّ الستّين تقريبًا. وكان شمس هذا قد رأى في بلاده أشياخ الطريقة، وتتلمذ على شيوخ مثل أبي بكر السلاّل التبريزيّ، وركن الدّين السّجاسيّ، ولكنهم لم يجيبوا عن التسآل الواسع لروحه. وهكذا سافر بحثًا عن شخص آخر، كما يقول: ((كنت أطلب شخصًا من جنسي، لكي أجعله قِبلةً وأتوجّه إليه، فقد مللتُ من نفسي)). وهكذا من تبريز إلى بغداد، ومن هناك إلى دمشق حيث ابن عربيّ، وله معه لقاءات ونقاشات، ومرّة أخرى من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى قونية. كان شمس هذا محاطًا بالإبهام، وهو نفسه في (مقالاته) يضع بين أيدينا تصويرًا لهذا الإبهام. وفي اليوم الذي وصل فيه إلى قونية لم يكن يعرف: هل سيجد في تلك المدينة الشخص الذي يبحث عنه؟ بقي مدّة صامتًا، ولم يكشف عن وجهه الحقيقيّ. وفي (خان باعة السكّر) استأجر حجرة على غرار واحد من التجار. وهناك أكثر من رواية حول لقاء شمس مولانا. والخطوط المشتركة في هذه

الرّوايات ترجّح أن يكون شمس على علم بوجود مولانا في قونية، وكان في أثناء إقامته ينتظر سانحةً لكي يقابله، فإذا ما وجده مثل المدرّسين الآخرين جافًا وسطحيًا هجره. لكنه في اللقاء الأول نفسه سحَر مولانا شمساً بشخصيّته، وسحَر شمسٌ مولانا. وتذكر الأخبار أنّ شمسًا نزل مثل الصاعقة على وقار عالمَ مولانا، وكان مولانا يريد أن تخرّبه هذه الصّاعقة. يقول مولانا:

وما الذي يزعجني في أن يحلّ الخرابُ؟

إنّ تحت الخراب كنزاً سلطانيّاً.

وبعد هذا اللقاء اختلّ نمطُ تدريس مولانا وبحثُه ولقاؤه تلاميذَه. ومن ثم تخلّى عن كرسيّ التدريس، وعن إمامة الناس في الصلاة، لكي يرقص، ويضرب القدَمَيْن على الأرض، ويُنشد الغزليّات المثيرة المؤثّرة. وقد أثار ذلك حفيظة مدرّسي الفقه الآخرين على مولانا؛ فأخذوا يشغبون عليه، وانضمّ إليهم مريدو مولانا وتلاميذُه الذين فقدوه بعد هذا اللقاء. وهكذا عاشت قونية فتنةً كان من آثارها أن ترك شمس المدينة في الحادي والعشرين من شوّال سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، من دون أن يبيّن الوجهة التي قصد إليها. وقد ترك ذلك ألمًا كبيرًا في نفس مولانا، فجاشت نفسُه بغزليّات غاية في التأثير. وهكذا: "ظهر مجلس جديد يدعو فيه مفتي العشق الجميعَ إلى العزف والسّماع"، كما يقول الدكتور محمد استعلامي، محقّق (المثنويّ). وفي النهاية بُشّر مولانا بأنّ شمس تبريز في الشام فقال:

أيُّ صباحاتٍ تطلعُ، إذا كان في الشام؟!

وإذْ لم تُفلح الرسائل والكتب في إعادة شمس إلى قونية، أنفذ مولانا ابنه سلطان وَلَد إلى دمشق، فعاد بالشيخ إلى قونية في شهر ذي الحجة سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م). ولكن مرّة أخرى، لم يمض وقتٌ طويل حتى عادت

عداوة شمس إلى القلوب حذَعَةً؛ إذ لم يقبل ضعافُ العقول أن يكون رجلٌ ساحر، كما تناهى إلى أفهامهم القاصرة، سببًا في أن يصاب مولاهم بالجنون، ويرقص في الأحياء والأسواق. ومرّة أخرى ثار الفقهاءُ على مولانا وشيعه، ورأى عددٌ أكبر من الأصدقاء والأعداء سَفْكَ دم شمس أمرًا مقبولاً. ويقال: إنّه قُتِل. وثمة أكثر من رواية حول هذا القتل.

ومهما يكن، فإنّ شمسًا قد توارى عن الأنظار سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)، عقب الفتنة الثانية. وتظلّ رواية قَتْله غير مستيقَنة. فالأخبار تتحدّث عن أنّ مولانا سافر إلى دمشق للبحث عنه:

بسبب صُبْحِ السّعادةِ الذي يشعُّ من تلك الناحية،

في كلّ مساء وسَحَرٍ، أكون ثملاً بضروب السّحر في دمشق.

وبعد مدّة عاد مولانا إلى قونية، وانصرف إلى إرشاد المريدين. وفي هذه المرّة صار إرشادُ مولانا وتوجيهُه (خانقاهيًّا)؛ أي صوفيّاً كاملاً، وامتزج بالرّقص والسّماع، وقد استمرّ على ذلك حتى آخر حياته.

واحتاج مولانا في هذه الأثناء إلى مَن يثق به ويعتمد عليه في تدبير شؤون المريدين، فكان صلاحُ الدّين زَرْكُوب ثم حسام الدّين حلبي خليفتين لمولانا يقومان بأعماله حين يغيب، ويساعدانه في معالجة قضايا المريدين والزّائرين.

كان الخليفةُ الأوّل لمولانا، صلاحُ الدّين زركوب، من إحدى قرى قونية، وهو حِرْفيّ بسيط يعمل في التذهيب أو الطّلاء بالذهب [زركوبي - بالفارسية] في دكّان له في وسط السّوق. ويبدو أنه كان محدود التحصيل والثقافة ولكنه كان يميل إلى عشّاق الحقّ. وقد أثار إيثارُ مولانا إيّاه بأنْ يكون القائم بأعماله انتقادَ المريدين، خاصة من كبار السنّ. وفي هذه السنوات حدث بين مولانا وصلاح الدّين رباطٌ عائليّ؛ فقد صارت فاطمةُ أختُ صلاح الدّين زوجةَ سلطان ولَد، ابن مولانا.

ظلّ صلاح الدّين القائمَ بأعمال مولانا لمدّة عشر سنين، وفي الأوّل من محرّم سنة (٦٥٧هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٢٥٨م) توفّي إثْرَ مرض مزمن.

وقد خلّف صلاحَ الدّين في مهمته حسامُ الدّين حلبي، حسن بن محمد الأرمويّ، وهو رجل يسمّيه مولانا في مقدّمة الكتاب الأول من المثنويّ "أبا يزيد الوقت، وجنيد الزمان". وكان يعرف أيضًا بـ(ابن أخي ترك).

وتأثير حسام الدّين في شؤون مريدي مولانا وخانقاهه يستحق الثناء، وما هو أسمى من ذلك هو التأثير الذي كان له في إيجاد المثنويّ. وثمّة روايات حول اقتراحه على مولانا فكرةَ نَظْم المثنوي وإلحاحه على هذا المطلب. والخطّ المشترك بين هذه الرّوايات يمضي هكذا: كان أصحاب مولانا من أجل فهم المعاني العالية في العِرفان، يقرؤون آثار سنائي والعطّار، وكان حسام الدّين يرى أنّ مولانا نفسه وصل إلى مرتبة أسمى من تلك الآثار، وأنّ توليد ذهنه وفيْضه يمكن أن يبدع أثرًا أكثر نفاسةً من (حديقة الحقيقة) لسَنائي، ومثنويات فريد الدّين العطّار. ويقال: إنّ حسام الدّين في إحدى اللّيالي اقترح على مولانا أن ينظم عملاً شعريًّا من نوع (حديقة الحقيقة). ويذكر مولانا أنه في اللحظة نفسها أخرج مولانا من طرف عمامته ورقًا كانت قد كُتِبت عليه الأبيات الثمانية عشر في مطلع الكتاب الأوّل من المثنويّ، وهي الأبيات التي موضوعُها (شكوى النّاي). وهكذا بدأ نظمُ المثنوي.

والظاهر أنّ مولانا في السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة من حياته خلد إلى خلوة صمْته، ولم ينشغل بالإرشاد والإنشاد على نحو منتظّم، وكان لقاؤه الأحبّة يحدث في مجلس السّماع؛ أي حلقة الذّكر التي تجمع الشيخ ومريديه وما يصحب ذلك من عزف ودوران. وقد حافظ على هذا السّماع حتى آخر ساعات حياته.

وفي الليلة الأخيرة من حياته كان يواجه (الحمّى المحرقة)، ولكن لم تُر على وجهه أمارات الجزع من الموت. كان يُنشد الغزليات، والسُّرور بادٍ عليه، وكان يمنع أصحابه من الاغتمام على فراقه:

اللّيلةَ الماضية، في المنام، رأيتُ شيخًا في حيّ العِشْق،

أشار إليّ بيده: اعزمْ على الالتحاق بنا.

وقد قيل: إنّ هذا هو آخر ما نظم مولانا.

وفي يوم الأحد الخامس من جمادى الثانية سنة (٦٧٢هـ/ السابع عشر من كانون الأول سنة ١٢٧٣م)، وعندما آذن النهارُ بوداع، غربت في أفق قونية شمسان؛ كان إحداهما شمس مولانا جلال الدّين الرّوميّ.

هذا شيء من سيرة هذا الرّجل العظيم الذي ملأ دنيا الإسلام عِلْمًا أشبه ما يكون بالكيمياء التي تحوّل المعادن الخسيسة إلى ذهب، حسب اعتقاد القدامى، وشعرًا يصلح أن يكون سبيلاً لإصلاح ما فسد من النفوس. وإلاّ فكيف يقضي الأستاذ نيكولسون ثلاثين عامًا من عمره يدرس جلالَ الدّين ويصفه بأنه أعظم شعراء الصّوفية على الإطلاق؟ ويرى أنّ هذا الوصف لا يفيه حقّه فيقول: "وإلاّ فأين لنا أن نرى صورة شاملة للوجود بأكمله منطلقةً أمامنا خلال الزمن، مستمرّة إلى الأبد؟ إن هذا الشّعر [شعر مولانا] إلى جانب طابعه الصّوفيّ قد انطوى على ثروة من السُّخرية والتهكُّم، والمواقف التي تثير الرثاء، وصُوَرٍ رسمتْها يدّ صّناع ما مسّت شيئًا إلاّ كشفت حقيقة جوهره"[1].

وسأشير سريعًا الآن إلى مؤلّفات مولانا الرّوميّ، ثمّ أخصّ هذا الكتاب الذي أقدّم الآنَ ترجمته إلى قرّاء العربية بشيء من التفصيل.

---

(١) انظر مقدّمة الدكتور محمد عبد السلام كفافي لترجمته الجزء الأول من المثنوي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٦م، ص٤٣.

ترك مولانا نوعين من الآثار الأدبية؛ آثارًا منثورة، وأخرى منظومة. أمّا المنثورة فهي:

١- المجالس السبعة، وهو عبارة عن مواعظ وخُطب، ألقاها مولانا على المنابر. ويبدو أنّها من نتاج المرحلة التي تبعت تعرّفَ مولانا شيخَه شمس الدّين التبريزي.

٢- مجموعة من الرسائل، كان قد كتبها إلى أصدقائه وأقاربه.

٣- كتابٌ فيه ما فيه، وهو كتابنا هذا.

أمّا آثاره المنظومة فتتمثل أيضًا في ثلاثة أعمال شعرية هي:

١- ديوان شمس تبريز، وينطوي على غزليات صوفية يقرب عددُها من ثلاثة آلاف وخمسمائة غزلية، أو غَزَلاً، كما يقول الإيرانيون. وقد نظمه على أبحر مختلفة. ويصل عددُ أبياته إلى ٤٣ ألف بيت. وقد نظمه تعبيراً عن تعلّقه بشيخه شمس الدّين التبريزي، إذ وصل الاندماج والتوحد بين المريد والشيخ حدّاً جعل مولانا ينظم الأغزال، وفي نهايتها يجري اسم شمس على لسانه، فكان أن اشتهر ديوانه هذا بـ(ديوان شمس).

٢- الرّباعيّات، وينسب إلى مولانا منها ١٦٥٩ رباعية، يصل عدد أبياتها إلى ٣٣١٨ بيتاً.

٣- المثنويّ، يعني المثنويّ صورة نظمية في الفارسية تقابل ما يُعرف في العربية بـ(المزدوج). ولكل بيت فيه قافية مستقلة عن قوافي الأبيات الأخر، لكنّ شطري البيت الواحد يتّفقان في التقفية؛ أي إنّ عروض البيت وضربه متّفقان.

وتضمّ هذه المجموعة الشعريّة الكبيرة ستّة كُتب، تنطوي في مجموعها على ما يقرب من خمسة وعشرين ألف بيت. وتعالج موضوعات مختلفة تتناول كلّ ما له صلة بالإنسان في الدنيا والآخرة.

وهذا، كما وعدنا، مكانُ الحديث عن هذا الأثر الذي أقدّمه للقارئ العربيّ الكريم:

(كتابٌ فيه ما فيه)

هذا الكتاب أحدُ آثار مولانا جلال الدّين الرّوميّ النثرية. وأكثرُ فصوله إجابات عن أسئلة مختلفة، أُلقيت في مناسبات مختلفة بوجود مولانا.

وبعض من مباحث هذا الكتاب أيضاً أحاديثُ توجّه فيها مولانا إلى معين الدّين سليمان بروانه. وكان بروانه هذا أحدَ الرّجال الكبار في بلاط سلاجقة الرّوم، وكان شديد العشق لأهل المعنى، وفي عداد من آمنوا بولاية مولانا.

فالكتابُ مجموعة من المحاضرات والمذاكرات والتعليقات يناقش فيها مولانا مسائل أخلاقية وعرفانية، ويفسّر آيات قرآنية وأحاديث، وهي المباحث نفسها التي جاءت على نحو أوسع وأعمق في (المثنوي). وفيها، على غرار المثنويّ، أمثالٌ وحكايات مصحوبة بتعليقات مولانا. ويساعد هذا الكتاب في فهم التفكير الصوفيّ عند مولانا، وفي إدراك مقاصده في كتبه الأخرى.

وفي هذا الكتاب يذكر مولانا أشخاصًا كثيرين ممن له صلةٌ بهم، كوالده بَهاء ولَد، وبرهان الدّين محقّق التّرمذي، مرشده بعد وفاة والده، وشيخه الكبير شمس الدّين التبريزيّ، وحبيبه ومساعده صلاح الدّين زركوب.

ويُبرز الكتابُ الثقافةَ الموسوعية لمولانا جلال الدين، وعمقَ تناوله للقضايا، وقدرتَه على استخلاص العِبَر والعظات من أشياء الحياة العادية. كما يبرز (روحَ الإسلام) ومُرادَ الحقّ سبحانه من الخلق في عرض شائق يخاطب الحسّ والوجدان والعقل والرّوح في وقت واحد.

ويتجلّى في الكتاب أمرٌ غاية في الأهمية، وهو التربية الرّوحية للإنسان لكي يكون كما أراده خالقهُ سبحانه.

وقد جاء الكتاب في واحد وسبعين فصلاً متفاوتة في الطول، ولم تُذكر لها عنوانات. وجاء ستّة من هذه الفصول بالعربية هي: (٢٢،٢٩،٣٤،٤٣،٤٧،٤٨). وقد أذِنّا لأنفسنا بوضع عنوانات لفصول الكتاب استمددناها من المباحث التي تناولتها الفصول. وليس في مقدورنا القول: إنّ العنوان الذي آثرناه للفصل يعبّر عن جملة مادّة الفصل؛ لكثرة ما يستطرد مولانا من مبحث إلى آخر داخل الفصل الواحد.

وفي شأن عنوان الكتاب يذكر العلاّمة بديعُ الزّمان فروزانفر محقّق الكتاب أنّه وجد اسم الكتاب هكذا: (كتابُ فيه ما فيه) على غلاف النسخة المخطوطة التي اتّخذها أصلاً لتحقيقه الكتابَ. ويرجّح أن يكون الكتاب دوّن كاملاً بعد وفاة مولانا اعتمادًا على تدوينات سابقة في حياة مولانا لكلّ فصل على حدة. ولعلّ الفضل في تدوينه كاملاً يعود إلى ابن مولانا، سلطان ولَد، أو إلى واحدٍ من تلاميذه.

ويقول العلاّمة فروزانفر في مقدّمة تحقيقه الكتابَ: "لا يمكن تصوّر أن يكون مولانا نفسُه قد وضع اسمًا للكتاب، ويُظنّ أنّ هذا الاسم [أي: كتاب فيه ما فيه] مقتبسٌ من قطعة ذكرت في الفتوحات المكيّة للشيخ محيي الدّين بن عربيّ. وهذه القطعة هي:

كتابٌ فيه ما فيه بديعٌ في معانيهِ
إذا عاينتَ ما فيه رأيتَ الدرَّ يحويهِ

.. ويضيف فروزانفر، رحمه الله، أنّ تعبير: "فيه ما فيه" يرد كثيرًا في شعر ابن عربي"[1].

(١) انظر مقدّمته لتحقيق (كتاب فيه ما فيه).

وقد اعتمدنا في الترجمة إلى العربية الأصْلَ الفارسيّ لـ(كتاب فيه ما فيه) بتحقيق العلاّمة فروزانفر. واستعنّا في المواضع المشكلة بالترجمة الإنكليزية القيّمة للكتاب التي أعدّها المستشرق الإنكليزيّ الراحل آرثور ج. آربري، وصدرت بعنوان: (Discourses of Rumi).

ولا غنى عن الإشارة هنا إلى أنّ الفصول العربيّة في الكتاب مصوغةٌ بلغة ضعيفة ممّا اضطرّني أحياناً إلى التصرّف؛ ابتغاء أن تكون العبارة مفهومة. وبرغم ذلك بقيت هذه الفصول من الحلقات الضعيفة في سلسلة فصول الكتاب.

والحقيقة أنّ الترجمة عن الفارسيّة ليست من الأمور السهلة، خاصّةً حين يكون الكتاب من ميراث القرن السّابع الهجريّ، ولرجل مثل مولانا جلال الدّين الرّوميّ.

وبشأن القَصْد الذي دفعني إلى تحمّل وعثاء الترجمة آذن لنفسي في ختام هذا التقديم بأن أستعير عباراتٍ إخالها تعبّر تمامًا عمّا أنشدُ، وهي عبارات قالها الدكتور محمّد عبد السلام كفافي، رحمه الله، في مقدّمة ترجمته الجزءَ الثاني من مثنوي مولانا جلال الدّين:

"نحن في حاجة إلى شيء من التصوّف البنّاء، الذي يعيد الحياة إلى الرّوح العربيّ الأصيل، ويكشف عن جوهره ما غشيه من غبار السنين. حينذاك نبلغ القوّة المنشودة، ولا تعصف بنا مخاوفُ الحِرمان من ترّهات الترف الزائف. فمن التصرّف أن يتغلّب المرءُ على شهواته، ومن التصوّف أن يستهين المرءُ بالحياة في سبيل أسمى الأهداف، ومن التصوّف أن يكون المرءُ مثاليّاً في ما يعتقد وما يقول ويعمل".

نعم، نحن في غاية الحاجة إلى الأدب المؤدِّب، الأدب الذي يساعد في انتشال الأمّة من الوهدة التي تردّت فيها فغدت أضحوكةً لأمم الأرض، ومخبرًا لتجريب

كلّ التفاهات. وليت شعري كيف ستكون الحالُ إذا ظلّ أدعياءُ الأدب ودُعاة السّفساف يمطرون ناشئة الأمّة بكلّ نشاز ومبتذل وتافه.

فإلى أبناء الأمّة العظيمة هذا القبَس من النار التي أجّجها الشاعرُ والمفكّرُ والعاشقُ مولانا جلال الدّين الرّوميّ، الذي قال عنه عبدُ الرحمن جامي أعظمُ شاعر وعارف في القرن التاسع الهجريّ: "لم يكن نبيًّا، ولكنّه أوتي كتابًا".

واللهُ سبحانه هو المقصود في الأوّل والآخر.

حلب، يوم الجمعة، التاسع من ذي القعدة ١٤٢١هـ.

الثاني من شباط ٢٠٠١م

عيسى علي العاكوب

كتابُ فيه ما فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

رب تمّم بالخير

الفصل الأول

كلُّ شيءٍ من أجل الحقّ

قال النبيّ عليه السلام: "شرّ العلماء مَنْ زار الأمراءَ، وخيرُ الأمراء من زار العلماءَ، نِعْم الأميرُ على باب الفقير، وبئس الفقيرُ على باب الأمير".

فهم الناسُ ظاهرَ هذا القول على أنه لا ينبغي للعالِم أن يزور الأمير لكي لا يكون من شِرار العُلماء. وليس معنى هذا القول كما ظنّوا، بل معناه أنّ شرّ العلماء من يحصل على مدَد من الأمراء، ويكون صلاحُ حاله وسدادُه بسبب الأمراء، وخوفًا منهم. وأن يكون عِلْمه منذ أول الأمرِ بنيّة أن يصله الأمراءُ، ويقدّموا له آيات الاحترام، ويخلعوا عليه المناصب. وهكذا فإنه بسبب الأمراء أصلح نفسَه، وتحوّل من الجهل إلى العلم.

وعندما غدا عالمًا، غدا مؤدَّباً بسبب الخشية منهم وملاينتهم، وكان خاضعًا لسيطرتهم وتوجيههم. وعند ذلك يمضي في الطريق الذي رسموه له طوعًا أو كرهًا.

والحاصل أنه، سواءٌ أكان الأميرُ هو الذي يزوره شكليًا أم أنه يذهب هو لزيارة الأمير، هو الزائرُ في أيّ حال والأميرُ هو المَزُور. وعندما لا يكون العالِمُ متحلّياً بالعلم من أجل الأمراء، بل يكون علمه أولاً وآخرًا من أجل الله، عندما يكون سلوكُه وعادتُه وفق الطريق الصحيح بحيث يكون ذلك طبعًا له، لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر غيره، كالسَّمَك الذي لا يستطيع أن يعيش وينمو إلاّ في الماء، فإنّ لمثل هذا العالم عقلاً مدبّرًا وزاجرًا بحيث يكون الناس جميعًا في زمانه منزجرين خوفًا منه ومستمدّين العون من شعاعه وصورته، سواءٌ أعرفوا ذلك أم لم يعرفوه.

مثالُ هذا العالِم إذا زار الأميرَ يكون في صورة المزور ويكون الأمير في صورة
(٢) الزائر؛ لأنه في الأحوال جميعًا يكون الأمير آخذًا منه ومستمدًّا العون. وهذا العالِم مستغنٍ عن الأمير. إنه كالشمس الواهبة للنور، التي تتمثّل وظيفتُها الكلّية في العطاء والمنح على جهة العموم، وهي تحوّل الحجارة إلى عقيق وياقوت، وجبالَ الأرض إلى مناجم للنحاس والذهب والفضّة والحديد، وتجعل الأرض خَضِرةً نضرةً، وتهب الأشجارَ فواكه مختلفة الأنواع، عملها العطاءُ: تعطي ولا تأخذ. يقول المَثَلُ العربيّ: "نحن تعلّمنا أن نعطي، ما تعلّمنا أن نأخذ". وهكذا في الأحوال جميعاً يكونون هم المزورين والأمراءُ هم الزائرين.

ويعنّ لي هاهنا أن أفسّر هذه الآية من الذّكر الحكيم، ولو لم يكن الأمرُ مناسبًا لهذا المقال. ومهما يكن فإنّ هذه الفكرة تخطر لي الآن وسأعبّر عنها لعلّها تسجّل. يقول الحقّ تعالى: ﴿يا أيّها النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/٧٠].

كان سببُ نزول هذه الآية أنّ المصطفى، ﷺ، هزم الكفّار وأعمل فيهم القتْلَ والسّلْبَ، وأسر كثيرين منهم فقيّد منهم الأيدي والأرجل. كان بين أولئك الأسرى عمُّ النبيِّ العبّاسُ، رضي الله عنه، كانوا يبكون ويجأرون طول اللّيل، وهم في قيودهم وعجزهم وذلّهم، وكانوا قد قطعوا كلّ أملٍ في حياتهم منتظرين السّيفَ والقتْلَ. نظر المصطفى عليه السلام، إليهم فضحك.

قالوا: "أرأيتَ أنّ فيه صفات البشر، وأنّ دعواه، أنّ ليست فيَّ بشريةٌ، مخالفةٌ للحقيقة؟ فهاهو، ينظر إلينا ويرانا في هذه القيود والأغلال أسرى له فيبتهج. مثل أهل الشهوات الذين عندما ينتصرون على أعدائهم ويرونهم أذلاّء بين أيديهم يبتهجون ويطربون".

[٣] وقد استبان المصطفى، صلوات الله عليه، ما في ضمائرهم فقال: "لا، حاشى أن أكون ضحكتُ لأنني أرى أعدائي خاضعين لي، أو لأنني أراكم في مَعَرّةٍ وأذًى. إنني ابتهج، بل أضحك، لأنني أرى بعين السّرّ أنّني أسحبُ وأجرّ أناسًا بالقوّة بالأغلال والسلاسل من أتُون جهنّم وأدخنتها الحالكة إلى الجنة والرّضوان والرّبيع الأبديّ، بينما هم يُعْوِلون ويصرخون قائلين: "لماذا تأخذنا من هذه المهلكة إلى رياض الزهر والأماكن الآمنة؟".

وهكذا يغلبني الضحك. وبرغم ذلك فإنه عندما لا يكون قد تشكّل لديكم الآنَ النظرُ الذي به تدركون وتعاينون هذا الذي أقوله، يأمرني الحقّ: قل للأسرى إنكم في البدء جيّشتم الجيوش، وأعددتم القوّة، واعتمدتم اعتمادًا كليًّا على رجولتكم وبطولتكم وشوكتكم، وقلتم في أنفسكم: هكذا سنفعل؛ وهكذا سنهزم المسلمين ونقهرهم. ولم تروا قادرًا أقدر منكم، ولم تعرفوا قاهرًا فوق قهركم أنتم.

ولاجَرَم إنّ كلّ ما خطّطتم له حدثَ عكسُه تمامًا. وحتى الآن إذ أنتم خائفون لم تتوبوا من تلك العلّة. أنتم بالسون، وبرغم ذلك لا تَرَون قادرًا فوقكم. وهكذا ينبغي حالاً أن تَرَوا شوكتي وقدرتي، وأن تعرفوا أنكم مقهورون لإرادتي، لكي تكون أموركم ميسّرة. وحتى في حال خوفكم لا تقطعوا الأمل منّي، لأنني قادر على أن أحرّركم من هذا الخوف، وأجعلكم في أمان. إنّ مَنْ هو قادرٌ على أن يخُرج من الثّور الأبيض ثورًا أسودَ قادرٌ أيضًا على أن يخرج من الثور الأسود ثورًا أبيض.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج:٦١/٢٢]، و: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم:١٩/٣٠].

والآن في هذه الحال التي أنتم فيها أسرى، لا تقطعوا الأمل من حضرتي، لعلّي آخذكم بيديّ؛

﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْكافِرُون﴾ [يوسف: ٨٧/١٢].

والآن، يقول الحق تعالى: "أيها الأسرى، إذا رجعتم عن مذهبكم الأول، ونظرتم إليّ في خوف ورجاء، ورأيتم أنفسكم في أحوالكم جميعًا مقهورين لي فسأحرّركم من هذا الخوف، وكلُّ مالٍ أخذ منكم في الحرب، وكلّ ما أصابه التّلف سأعيده إليكم. بل أضعافَ ذلك وخيرًا من ذلك. وسأعفو عنكم، وأجمع لكم سعادة الآخرة وسعادة الدنيا".

قال العبّاس: "تبتُ، ورجعتُ عمّا كنتُ عليه".

فقال المصطفى صلوات الله عليه: "هذه الدّعوى التي تدّعيها يطلب منك الحقّ تعالى برهانًا عليها":

[٤] إنّ ادّعاءَ العِشْقِ أمرٌ سَهْلٌ   لكنّ لذلك دليلاً وبرهانا

قال العبّاس: "بسم الله، أيّ دليل تريد؟".

قال [النبيّ]: "أَثِرْ جيشَ الإسلام بشيءٍ من الأموال التي بقيتْ لك، حتى يقوى جيش الإسلام، إذا كنتَ قد صرتَ مسلمًا وتريد خير الإسلام وأمة الإسلام".

قال [العبّاس]: "يارسولَ الله: وماذا بقي لي؟ سُلِب منّي كلُّ شيء، لم يتركوا لي حصيرًا باليًا".

فقال صلوات الله عليه: "رأيتَ أنّك لستَ صادقًا وأنك لم ترجع عمّا كنتَ عليه". أقول: "كم لديك من المال، وأين أخفيتَه، وعند مَنْ أودعتَه، وفي أيّ موضع أخفيته ودفنته؟".

قال العبّاس: "لا، أبدًا".

فقال [النبيّ]: "ألم تودعْ مقداراً من المال عند أمّك؟ ألم تدفنه تحت كذا وكذا حائطاً؟ ألم توصِ أمّك بالتفصيل قائلاً: "إذا عدتُ فعليكِ أن تعيديه إليّ، وإذا لم أعد سالمًا، فعليك أن تنفقي مقدار كذا في مصلحة كذا، وأن تعطي فلانًا مقدار كذا، ويكون مقدار كذا لكِ؟"".

وعندما سمع العباسُ ذلك رفع إصبعَه تصديقًا للإيمان الكامل. وقال: "يارسول الله! لقد اعتقدتُ دائمًا أنّ لك إقبالاً وحظوةً من دورة الفلَك مثلما كان للمتقدّمين من الملوك كهامانَ وشدّاد ونمرود وغيرهم. وعندما قلتَ هذا علمتُ وتحقّقتُ أنّ هذا الإقبال سرٌّ إلهيٌّ وربّانيّ. قال المصطفى، صلواتُ الله عليه: صدقتَ. هذه المرّةَ سمعتُ انقطاع زنّار الشكّ الذي في باطنك، ووصل صدى الانقطاع إلى أذني. إنّ لي أذنًا مخفيّةً في عين الرّوح، وكلُّ قطْعٍ لزنّار الشكّ والشّرك والكفر، أسمعه بأذني الخفيّة، وصوتُ ذلك القطْع يصل إلى أذن روحي. والآن حقيقةً صرتَ مستقيمًا ومؤمنًا".

قال مولانا في تفسير ما سبق: إنني قلتُ هذا للأمير بروانه* لهذا السبب؛ وهو أنك في أوّل الأمر برزتَ بطلاً للإسلام. إذ قلتَ: سأقدّم نفسي فداءً، سأضحّي بعقلي وتدبيري ورأيي من أجل بقاء الإسلام، وكثرة أهل الإسلام، لكي يستمرّ الإسلام آمنًا وقويًّا.. ولكن عندما اعتمدتَ على رأيك ولم ترَ الحقّ، ولم تنظر إلى كلّ شيء على أنّه من الحقّ، جعل الحقّ تعالى ذلك السببَ والسّعي نفسه سببًا لنقص الإسلام؛ فقد حالفتَ التّتار، وقدّمت لهم العون، لتُفني الشّاميّين والمصريّين، وتخرّب دولة الإسلام. ولذلك فإنّ الله سبحانه جعل ذلك الذي كان سببًا لبقاء الإسلام سببًا لاضمحلاله. وفي هذه الحال، توجّهْ إلى الله عزّ وجلّ الذي هو محلّ الخوف، وتصدّقْ لعلّ الله يخلّصك من حال الخوف السيّئة هذه، ولا تقطع الرّجاء منه، برغم أنه ألقاك من مثل تلك الطّاعة في مثل هذه المعصية. رأيتَ أنّ تلك الطاعة آتيةٌ منكَ، فوقعتَ في هذه المعصية. والآن وأنتَ في هذه المعصية أيضًا لا تقطع الرّجاء وتضرّعْ؛ فإنه تعالى قادرٌ، فقد أظهر من تلك الطاعة معصيةً، وهو قادرٌ على أن يظهر من هذه المعصية طاعةً. وهو قادرٌ على أن يعطيك الندامة على هذا الذي قدّمتَ، ويهيّئ لك الأسباب لكي تسعى من جديد لكثرة المسلمين وتكون قوّة للمسلمين. فلا تقطع الرّجاء: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف١٢/٨٧]. [٥]

كان غرضي أنْ يفهم هذا، فيتصدّق، ويتضرّع. فقد انحدر من حالٍ غايةٍ في السموّ إلى حالٍ من الضّعة، وحتى في هذه الحال، يكون لديه أملٌ. الحقّ تعالى مكّار، يظهر صُوَرًا حسنةً، ولكن في باطنها صورٌ قبيحة، حتى لا يُغرَّ الإنسان فيقول: إنّ رأياً حسنًا وعملاً حسنًا تجلّى لي وظهر.

---

* الأمير بروانه هو مُعينُ الدّين سليمان بن مهذّب الدّين عليّ الدّيلمي، من كبار رجال سلاجقة الرّوم ووزرائهم، قُتل سنة ٦٧٥هـ على أيدي المغول. وقد كان مُحبًّا لمولانا، وله معه أخبار وأحاديث كثيرة [المترجم].

ولو أنّ كلّ شيء ظهر كما هو عليه حقيقةً لما هتف الرّسولُ وهو المحبوّ بمثل ذلك النّظر الثاقب المنوّر والمنوِّر: "أرني الأشياءَ كما هي"، تُظهِر الشيءَ جميلاً، وهو على الحقيقة قبيحٌ، وتُظهره قبيحًا، وهو على الحقيقة جميل. وهكذا أظهِرْ لنا كلَّ شيء على ما هو عليه حقيقةً، حتى لا نقعَ في الشّرك، ولا نضلّ دائمًا.

والآن فإنّ رأيك مهما كان جميلاً ومضيئًا ليس أحسنَ من رأي النبيّ. هكذا كان يقول دائمًا، والآن أنتَ أيضًا لا تعتمدْ على كلّ تصوّر وكلّ رأي. كن دائمًا متضرّعًا وخائفًا أمام الحقّ. هذا كان غرضي. وقد استخدم بروايته هذه
[٦] الآية وهذا التفسير وفق إرادته ورأيه قائلاً: "في هذه الساعة التي نندفع فيها الجيوش لا ينبغي أن نعتمد عليها، وإذا ما خسرنا فعلينا في ذلك الخوفِ والعجز أيضًا ألا نقطع الأمل". استخدم كلامي وفق مراده، وكان هدفي هذا الذي قلتُه.

الفصل الثاني

الإنسانُ أسطُرلابُ الحقّ

كان أحدُهم يقول: إن مولانا لا يعبِّر بالكلام. قلتُ: حسنًا، إنّ فكري هو الذي أحضر إليّ هذا الشخص. وإنّ فكري لم يكلّمه قائلاً: "كيف حالُك؟ أو كيف حالُ الأشياء معك؟". الفكرُ دون كلام جذَبه إلى هنا. فإذا كانت حقيقتي تجذبه دون كلامٍ وتنقله إلى مكان آخر فأيُّ عجبٍ في هذا؟

الكلامُ ظِلُّ الحقيقة وفرع الحقيقة؛ فإذا ما جذب الظلُّ، فإنَّ الحقيقة أولى بالجذب منه وأحلق. الكلامُ ذريعة، وإنّ الذي يجذب إنسانًا إلى إنسان آخر هو ذلك العنصر من التناسب، وليس الكلامَ. بل حتى إذا رأى الإنسان مئة ألف معجزة وبيّنة وكرامة، ولم يكن فيه عنصر التناسب الذي يربطه بذلك النبيّ أو
[٧] الوليّ، لن يفيد ذلك شيئًا. فذلك هو العنصر الذي يجعل الإنسان حائرًا ومضطربًا ولا يهدأ. ولَوْ لم يكن في القشّ جزءٌ من الكهرمان لَما انجذب إليه البتّة. وهذا التجانسُ بينهما خفيٌّ، لا يبدو للنّظر.

إنّ فكرة الشيء هي التي تأتي بالإنسان إلى ذلك الشيء. ففكرةُ البستان تنقل الإنسان إلى البستان، وفكرة الدّكان تنقله إلى الدّكان. لكنّ في هذه الفِكَر تزويرًا خفيًّا. ألا ترى كيف أنك تذهب إلى مكان معيّن فتندم قائلاً: "ظننتُ أنّ ذلك خير. فلمْ يكن كذلك؟".

هذه الفِكَرُ شبيهةٌ بالخيمة وفي الخيمة رجلٌ متوارٍ. فكلّما زالت الفكَرُ من المشهد وتجلّت الحقائق دون حجاب الفِكَر، حدث اضطراب عظيم. وعندما تكون الحالُ كذلك لا يبقى ثمة ندم. وعندما تكون الحقيقة هي التي تجذبك، لا يكون ثمّة شيءٌ آخر غير الحقيقة. الحقيقة نفسها هي التي جذبتك ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾ [الطارق: ٩/٨٦] فما مناسبةُ أن أتحدّث؟

الحقيقةُ أنّ الجاذب واحدٌ، لكنه يتراءى متعدّدًا. ألا ترى أنّ الإنسان تستبدُّ به مئةٌ من الرّغائب المختلفة؟ - يقول: "أريدُ تُتماج، أريد بورك*، أريد حلوى، أريد فطائر مقليّة، أريد فاكهة، أريد رُطبًا". يعدّد هذه الأشياء ويسمّيها واحدًا واحدًا، لكنّ أصلها جميعًا شيءٌ واحدٌ، أصلها الجُوعُ؛ وذلك شيء واحد. ألا ترى كيف أنه عندما يشبع من واحدٍ منها، يقول: "لا ضرورة لشيءٍ من هذه الأشياء؟".

وهكذا يغدو معلومًا أنها لم تكن عشرةَ أشياء أو مئة شيء، بل شيء واحدٌ هو الذي جذب الإنسان.

[٨] ﴿وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً﴾ [المدثر ٣١/٧٤].

هذا التعدّدُ للخَلْق فتنةٌ. حيث يُقال: "هذا الإنسانُ واحد وهم مئة"؛ أي إنّهم يقولون: "إنّ الوليّ واحدٌ والخلق كثيرون، مئة وألف". وهذه فتنة عظيمة.

هذا النظرُ وهذا التفكير الذي يجعل الإنسانَ يراهم كثيرين ويراه واحدًا فتنةٌ عظيمة.

﴿وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً﴾. أيُّ مئةٍ؟ - أيّ خمسون؟ - أيّ ستّون؟ أناسٌ من دون أيدٍ وأقدامٍ، ومن دون عقلٍ وروح، يترجرجون كالطّلّسْم والزئبق وماء الفضة، تقول عنهم الآن: إنهم ستون أو مئة أو ألف، وتقول عن هذا الرّجل إنه

---

* من أنواع الطعام المعروفة في بيئة مولانا وعصره [المترجم].

واحد، ولكنهم على الحقيقة لا شيء، أمّا هذا الرّجل فهو ألفٌ ومئة ألف، وآلاف الآلاف.

قليلٌ إذا عُدّوا كثيرٌ إذا شَدّوا*

أعطى أحدُ الملوك جنديًا واحدًا نصيبَ مئة رجل، من الخبز. فاعترض الجندُ، فقال المَلِك في نفسه: "سيأتي اليومُ الذي أُظهر لكم فيه، وتعرفون أنتم، لِمَ فعلتُ ذلك". وعندما حدثت المعركة فرَّ الجميع، وقاتل ذلك الجنديّ وحدَه. فقال الملك: "كان ذلك من أجل هذا الغرض".

على الإنسان أن ينزِّه تلك الصّفةَ المميِّزة له عن الأغراض والغايات، وأن يطلب الصاحبَ في أمر الدّين. والدّين هو معرفة الصّاحب. ولكن إذا أمضى الإنسانُ عُمرَه في صحبة أولئك الذين يفتقرون إلى التمييز فإنّ آلة التمييز لديه تضعف ويكون عاجزًا عن معرفة صاحب الدّين هذا.

أنت ربّيتَ هذا الجسم الذي لا تمييزَ فيه. التمييزُ هو تلك الصّفةُ المكنونة في الإنسان. ألا ترى أنّ المجنون تكون له يدٌ وقدمٌ، ولكنه لا يمتلك التمييز؟ التمييزُ هو المعنى اللّطيف الذي فيكَ وقد كنتَ ليلاً ونهارًا منشغلاً بتغذية ذلك الجسم الذي لا تمييز لديه. وتتعلّل بأنّ ذلك إنما يقوم على هذا. وبرغم ذلك فإنّ هذا أيضًا قائمٌ على ذلك. كيف كرّستَ كلَّ طاقاتك للاعتناء بهذا الجسم وأهملتَ تمامًا الجوهرَ اللّطيفَ؟ والحقيقة أنّ هذا الجسم إنما يقوم على ذلك الجوهر، وذلك الجوهرُ لا يقوم على هذا الجسم. ذلك النورُ الذي يخرج من نوافذ العين والأذن وغير ذلك، لو كانت هذه النوافذ غير موجودة لسطع من نوافذ أُخَر.

---

* هذا مصراعُ بيت لأبي الطّيّب المتنبي. وهذا البيت والذي قبله يأتيان هكذا في ديوان المتنبي:

سأطلُبُ حقّي بالقَنا ومشايخٍ كأنّهمُ مِنْ طول ما التثموا مُرْدُ
ثِقالٌ إذا لاقوا، خِفافٌ إذا دُعوا كثيرٌ إذا شَدّوا، قليلٌ إذا عُدّوا

مثلما يحدث عندما تضع مصباحًا أمام الشمس قائلاً: "أرى الشمس بهذا المصباح". حاشى لله! فإنك حتى إذا لم تُحضر المصباحَ أظهرتِ الشمس نفسها: فما الحاجة إلى المصباح؟

[٩] ينبغي علينا ألا نقطعَ الأملَ من الحقّ. فالأمَلُ رأسُ طريق الأمان.

وإذا لم تمضِ على ذلك الطريق، فحافظ على الأقلّ على رأس ذلك الطريق. لا تقلْ: "إنني أحدثتُ انحرافاتٍ"؛ الزم طريق الاستقامة، ولن تبقى بعد ذلك انحرافات.

الاستقامة مثلُ عصا موسى، وتلك الاعوجاجاتُ مِثْلُ الاعيب سَحَرة فرعون: عندما تأتي الاستقامةُ تبتلع كلّ تلك الألاعيب. إذا أساتَ فقد أسأت لنفسك، أنّى لجفائك أن يصل إلى الحقّ؟

الطائر الذي حطّ على ذلك الجبل ثمّ طار

انظرْ ماذا أضاف إلى ذلك الجبل وماذا أنقص منه* ؟

عندما تغدو مستقيمًا، كلّ هذه الاعوجاجات ستزول. فحذار أن تقطع الأمل!

وخطرُ صحبة الملوك لا يكمن في أنك قد تخسر حياتك: فعلى الإنسان أن يخسر حياته في النهاية، سواء أكان ذلك اليومَ أو غدًا. ويظهر الخطر من وجهة أنه عندما يدخل الملوك على المشهد وتقوى أنفسُهم ويتحوّلون إلى تنانين، فلابدّ للشخص الذي صحبهم وادّعى صداقتهم، وقَبِل أُعطياتهم أن يتكلم وفقًا لرغباتهم. وسيقبل آراءهم السّيئة من كلّ قلبه، ولن يكون قادرًا على مخالفة

* هنا بيتٌ لمولانا الرّومي، من رباعية، تمامها هكذا:

برُغم أنّه على مائدة الأزل ضجيجٌ للخَلْق — للذين أكلوا ويأكلون، لم تنقص للمائدة الباقية

فالطائرُ الذي حطّ على ذلك الجبل ثم طار — انظرْ ماذا أضاف إلى ذلك الجبل وماذا أنقص؟

أقوالهم. الخطر من هذه الوجهة، لأنّ ذلك يؤذي الدّين. عندما تُصلح ما بينك وبينهم فإنّ الطّرف الآخر الذي هو الأصل يغدو غريبًا عنك. وكلّما تقدّمتَ في تلك الوجْهة فإنّ هذه الوجهة التي فيها المعشوق تُديرُ وجهها عنك. وكلّما صالحتَ أهلَ الدنيا وكنتَ على وفاقٍ معهم غضب عليك [المعشوق].

"مَنْ أعان ظالمًا سلّطه الله عليه": أيضًا ذهابك في وجهته يجعلك خاضعًا لهذا الحُكْم. متى مضيتَ في تلك الوجهة سلّطه اللهُ عليك في النتيجة.

موصفٌ أنْ يصل الإنسانُ إلى البحر ثم يقنع منه بقليل من الماء أو بأباريق. وبعد ذلك كلّه يُجنى من البحر جواهرُ ومئاتُ الآلاف من الأشياء النفيسة. أمّا حَمْلُ الماء من البحر فأيّ قيمة له؟ - وأيُّ فخرٍ للعقلاء في ذلك؟ وماذا يكونون قد حقّقوا؟!

الحقّ أنّ العالمَ ليس سوى زَبَدٍ لهذا البحر، وماؤه هو علوم الأولياء، فأين الجوهر نفسُه؟ ليس هذا العالم سوى زبَد مملوء بالقشّ، لكنه بدوران تلك الأمواج والجيشان المتناغم للبحر والحركة المستمرّة للأمواج يكتسب ذلك الزّبد قدرًا من الجمال.

[١٠] ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ٣/١٤].

ولأنّ الله قال: ﴿زُيِّنَ﴾ فإنها ليست جميلة حقًّا، بل إنّ الجمال فيها مستعار، وآتٍ من مكان آخر. عُمْلة زائفة مطلية بالذهب، أي إنّ هذه الدنيا التي هي فقاعة زبَد، عُملةٌ زائفةٌ لا قَدْر لها ولا قيمة، لكننا نحن الذين طليناها بالذهب، فزُيِّنت للناس.

الإنسان أسْطُرلابُ* الحقّ، ولكن لابدّ من منجّم لمعرفة الأسطرلاب. وإذا امتلك بائعُ الخُضَر أو البقّال الأسطرلابَ، فماذا يستفيد منه؟ وبذلك الأسطرلاب ماذا سيعرف عن أحوال الأفلاك ودورانها وعن الأبراج، وتأثيراتها وعبورها، إلى غير ذلك؟ لكنّ الأسطرلاب في يدي المنجّم عظيمُ الفائدة، ذاك لأنّ "مَنْ عَرَفَ نفسَه فقد عرف ربّه".

ومثلما أنّ هذا الأسطرلاب النحاسيّ مرآةٌ للأفلاك فإنّ وجودَ الإنسان، حيث يقول تعالى: ﴿ولَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٠]، أسطرلابُ الحقّ. وعندما جعل الحقّ تعالى الإنسانَ عالمًا به وعارفًا ومطّلعًا صار يرى في أسطرلاب وجوده تجلّيَ الحقّ وجمالَه المطلق لحظةً لحظةً ولمحةً لمحةً، وذلك الجمال لا يغيب عن هذه المرآة البتّة. إنّ للحقّ عزّ وجلّ عبادًا يُغطّون أنفسهم بالحكمة والمعرفة والكرامة؛ وبرغم أنّه ليس للخَلْق ذلك النظرُ الذي يرونهم به، تدفعهم الغيرةُ الشديدة إلى أن يغطّوا أنفسَهم، مثلما يقول المتنبيّ:

لَبِسْنَ الوَشْيَ لا متجمّلاتٍ ولكنْ كَيْ يصنّ به الجَمالا

* آلة فلكيّة قديمة لقياس ارتفاع الشمس أو النجوم [المترجم]

[١١]

الفصل الثالث

موتوا قبلَ أن تموتوا

قال بروانه: إنّ قلبي وروحي منهمكان ليلاً ونهارًا في خدمة الحقّ، ولكن بسبب انشغالي بالمغول لستُ قادرًا على تأدية تلك الخدمة.

قال مولانا: هذه الأعمالُ أيضًا من أجل الحقّ؛ لأنها السببُ لتهيئة الأمن والأمان للمسلمين. فقد ضحّيتَ بنفسك ومالك وجسدك لتنقل قلوبهم إلى حالٍ يُشغَل فيها قليلٌ من المسلمين آمنين بطاعة الله. وهذا العمل أيضًا عملُ خير. وقد أعطاك الحقّ تعالى الميلَ إلى مثل هذا العمل الخيِّر؛ وفرْطُ الرَّغبة دليلُ العناية، وعندما يكون ثمة فتورٌ في هذا الميل يكون دليلاً على عدم العناية؛ ذاك أنّ الحقّ تعالى لا يريد أن يَظهر مثلُ هذا الخير الخطير على يد هذا الإنسان، حتى لا يستحقّ ذلك الثوابَ وتلك الدرجات العالية. وهذه الحال تشبه حال الحمّام السّاخن؛ فإنّ سخونته مستمدّة من الوقود المستخدم في الموقد، كالقشّ المجفّف والحطب، والرّوث وغير ذلك. وعلى النحو نفسه يُظهر الحقّ تعالى الأسبابَ التي قد تكون في ظاهرها شرّاً ومكروهةً، لكنّها في حقّ الإنسان من العناية الإلهيّة.

وعلى غرار الحمّام، فإنّ الإنسان الذي يُحمّى بمثل هذه الأسباب يسخُن ويصل نفعه إلى الخلق.

في هذه الأثناء جاء بعضُ الأصدقاء. فاعتذر مولانا قائلاً: "إذا أنا لم أقم لكم ولم أكلّمكم ولم أسألكم فهذا احترامٌ على الحقيقة. ذاك لأنّ احترام أيّ شيء يكون مناسبًا للوقت الذي يحدث فيه. ففي الصلاة لا يليق أنْ يحتفي الإنسان بأبيه وأخيه وأن يقدّم لهما التعظيم. وعدم الالتفات إلى الأحبّة والأقارب أثناء الصلاة هو عينُ الالتفات، وعينُ الضيافة؛ لأنه عندما لا ينقطع عن الطاعة والاستغراق بسببهم ولا يشوَّش، لا يكونون مستحقّين للعقاب والعتاب. وهكذا يكون عينَ الالتفات والضيافة أن يحاذر شيئًا فيه عقابٌ لهم.

سأل أحدُهم: هل هناك طريقٌ أقربُ إلى الله من الصّلاة؟

فأجاب: الصلاة أيضًا، ولكنّ الصلاة التي ليست هي هذه الصّورة الظاهرة فقط.

هذه (قالبُ) الصلاة؛ لأنّ لهذه الصلاة بدايةً ونهايةً. وكلُّ شيء له بداية ونهاية يكون قالباً. لأنّ التكبير بداية الصلاة، والسلام نهايتها. ومثل ذلك الشهادةُ، فإنها ليست الصيغة التي تُقال باللسان فقط؛ لأنّ تلك الصفة أيضًا لها بداية ونهاية. وكلُّ شيء يعبَّر عنه بالحرف والصّوت ويكون له أوّل وآخر يكون صورةً وقالبًا؛ أمّا روحُه فغيرُ محدَّدٍ ولامتناهٍ، وليس له أوّلٌ ولا آخر.

[١٢] وثمة شيءٌ آخر، هو أنّ هذه الصلاة أظهرَها الأنبياءُ. والآن فإنّ نبيّنا ﷺ، الذي أوضح لنا هذه الصلاة، هكذا يقول:

"لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه نبيٌّ مُرْسَل ولا ملكٌ مقرّب".

وهكذا تحقّقنا من أنّ (روح الصلاة) ليس هو هذه الصورةَ الظاهرة فحسب، بل هو استغراقٌ تامٌ وغيابٌ تبقى فيه هذه الصّورُ جميعًا خارجًا، ليس لها مكانٌ هنالك. حتى جبريل، الذي هو معنًى محضٌ، ليس له مكان أيضًا.

يُحكى عن مولانا سُلطان العلماء*، قطب العالَم، بهاء الحقّ والدّين، قدّس الله سرّه العظيم، أنّ أصحابه وجدوه في أحد الأيام في حالٍ من الاستغراق التّامّ. حان وقت الصّلاة فنادى بعضُ المريدين مولانا أن: "حان وقتُ الصلاة".

لم يلتفت مولانا إلى قولهم، فنهضوا وانشغلوا بالصلاة. اثنانِ من المريدين وافقا الشيخَ فلم ينهضا للصلاة. كان واحدٌ من أولئك المريدين المنشغلين بالصلاة يسمّى (خواجكي). أُظهر له بعين السِّرّ عيانًا أنّ كلّ الأصحاب الذين كانوا في الصلاة مع الإمام كانت ظهورهم إلى القِبْلة. وأنّ ذَيْنك المريدَيْن اللّذَيْن كانا قد وافقا الشيخ كان وجهاهما إلى القِبْلة. لأنّ الشيخ عندما غاب عن (نحن) و(أنا) وفنيت هُويّته وتلاشى واستُهلك في نور الحقّ "موتوا قبل أن تموتوا"، صارَ نورَ الحقّ. وكلُّ من يُدير ظهره إلى نور الحقّ ووجهه إلى الجدار لابدّ أن يكون قد جعل ظهره إلى القِبْلة. ذاك لأنّ نور الحقّ هو روح القِبلة..

وفوق ذلك، هؤلاء الخلق الذين يتوجهون إلى الكعبة - النبيّ ﷺ هو الذي جعل الكعبة قِبْلةَ العالَم، ولكنها إذا كانت قِبْلةً فالأولى أنها كانت كذلك عندما صارت قِبلةً له.

عاتب المصطفى صلواتُ الله عليه أحدَ الأصحاب، قائلاً: "دعوتُك، فكيف لم تأتِ؟" فأجاب: كنت منشغلاً بالصلاة. فقال النبي: "حسنًا، ألم أكن أنا الذي أناديك؟" فأجاب الصحابيّ: إنيّ عاجزٌ.

قال مولانا: خيرٌ لك أن تكون عاجزًا في كلّ وقت وفي كلّ لحظة، وأن ترى نفسَك في حال القدرة أيضًا عاجزًا، مثلما ترى نفسَك في حال العجز. ذاك لأنّ فوق قدرتك قدرةً أعظم، وأنت مقهور للحقّ في الأحوال جميعًا. وأنت لستَ نصفَيْن، تكون حينًا قادرًا، وحينًا عاجزًا. الحظْ قدرتَه وعُدّ نفسَك دائمًا عاجزًا

---

* هذا لقبُ والدِ مولانا جلال الدّين [المترجم]

[١٣] من دون يدٍ وقدمٍ، ضعيفًا، مسكينًا. فأيّ وضع لهذا الإنسان الضعيف وهو يرى الأسودَ والنمور والتماسيح جميعًا عاجزةً ومرتجفة أمامه؟ والسماوات والأرضون كلّها عاجزة ومسخّرة لحُكْمه. إنه مَلِكٌ عظيم. وليس نورُه كنور القمر والشمس، الذي في حضرته يبقى الشيءُ في مكانه. عندما يسطع نورُه دون حجاب لا تبقى سماء ولا أرض، ولا شمس ولا قمر، لا يبقى إلاّ ذلك المِلِك.

حكاية

قال أحدُ الملوك لدرويش: "في تلك اللحظة التي يكون لك تجلٍّ وقُرْب من جناب الحقّ تذكَّرْني". فأجاب الدّرويش: "عندما أصل إلى تلك الحضرة ويسطع عليّ ضياءُ شمس ذلك الجمال لا أعود أتذكّر نفسي. فكيف أتذكّرك؟" ولكن إذا اختار الحقُّ عبْدًا، وجعله مستغرقًا فيه تمامًا، فإنّ كلّ مَن يتمسّك بأذياله ويطلب منه حاجةً، يلبّي له الحقّ مطلبَه من دون أن يذكره ذلك العظيمُ عند الحقّ ويعرضه عليه.

يُحكى أنه كان هنالك مِلِكٌ، وكان له عبدٌ خاصّ جدًّا. وعندما كان ذلك العبد يتوجّه ناحيةَ قصر الملك كان أهل الحاجات يسلمونه قِصَصًا[1] وكُتُبًا طالبين منه أن يعرضها على الملك. كان يضع تلك القصص والكتب التي فيها حاجات القوم في محفظته. وعندما كان يدخل في خدمة الملك لا يستطيع أن يتحمّل ضياء جَماله، فيقع أمام الملك مغشيًّا عليه. كان الملكُ يُدخل يده في جيبه ومحفظته، على سبيل الدّعابة، قائلاً: "هذا العبد المندهش بيّ المستغرَق في جمالي ماذا لديه؟". كان يأخذ تلك الكتب ويأمر بتنفيذ الحاجات المطلوبة فيها

(١) القصص: وريقات يقصّ فيها الأشخاصُ ما يريدون عَرْضه على وُلاة الأمور [المترجم].

كلّها بالكتابة على ظهورها، ثـم يعيدها إلى عفظة عبـده. وهكـذا كـان يلبـي حاجات الجميع دون أن يعرضها العبدُ عليه، على نحوٍ لا يرفض فيه أيًّا منها. بل كانوا يحصلون على مطلوبهم مضاعفًا وأكثر من ذلك الذي كانوا يطلبونه. أمّـا العبيد الآخرون الذين كانوا واعين وقادرين على عرْض قصـص أهـل الحاجـات على جناب المِلِك، فنادرًا ما تُقضى حاجةٌ واحدةٌ من مئة حاجـة أو مسـألة مـن التي يعرضونها.

الفصل الرابع

﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

[١٤] قال أحدهم: هاهنا نسيتُ شيئًا. فقال مولانا: هناك شيء واحد في هذا العالَم لا ينبغي أن يُنسى. إذا نسيتَ الأشياء كلّها، ولم تنسَ ذلك الشيء، فلا داعي للخوف؛ ولو أنك أنجزتَ الأشياء كلّها وتذكّرتها ولم تنسها ونسيت ذلك الشيء، فكأنك ما فعلت شيئاً البتّة. وهذا تمامًا مثلما إذا أرسلك مِلكٌ إلى قريةٍ من أجل عملٍ معيّن، فذهبتَ وأدّيتَ مئة عمل آخر، فعندما لا تكون أدّيتَ ذلك العمل الذي كنتَ قد ذهبت من أجل تأديته فكأنّك ما أدّيت شيئًا البتّة.

وهكذا فإنّ الإنسان جاء إلى هذا العالم من أجل عملٍ معيّن، وذلك مقصوده وهدفه، فإذا لم يؤدِّ هذا الذي جاء من أجله، فإنه لا يكون قد فعل شيئًا.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢].

عرضْنا تلك الأمانة على السماوات، لكنّها لم تكن قادرة على تسلّمها. لاحظْ كيف أنّ أعمالاً كثيرة تأتي منها، يحارُ فيها عقلُ الإنسان. فهي تحوّل الحجارة إلى عقيق وياقوت؛ وتحوّل الجبالَ إلى مناجم للذهب والفضّة، وتجعل نباتَ الأرض ينتعش ويحيا مشكّلاً مشهدًا بهيجًا كجنّات عَدْن. والأرض أيضاً

تسلّم البذور وتعطي الثمار؛ وتستر العيوب، وتقبل وتُظهر مئات الآلاف من العجائب التي يعزُّ شرْحُها. والجبال أيضًا تقدّم المعادن المختلفة. هذه الأشياء جميعًا تفعلها [السّماء والأرض والجبال]، لكنه لا يأتي منها ذلك العمل الأوحد؛ ذلك العمل الأوحد يأتي من الإنسان:

﴿ولَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٠].

لم يقل: "ولقد كرّمنا السّماء والأرضّ". وهكذا فإنه من الإنسان وحْده يأتي ذلك العملُ الذي لا يأتي من السّماوات، ولا يأتي من الأرضين، ولا من الجبال. وعندما يفعل الإنسانُ ذلك العمل يُنفى عنه الظلمُ والجهل. وإذا قلتَ: "إذا أنا لم أفعل ذلك الفعل فإنّني أفعلُ أفعالاً كثيرة غيره"، فإنّ الإنسان لم يُخلَق من أجل تلك الأعمال الأخرى. كما لو أنّك أتيتَ بسيفٍ فولاذيّ من
[١٥] سيوف الهند التي لا تقدّر بثمن كتلك التي توجَد فقط في خزائن الملوك، ثمّ جعلته ساطورًا لقطع اللّحم الفاسد، قائلاً: "لن أدَع هذا السّيف معطّلاً، سأقضي به مصالح كثيرة". أو كما لو أتيتَ بقِدْر مصنوعةٍ من الذهب فطبختَ فيها لِفتًا في الوقت الذي تستطيع بحبّة واحدة من ذلك الذهب أن تشتري مئة قِدر. أو كما لو جعلتَ خنجرًا مجوهرًا مسمارًا لتعليق قرعة مكسّرة، قائلاً: "أستفيد منه وأعلّق القرعة عليه. لن أدَع هذا الخنجر معطّلاً". ألا يكون عزنًا ومضحكًا؟ عندما يمكن تعليق القرعة بمسمار من الخشب أو الحديد زهيد القيمة جدًّا، فكيف يكون معقولاً أن يُستخدم لذلك خنجر قيمته مئة دينار؟

الحقّ تعالى جعل لك قيمةً عظيمةً، إذ يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ٩/١١١].

أنت في القيمة أسمى من العالَمَيْنِ كليهما

فماذا يمكن أن أفعل إذا كنتَ لا تعرفُ قَدْرَك* ؟!

لا تبعْ نفسَك رخيصًا، وأنت نفيسٌ جدًّا في عيني الحقّ**

يقول الحقّ تعالى: "لقد اشتريتكم أنتم، وأوقاتكم، وأنفاسَكم، وأموالكم، وحيواتكم. إذا صُرِفَتْ عليّ، إذا أعطيتموني إيّاها، فإنّ ثمنها جنّةُ الخُلْد. قيمتك عندي هي هذه". لو بعتَ نفسك لجهنّم لكنتَ قد ظلمتَ نفسَك، مثل ذلك الرّجل الذي دقّ خنجرًا قيمتُه مئة دينار في الجدار وعلّق عليه جرّة أو قرعة.

لنعد إلى ما كنّا بدأناه: أنت تقدّم تبريرك قائلاً: "أستنفد طاقاتي في أداء أعمال عالية نبيلة. أدرس علوم الفقه والحكمة والمنطق والنجوم والطبّ وغير ذلك"، لكنّك تفعل هذا كلّه من أجلك أنت. فإذا كنت تدرس الفقه، فإن ذلك من أجل ألا يسرق أحدٌ الرّغيف من يدك، أو ينتزع عنك لباسَك، أو يقتلك. باختصار: من أجل أن تكون في أمان. وإذا كنت تدرس النّجومَ، وأحوالَ الفلك وتأثيرها في الأرض من خفّة وثِقَل، وأمان وخوف، فإنّ هذه الأشياء جميعًا لها صلةٌ بأحوالك، فهي أيضًا من أجلك؛ وإذا كان النجمُ سَعْدًا أو نحسًا فإنّ له تعلّقًا بطالعك ومن ثمّ فهو من أجلك. [١٦]

عندما تتأمّل جيّدًا، تجد أصل الأشياء كلّها نفسَك؛ وهذه الأشياء الأخر جميعًا فرعُ نفسك. وعندما يكون لفرعك الكثيرُ من التفاصيل والعجائب والأحوال والعوالم العجيبة التي لا نهاية لها، فتأمّل ما يكون لك، أنتَ الأصلَ، مِنْ أحوال.

---

* هذا البيت مستمدٌّ من آخر الباب السابع من "حديقة الحقيقة" للشاعر الصّوفي الكبير سَنائي الغزنوي [المترجم].

** لعلّ هذا مصراع مبتور للرّومي في "الدّيوان الكبير" [المترجم].

عندما يكون لفروعك عروجٌ وهبوط وسَعْدٌ ونحسٌ، فتأمّل نفسَكَ أنتَ الأصلَ: ماذا يكون لك من عروج وهبوطٍ في عالم الأرواح، ومن سَعْد ونحس ونفع وضرّ! الرّوح الفلانيّ له تلك الخاصيّة، ويحدث منه ذلك الشيءُ؛ فلان من الناس يلائمُ مثل هذا العمل.

إنّ لك غذاءً آخر، غير هذا الغذاء من النّوم والأكل. قال النّبي [عليه الصلاة والسلام]:

"أبيتُ عند ربّي يطعمني ويسقيني".

في هذا العالم الوضيع نسيتَ ذلك الغذاء السّماويّ، وشغلتَ بهذا القوت الماديّ. وأخذت ليلاً ونهارًا تغذّي جسمك. والآن فإنّ هذا الجسم هو حوادُك، وهذا العالم الوضيع إصطبلك. إنّ غذاء الفرس لا يكون غذاءً للفارس؛ إذ إنّ للفارس نوعًا خاصًّا من النوم والطعام والتنعّم. ولكن لأنّ الحيوانية والبهيمية غلبتا عليك تخلّفتَ مع حوادك في إصطبل الخيل، ولم يكن لك مقامٌ في صفّ ملوك عالم البقاء وأمرائه. قلبك هناك، وعندما غلب عليك الجسدُ صرتَ خاضعًا لحُكمه، وبقيتَ أسيرًا له.

مثلما قصد المجنون ديار ليلى. فعندما كان واعيًا كان يسوق ناقته إلى تلك الناحية. وعندما يغدو لحظةً مستغرقًا في ليلى، وينسى نفسَه وناقته، كانت الناقة التي لها حُوارٌ في القرية تنتهز الفرصة، فتعود، وتصل إلى القرية. وعندما كان المجنون يصحو، كان يجد نفسه قد رجع في الطريق مسيرة يومين. وهكذا بقي في الطريق مدّة ثلاثة أشهر. وأخيرًا هتف: "هذه الناقة هي بلائي!"، فنزل عن الناقة، وواصل السّير مشيًا.

هوى ناقتي خَلْفي وقدّاميَ الهوى فــإنّي وإيّاهــا لمختلفــان

قال مولانا: إنّ السيّد برهان الدّين محقّق قدّس الله سرّه العزيز تكلّم: جاء أحدُهم وقال: "سمعتُ مَدْحَك من فلان". فأجاب برهان الدّين: "انتظر لكي [17] أرى مَنْ فلان ذلك، هل له تلك المنزلة التي تجعله يعرفني ويمدحني. إذا كان عرفني بالكلام فقط فإنه لم يعرفني. ذلك لأنّ هذا الكلام لا يبقى؛ وهذه الأحرف والأصوات لا تبقى، هاتان الشفتان وهذا الفمُ لا تبقى. هذه جميعًا أعراضٌ. أمّا إذا عرفني بأفعالي، وعرف ذاتي، فإنني أعلم عندئذٍ أنه قادرٌ على مَدْحي، وأنّ ذلك المدْح لي".

وهذا مثلُ ما يُحكى من أنّ أحدَ الملوكِ أسلَم ولدَه إلى جماعة من أهل البراعة؛ حتى يعلّموه علومَ النجوم والرَّمْل وغير ذلك، حتى غدا أستاذًا كاملاً، برغم غبائه المطبق وبلادته. وفي يوم من الأيام أمسك المِلكُ في قبضته خاتمًا، وامتحن ابنَه.

"تعالَ، قُلْ ماذا في قبضتي؟".

قال الأميرُ: "الشيء الذي تمسكه مدوّرٌ، وأصفرُ، ومجوَّف".

قال المِلك: "أمّا وقد قدّمت العلاماتِ الصحيحة، فقرِّرْ الآن أيّ شيء ذلك؟".

أجاب الأمير: "ينبغي أن يكون غربالاً".

قال المِلك: "حقًّا، أعطيتَ هذه العلامات الدقيقة الكثيرة، ممّا يحيِّر العقول. وإذْ لك هذا القدْر من قوّة التحصيل والعلم، كيف فاتك أنّ الغربال لا تتسع له قبضة اليد؟".

ومثل هذا الآنَ علماءُ زماننا الذين يشقّون الشعرة في العلوم، وقد عرفوا غاية المعرفة تلك الأشياءَ الأخرى التي لا تعلّق لها بهم، وصارت لهم إحاطة كاملة بها.

أمّا ما هو مهمٌّ حقّاً وأقرب إلى الإنسان من كلّ الأشياء الأخرى؛ أي نفس الإنسان، فلا يعرفُه ذلك العالِم؛ لا يعرف نفسَه. يحكم على الأشياء كلّها بالحِلّ والحُرْمة قائلاً: هذا جائز وذلك غير جائز، هذا حلال وذلك حرام. لا يعرف نفسَه إن كانت حلالاً أم حرامًا، جائزة أم غير جائزة، طاهرة أم غير طاهرة.

والآن فإنّ هذه الصفات من تجويف وصُفرةٍ ونقش وتدوير صفاتٌ عارضة. فعندما يوضع الشيء في النار لا يبقى شيء منها، يخلو ذاتاً صافية من كلّ هذه الصفات. العلامات التي يعطونها لأيّ شيء من العلوم والأفعال والأقوال هي من هذا القبيل، ولا تتعلّق بجوهر الشيء الذي يبقى وحده عندما تذهب هذه العلاماتُ جميعًا. هكذا تكون علامات الأشياء؛ فهم يتحدّثون عن هذه الأشياء جميعًا، ويشرحونها، ويعلنون أخيرًا أنّ ما وضعه المِلك في قبضته إنّما هو غربالٌ، عندما لا يكون عندهم علمٌ بما هو الأصل.

[١٨] أنا طائرٌ. أنا بلبلٌ. أنا ببّغاء. إذا قالوا لي: "ائتِ بصوت آخر غير صوتك" فلن أكون قادرًا على ذلك. عندما يكون لساني هو هذا، لا أستطيع أن أقول غير ذلك، خلافًا لمن تعلّم أصوات الطيور وهو ليس طائراً؛ بل عدوّ للطيور وصيّاد لها. وهو يغنّي ويصفر لكي تخاله الطيور طائرًا. ولو أمروه بأن يأتي بصوت مختلف غير هذا الصوت لاستطاع؛ لأنّ ذلك الصّوت عاريّةٌ لديه، وليس له. يستطيع أن يأتي بصوت آخر؛ لأنه تعلّم أن يسرقَ أمتعة الناس، وأن يظهر قماشاً من كلّ بيت.

الفصل الخامس

المخاضُ المُوصِلُ

[١٩] قال الأتابك: أيُّ لُطْفٍ هذا أنْ يشرّفني مولانا على هذا النحو! ما توقّعت ذلك، ولم يخطر ببالي أنني لائق بهذا التشريف. كان ينبغي أنْ أظلّ ليلاً ونهارًا مقيّد اليدين في زمرة الخدَم والملازمين وفي صفّهم. أمّا الآن فلستُ لائقًا حتى بمثل ذلك. أيّ لطفٍ كان هذا!

قال مولانا: ذلك كلّه لأنّ لكم مِثْل هذه الهمّة العالية. وكلّما كانت لكم مرتبةٌ عزيزة وعظيمة وكنتم مشغولين بشؤون خطيرة وسامية، فإنكم بسبب علوّ همّتكم ترَون أنفسكم مقصّرين، ولا ترضون بما أنجزتموه، وترون أنّ عليكم أن تفعلوا أشياء كثيرة. وبرغم أنّ قلبي كان دائمًا قاصدًا إلى خدمتكم، أردتُ أيضًا أن أقدّم لكم التشريف في الصورة. ذلك لأنّ الصورة أيضًا لها اعتبارٌ عظيم، ويكمن اعتبارُها وأهميتها في حقيقة أنها مشارِكةٌ للجوهر. ومثلما لا يظهر الشيء إذا لم يكن له لبٌّ، لا يظهر أيضًا إذا لم يكن له قِشرٌ. فإذا وضعتَ بذرةً في التراب دون قشرها، فإنها لا تنبت، أمّا إذا دفنتها في التراب بقشرتها فإنها تنبت، وتغدو شجرة عظيمة. ومن هذه الوجهة يكون الجسد أيضًا أصلاً عظيمًا وضروريًا، ومن دونه يخفق العمل ولا يحصل المقصود.

إي، واللهِ، الأصلُ هو المعنى عند مَنْ يعرف ذلك المعنى، ويكون قد صار هو معنى. وهذا الذي يُقال: "ركعتان من الصلاة خيرٌ من الدنيا وما فيها" لا ينطبق على كلّ شخص. بل ينطبق على ذلك الشخص الذي إذا فاتته ركعتان كانتا لديه أسمى من الدنيا وما فيها. فوتُ الركعتين يكون لديه أصعبَ من إضاعة مُلْك الدنيا التي هي كلّها له.

دخل درويشٌ جنابَ أحد الملوك، خاطبه المَلِك قائلاً: أيها الزاهد!

أجاب الدّرويش: لا، أنتَ ترى الأشياء عكسَ ما هي عليه. فهذه الدنيا والآخرة وجملة مُلكك، هذه جميعًا لي. وقد أمسكتُ أنا بالعالم كلّه. بينما قنعتَ أنتَ بلقمةٍ وخرقةٍ.

﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١١٥].

وذلك (وجهٌ) يجري ويمتدّ دون انقطاع وعلى الدوام. وقد ضحّى العشّاقُ الحقيقيون بأنفسهم من أجل ذلك (الوجه)، ولم يطلبوا عوضًا. وباقي الخلق كالأنعام.

[٢٠] قال مولانا: برغم أنّهم أنعامٌ، فهم مستحقّون للإنعام. وبرغم أنهم في الإصطبل، فهم مقبولون عند أمير الإصطبل. فعندما يشاء ينقلهم من هذا الإصطبل، ويأتي بهم إلى حظيرته الخاصة. مثلما أنه في البدء عندما كان الإنسانُ عَدَماً أتى به إلى الوجود، ثمّ نقله من حظيرة الوجود إلى الجماديّة، ثمّ من حظيرة الجماديّة إلى النباتية، ومن النباتية إلى الحيوانية، ومن الحيوانية إلى الإنسانية، ومن الإنسان إلى المَلَك، إلى ما لا نهاية. وهكذا أظهر هذه الأشياءَ كلّها لتتحقّق من أنّ لديه كثيرًا من أجناس هذه الحظائر إحداها أسمى من الأخرى.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٨٤/١٩].

أظهر الحقُّ هذا العالم الحاضر لعلّك تستيقن الطبقاتِ الأخرى التي تأتي بعدُ. لم يُظهره من أجل أن تُنكر وتقول: هذا كلُّ ما هو موجود.

فالأستاذُ في حِرْفة من الحِرَف يُظهر صنعته وبراعته لكي يعتقد المبتدئون بصنعته وبراعته، ويقرّوا بالبراعات الأخرى التي لم يُظهرها بعدُ، ويؤمنوا بها. وهذا مِثْلُ أن يعطي مِلكٌ الخِلَعَ والصّلات ويهلّل رعاياه ابتغاء أن يتوقّعوا منه أشياء أخَر، ويخيطوا الأكياس أملاً بهدايا الذهب في المستقبل. لا يعطيهم هذه الأشياء لكي يقولوا: هذا كلّ ما هو موجود؛ لن يقدّم الملك إنعامًا آخر. ويقتصرون على هذا القدر. ولو عرف المِلك أنّ أيًّا من رعيته سيقول مثل ذلك ويستيقن مثل ذلك، لما أنعم عليه البتّة.

الزّاهد حقًّا هو مَنْ يرى الآخرة، أما أهلُ الدنيا فيرون الإصطبل [الآخُر، بالفارسية]. أمّا خاصّةُ الحقّ والعارفون فلا يرون الآخرة ولا الإصطبل. لهم نظرٌ وقعَ على الأوّل، وهم يعرفون بدايةَ كلّ أمر. مثلما أنّ الخبير يزرع قمحًا وهو يعرف أنه سينبت قمحًا؛ ومختصرُ القولِ أنه رأى النهاية منذ البداية. ومثلُ ذلك الشعيرُ والأرزّ وغيرهما. عندما رأى البداية لم تقع عيناه على النهاية؛ النهاية معلومةٌ لديه في البداية. وهم نادرون. أمّا أولئك الذين يرون الآخرة فهم المتوسّطون، وأمّا الذين في الإصطبل فهم الأنعام.

إنّ الألم هو الذي يوجّه الإنسان في أيّ عمل. وما لم يظهر في داخله ألَمُ ذلك الشيء وهَوَسُه وعِشْقه، فلن يقصد إليه. ولن يتيسّر له ذلك الشيءُ دون ألم، سواءٌ أكان ذلك الشيء نجاحًا في هذه الدنيا أم نجاةً في الآخرة، وسواء أكان تجارة أم مُلكًا، وسواء أكان علماً أم نجومًا، إلخ. ولو لم تظهر آلامُ الوَضْع لمريم لما قصدت إلى تلك الشجرة المباركة:

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ١٩/٢٣].

[٢١] ألجأها ذلك الألَمُ إلى الشجرة، والشجرة التي كانت جافّة غدت مثمرة.

الجسمُ مثلُ مريم. وكلٌّ منّا لديه عيسى في داخله، فإذا حدث لنا الألَمُ وُلِد عيسانا، وإذا لم يحدث الألَمُ فإنّ عيسى سينضمُّ ثانيةً إلى أصله بذلك الطريق الخفيّ الذي أتى به، فنبقى محرومين، ولا نصيب لنا منه.

الرّوحُ في الدّاخل في فاقةٍ، والجسدُ في الخارج في ثراء،

الشيطانُ من تخمته يتقيّأ، وجمشيد لا يمتلك حتى الخبز.

والآن تدارَ؛ فإنّ مسيحَك على الأرض؛

إذ عندما يعود المسيح إلى السماء سيتبدّد كلّ أملٍ بعلاجك*

---

* هذا التّعريب لأفضل الدّين الخاقاني [المترجم].

الفصل السادس

المؤمنُ مرآة المؤمن

هذا الكلام من أجل الشخص الذي هو في حاجة إلى الكلام لكي يدرك. أمّا من يدرك من دون كلام فما الحاجة إلى الكلام معه؟ والسّماوات والأرضون جميعًا كلامٌ لدى الإنسان الذي يُدْرك، وهي وليدة الكلام، أي ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وهكذا لدى الإنسان الذي يسمع الصّوت الخفيض، أيّ حاجة إلى الجعجعة والصّراخ؟

دخل شاعرٌ ينظم بالعربية إلى حضرة أحد الملوك. كان ذلك الملك تركيّاً، ولم يكن يعرف الفارسية أيضًا. كان الشاعرُ قد نظم في الاحتفاء به شعرًا عظيمًا رائعًا بالعربية، وأحضر هذا الشعرَ معه. وعندما جلس الملِك على العرش وحضر أهلُ الدّيوان جميعًا واحتلّوا أمكنتهم كما ينبغي، الأمراء والوزراء كلّ في مكانه، وقف الشاعرُ على قدميه وبدأ إنشاد قصيدته.

كان الملِكُ عند كلّ موضع للاستحسان يهزّ رأسه، وعند كلّ موضع للتعجّب يبدو مندهشًا، وعند كلّ موضع للتواضع كان ينتبه. وقد حار أهلُ الديوان قائلين في أنفسهم: إنّ مليكنا لم يعرف كلمة واحدة بالعربية، فكيف صدر عنه مثلُ هذا التحريكُ للرأس المناسبُ لمقاطع القصيدة في المجلس؟ إلاّ إذا كان يعرف العربيةَ ويخفي عنّا ذلك طوال هذه السنين الكثيرة. وإذا كنّا قد تكلّمنا بالعربية كلامًا منافيًا للأدب فويلٌ لنا.

كان للملك غلامٌ خاصٌ. فاجتمع أهل الديوان وأعطوه فرسًا وبغلاً ومالاً، وتعهّدوا بأن يقدّموا له المزيد فيما بعد. وقالوا له: أخبرنا عمّا إذا كان المِلك يعرف العربية أو لا يعرفها. وإذا كان لا يعرف، فكيف كان يهزّ رأسه في الموضع المناسب؟ - أكان ذلك كرامةً؟ - أكان إلهاماً؟.

إلى أن جاء يومٌ من الأيام، فوجد الغلامُ فرصته. كان المِلك خارجًا للصّيد، فأدرك الغلامُ أنه كان سعيدًا، بعد أن كان قد ظفر بصيد وافر. فسأله صراحة. فانفجر المِلكُ بالضّحك. وقال: والله، لا أعرفُ العربية. أمّا تحريكي رأسي واستحساني فذاك أني عرفتُ مقصوده من نظم ذلك الشعر، فهززت رأسي واستحسنت.

وهكذا غدا معلومًا أنّ الأصْلَ هو المقصودُ؛ وذلك الشّعرُ فرعُ المقصود. ولو كان ذلك المقصود غير موجود لما قيل ذلك الشعر.

[٢٣] ولو نُظِر إلى المقصود لزالت الثنائية، فإن الثنائية تكون في الفروع، أمّا الأصلُ فواحدٌ. مِثْلُ ذلك حالُ أشياخ التصوّف. فبرغم أنّهم في الصّورة الظاهرة مختلفون وفي الأحوال والأفعال والأقوال متباينون، فإنّهم من جهة المقصود شيءٌ واحدٌ، هو البحث عن الحقّ.

وهذا مِثْلُ ما إذا هبّت ريحٌ في القصْر، فإنها ترفع طرف السّجّادة، وتحدث اضطراباً وحركة في البُسُط، وترفع التّبن والقشّ في الهواء، وتحوّل سطح ماء الحوض إلى حَلَقٍ شبيه بالدّرع، وتجعل الأشجار والأغصان والأوراق ترقص. وتلك جميعًا تبدو أحوالاً متفاوتة ومختلفة، لكنها من جهة المقصود والأصل والحقيقة شيءٌ واحدٌ؛ لأنّ حركة الجميع من الرّيح نفسها.

قال أحدُهم: أنا مقصِّر.

أجاب مولانا: عندما تبينُ هذه الفكرةُ للإنسان، ويعاتب نفسه قائلاً: آه، فيمَ أنا، ولماذا أفعلُ مِثْلَ هذا؟ - يكون هذا دليلاً على حبِّ الله إيّاه وعنايته به:

ويبقى الحبّ ما بقي العتابُ*

ذلك لأنّ العتاب يكون للأحبّة، ولا يكون عتابٌ مع الغرباء. والآن فإنّ هذا العتاب متفاوتٌ أيضًا. فعند مَنْ يؤلمه العتابُ؛ ويكون لديه خبرٌ منه، يكون دليلَ محبّة وعناية في حقّ هذا الإنسان. أما عندما يمضي العتابُ ولا يؤلم المعاتَبَ، فإنّه لا يكون دليل محبّة. مثلما يحدث عندما تُضرب السّجّادةُ بعُودِ الخشب لكي يُنفض عنها الغبارُ؛ فإنّ العقلاء لا يسمّون هذا (عتاباً)، أمّا عندما يضربون ابنهم ومحبوبهم، فإنهم يسمّون ذلك (عتاباً)، ويظهر دليلَ محبّة في مثل هذا الموضع. ولذلك، مادمتَ تجد في نفسك ألمًا وندمًا فإنّ هذا دليلٌ على عناية الحقّ بك، ومحبّته إيّاكَ. وإذا رأيتَ في أخيك عيباً، فإن ذلك العيب الذي تراه فيه هو فيكَ أنت. العالِمُ كالمرآة، التي ترى فيها صورتَك، إذ "المؤمنُ مرآةُ أخيه". أبعدْ ذلك العيبَ عنك؛ لأنّ ما يؤلمك فيه يؤلمك في نفسك.

ثم واصلَ القول: أتوا بفيلٍ إلى عين الماء لكي يشرب. فكان يرى نفسَه في الماء فينفر. كان يظنّ أنه ينفر من فيل آخر، غير دارٍ أنه إنما ينفر من نفسه. كلُّ [٢٤] الخلائق السّيئة من ظُلْمٍ وحقدٍ وحسد وحرص وقسوةٍ وكِبْر، عندما تكون فيك لا تتألّم منها، أمّا عندما تجدها عند شخصٍ آخر، فإنك تنفر منها وتتألّم. لا يستقبح الإنسانُ ما فيه من جَرَبٍ ودمامل، يضع يده المجروحة في الحساء، ثم يلعق إصبعه، ولا يشمئزّ من ذلك البتّة. وعندما يرى على يد إنسانٍ آخر أثارةً من الدّمّل أو نصْفَ خَدْش ينفر من حسائه ولا يستسيغه.

* هذا عجزُ بيتٍ نسبه بعضهم إلى أبي تمام. وقد جاء عند بعضهم على هذه الصورة:

إذا ذهَبَ العتابُ فليس وُدٌّ ويبقى الودُّ ما بقي العتابُ

[المترجم].

والخلائق السيّئة مِثلُ ضروب الجـرَب والدّمّـل؛ عندمـا تكـون فيـه لا يتـأذّى منها، ولكن عندما يرى أثارةً منها لدى الآخر يتأذّى وتنفر نفسه.

ومثلما تنفر أنتَ من أخيك، اعذرْه أيضًا إذا نفَر منك وتأذّى؛ تـأذّيك عـذرٌ له؛ لأنّ تأذّيك يأتي من رؤيتك تلك العيوب، وهو أيضًا يرى العيـوبَ نفسَـها؛ فقد قال النبيّ: "المؤمن مرآة أخيه". فلم يقل: الكافر مرآة المؤمن. فالكافر لـيس لديه تلك الخاصية؛ لأنه ليس مرآةً لآخر، ولا يعرف إلاّ ما يراه في مرآته هو.

كان أحدُ الملوك يجلس كئيباً على ضفة نهر. كان الأمـراء خـائفين جـازعين منه. ولم تنفتح أساريرُه ويُشرق وجهه بوسيلةٍ من الوسـائل.

كان عند الملك مُهرّج عظيمُ المنزلة لديه. وقد اتفق الأمـراءُ معـه قـائلين: "إذا أضحكتَ الملِكَ فسنعطيك مبلغَ كذا". وهكـذا دنـا المهـرّج مـن الملـك، ولكـن برغم كلّ الجهود التي بذلها لم ينظر الملِك إليـه، وهكـذا أراد أن يشـكّل تعبـيرًا وجهيًا خاصًا ليضحك الملك.

ظلّ الملك ينظر في النهر ولم يرفع رأسَه البتّة.

سأل المهرّجُ الملِكَ: ماذا ترى في ماء النهر؟

أجاب الملِك: "أرى ديّوثًا".

فردّ المهرّج: "يا مليكَ العالم، عبدُك أيضًا ليس أعمى".

هكذا هي الحـالُ معـكَ. فـإذا كنـتَ تـرى في عبـدك شـيئًا بإلمـك، فإنّـه في المحصّلة ليس أعمى أيضًا؛ يرى تمامًا ما تراه.

في حَضْرة الحقّ لا مكانَ لاثنتين مِنْ (أنا). أنتَ تقول (أنا)، وهو يقول (أنا): فإمّا أن تموت أمامه، وإمّا أن يموتَ أمامك، حتى لا تبقى الثّنائيّة. أمّـا أن يمـوتَ هو [سبحانه] فأمرٌ غير ممكن لا في الواقع ولا في التصوّر، كيف ذلك وهو الحيّ

الذي لا يموت؟. إنّ للحقّ من اللّطف والرّحمة أنّه لو كـان ممكناً أن يموت من أجلك لمات، حتى تزول الثنائيّة. والآن إذ المـوتُ في حقّه [تعالى] غيرُ ممكنٍ، مُتْ أنتَ حتى يتجلّى عليكَ، وتزول الثنائيّة. عندما تربـط طـائرين حيّيـنِ معًـا، برغم وجود التجانس بينهما وتحوّل جناحيهما إلى أربعة أجنحة، لا يطيران؛ لأنّ الثنائية قائمة. أمّا إذا ربطتَ طائرًا ميتًا بطائر حيٍّ، فـإنّ الطـائر الحيّ يطير لأنّ الثنائيّة زالت. [٢٥]

إنّ للشمس من اللّطف ما يدفعها إلى أن تموت أمام الخفّاش. ولمّا كـان ذلـك غيرَ ممكنٍ فإنها تقول: أيّها الخفّاش، وصَلَ لُطفي إلى كلّ شيء، أريدُ أن أحسـنَ إليك أيضًا. فمتْ أنت؛ لأنّ موتك ممكنٌ، لكي يغدو لك حظٌّ من نور جلالي، وتخرج عن خُفّاشيّتك، وتغدو عَنْقاء قاف القُرْب.

كان لعبدٍ من عباد الحقّ القدرةُ على أن يُفني نفسه من أجل الحبيب. وكـان يطلب ذلك الحبيبَ من الله [تعالى]. لكـنّ الله عزّ وجلّ لـم يقبل تلبيـة هـذا المطلب. فجاء النداءُ: لا أريد لك أن تراه. فألحّ عبدُ الحقّ ذلك في الطلب، ولـم يتوقف عن توسّله واستدعائه، قائلاً: يا ربّ، لقد غرست فيّ الرغبـةَ فيه، وهـي لا تفارقني. وفي الأخير جاء النداءُ: أتريد أن يظهر؟ - إذن ضحِّ بنفسك، وصِـرْ عَدمًا. لا تبقَ، اتركْ هذا العالم. فقال العبدُ: ياربّ، أنـا راضٍ. وهكـذا فعل، إذ أطاحَ برأسه من أجل ذلك الحبيب، حتى حصل له ذلك المطلبُ. عندمـا يكـون لعبدٍ ذلك اللّطفُ الذي يجعله يضحّي بِعُمُرٍ، يومٌ واحدٌ منه يَعْدل عمرَ العالَم من أوّله إلى آخره، ألا يكـون لخـالق اللّطـف نفسِه مِثْلُ هـذا اللّطـف؟ - سـيكون مُحالاً أن يكون الأمرُ غيرَ ذلك. لكنّ فناءه هو [سبحانه] غيرُ ممكـن، فمـا من سبيل إلاّ أن تفنى أنتَ.

جاء ثقيلٌ وأجلـس نفسـه فـوق أحـد الأوليـاء الكبـار. فقـال مولانـا: مـا الاختلاف عليهم بين أن يكونوا فوق المصباح أو تحته؟ - فـإذا طلـب المصبـاحُ

العلوَّ، فإنه لا يطلب ذلك من أجله هو، غرضُه منفعةُ الآخرين، حتى يكون لهم حظٌّ من نوره. وإلاّ فإنّ المصباح هو المصباحُ، شمس الأبديّة. فإذا طلب الأولياءُ جاهَ الدنيا ورفعتَها فإنما يطلبون ذلك لهذا الغرض: يريدون أن يصطادوا أهلَ الدنيا، الذين ليس لديهم النّظرُ الذي يرون به رفعتهم الحقيقية، بأشراك الدّنيا، لعلّهم يجدون طريقهم إلى تلك الرّفعة، ويقعون في شرَك الآخرة. وكذلك لم [٢٦] يفتح المصطفى صلوات الله عليه مكّة والبلاد المحيطة بها لأنّه كان محتاجًا إليها. فتحها في سبيل أن يعطي الحياةَ لجميع الناس ويكرمهم بالنّور، هذه "كفٌّ معوّدةٌ على أن تعطي ما هي معوّدة على أن تأخذ". الأولياءُ يحتالون على الخَلْق لكي يعطوهم العطاء، لا ليأخذوا أيّ شيء منهم.

عندما ينصبُ شخصٌ الفخَّ ويوقع الطيورَ الصغيرة بمكرٍ في فخّه ليأكلها ويبيعها، يسمّى مِثْلُ هذا مَكْراً. أمّا إذا نصب مِلِكٌ فخّاً لكي يمسك بباز غير مدرّب ولا قيمة له وليس لديه عِلْم بجوهره، فيدرّبه على يده حتى يغدو مكرّمًا ومعلّمًا ومودبًا، فإنّ هذا لا يسمّى مكراً. وبرغم أنه في الصورة الخارجية مكرٌ، فإنه يُعدّ عين الصّدق والعطاء والإنعام وإحياء الميّت وتحويل الحجر إلى عقيق وجعل المنيّ الميّت إنساناً، وأكثر من ذلك. ولو كان لدى الباز عِلْمٌ بالسبب الذي يجعل الرّجالَ يصطادونه لما كان في حاجةٍ إلى الحَبّ، ولبحث بروحه وقلبه عن الفخّ، ولطار إلى يد المِلِك. ينظر الخلْقُ إلى ظاهر كلام الأولياء ويقولون: "لقد سمعنا الكثيرَ من هذا. قلوبُنا مملوءة بهذا الضّربِ من الكلام".

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨/٢].

كان الكافرون يقولون: إن قلوبنا أغلفة لهذا الجنس من الكلام، وهي مملوءة من هذا. فيجيبهم الحق تعالى: حاشى لِلّه أن تكون قلوبهم ممتلئة من هذا! إنها مليئة بالوسواس والأوهام الباطلة، ممتلئة بالشّرك والشّكّ، بل ممتلئة باللعنة.

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾

ليتهم كانوا فارغين من تلك الهذيانات! إذن لكانوا قابلين إذ ذاك لأنْ يتقبّلوا مثلَ هذا الكلام. لكنهم غيرُ قابلين. ختم الحقُّ تعالى على آذانهم وعلى أعينهم وعلى قلوبهم. حتى إنّ أعينَهم ترى الأشياء على غير حقيقتها؛ فيرون يوسفَ ذئبًا. وتسمع آذانهم الأشياء على غير حقيقتها، فتعُدّ الحكمة لَغْوًا وهذياناً. وقد تحوّلت قلوبهم إلى أوعيةٍ للوسواس والأوهام.

قد استولى عليهم تشكّلات الظّلمة والأوهام الفارعة في الشتاء؛ فتجمّدوا مع الثّلج والصّقيع.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٢/٧].

فكيف يرجّح أن يكونوا ممتلئين من هذا الكلام الحقيقيّ؟ - لم يشمّوا حتى رائحة هذا الكلام، ولم يسمعوا به طوال حياتهم، لا هم أنفسهم ولا أولئك الذين يفتخرون بهم، ولا أصلهم البائس. إنه كوزٌ يريه الحقّ تعالى لبعضهم مملوءًا بالماء فيشربون منه ويرتوون، ويريه لآخرين فارغًا. وعندما تكون الحالُ مع هذا الفريق الثاني على هذه الصورة أيُّ شكرٍ يقدِّم لهذا الكوز؟ - الذي يقدِّم الشكر هو مَنْ يريه الله الكوزَ مملوءًا. عندما خلق الحقّ تعالى آدمَ من الطّين والماء - "خمَّر طينةَ آدمَ أربعين يوماً" - أتمّ قالبه، وبقي مدّة على الأرض. فهبط إبليس عليه اللّعنة، ودخل في قالبه. وطاف في عروقه جميعًا، واختبرها ووجد أنّ تلك العروق والأعصاب مليئةٌ بالدّم والأخلاط. فقال: أوه، ليس ثمّة عجبٌ في أنّ إبليس الذي كنتُ قد رأيته عند ساق العرش سيظهر. فإذا كان إبليس ذلك موجودًا فهو هنا. والسلام عليكم.

الفصل السّابع

لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا

دخل ابنُ الأتابك. فقال مولانا: إنّ والدك مشغول دائمًا بالحقّ. واعتقاده غالبٌ، وظاهرٌ في كلامه. في أحد الأيام قال الأتابك: إنّ كفّار الرّوم حثّوني على تزويج أختي للتّتار، لكي يغدو الدّينُ واحدًا، ويزول هذا الدّينُ الجديد الذي هو الإسلام. فقلتُ لماذا، متى كان هذا الدّين واحدًا؟

كان هناك دائمًا دينان أو ثلاثة، وكانت الحربُ والتقاتل سِجالاً بينهما. فكيف تريدون للدّين أن يكون واحدًا؟ - لن يكون واحدًا إلاّ في الآخرة، يوم القيامة. أمّا هنا في هذه الدنيا فغير ممكن؛ لأنه هاهنا لكلّ إنسان مرادٌ وهوى مختلف عن مراد الآخر وهواه. الوحدةُ هنا غير ممكنة؛ ستكون ممكنة فقط يوم القيامة؛ لأنّ الناس جميعًا يغدون واحدًا، وينظرون إلى وجهةٍ واحدة، وتكون لهم أذنٌ واحدة ولسانٌ واحدٌ.

في تركيب الإنسان أشياءُ كثيرة. فيه فأرٌ وطائر. الطائر يرفع القفص إلى الأعلى، أمّا الفأرُ فيعيده إلى الأسفل. مئة ألف من الوحوش المختلفة موجودةٌ في الإنسان، إلا إذا تخلّى الفأرُ عن طبيعة الفأر، والطائر عن طبيعة الطائر، وغدت جميعًا شيئًا واحدًا، لأنّ المطلوب ليس فوقُ ولا تحتُ؛ عندما يظهر المطلوب لن يبقى فوقُ ولا تحتُ.

أضاع أحدُهم شيئًا. ظلّ يبحث عنه شِمالاً ويمينًا، وأمامًا، وخلف. وعندما وجد ذلك الشيءَ لم يعد يبحث فوقُ ولا تحت، ولا شِمالاً ويميناً، ولا أمام ولا خلف، غدا هادئاً ومتماسكاً. وهكذا فإنه في يوم القيامة يغدو الناسُ جميعًا نظرًا واحدًا، ولسانًا واحدًا، وأُذنًا واحدة، وإدراكاً واحدًا. مثلما تكون الحالُ عندما يشترك عشرة أشخاص في بستان أو دكّان، فإنّ كلامهم يغدو واحدًا، وهمّهم واحدًا، وانشغالهم بشيء واحد؛ لأنّ مطلوبهم غدا شيئاً واحداً. وهكذا في يوم القيامة، حيث يكون للجميع انشغالٌ بالحق [سبحانه]، يغدون شخصًا واحدًا في هذا المعنى الحقيقيّ.

كلُّ شخصٍ في هذه الدنيا مشغولٌ بأمرٍ من الأمور. أحدهم مشغولٌ بحبّ امرأةٍ، وآخر بالمال، وثالث بالكسب، ورابع بالعِلْم. كلٌّ منهم يعتقد أنّ علاجه، وفرحه، وسعادته، وراحته، إنّما هي في ذلك الشيء الذي هو مشغولٌ به. [٢٩]

وتلك رحمةٌ من الحقّ. وعندما يذهب إلى هناك ويبحث، لا يجد؛ فيعود. وعندما يمكث ساعةً يقول: إنّ ذلك السّرور وتلك الرّحمة يستحقّان البحث. لعلّي لم أبحث جيّدًا. سأبحث ثانية. وعندما يبحث ثانيةً لا يجد. وهكذا يواصل البحثَ، حتى تُظهر الرحمةُ وجهها دون حجاب. وبعدئذ يدرك أنّ ذلك لم يكن الطريق الصحيح.

أمّا الحقّ تعالى فإنّ له عبادًا يكونون كذلك قبْلَ يوم القيامة: يرون الحقيقةَ الأخيرة. يقول عليٌّ رضي الله عنه: "لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازددت يقينًا. يعني: عندما يُزال القالَبُ [الجسد] وتقوم السّاعة لا يزداد يقيني. ونظيرُ ذلك أنّ جماعةً من الناس في ليلةٍ مظلمةٍ وفي بيتٍ من البيوتِ وجّهوا وجوههم إلى كل جهةٍ في أثناء الصلاة. وفي الصباحِ غيّروا جميعًا وِجْهتهم. أمّا ذلك الذي كان متّجهًا إلى القِبْلة في اللّيل فلماذا يدير وجهه، والجميع قد أداروا وجوههم نحو وجهته التي كان عليها؟ وهكذا فإنّ عباد الحقّ أولئك ظلّوا متّجهين إليه حتى في

اللّيل، وقد أداروا وجوههم عن كل ما سواه. وهكذا فالقيامة عندهم ظاهرة وحاضرة.

ولا نهاية للكلام، لكنّه يتزّل حسبَ طاقة الطّالب.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٥/٢١].

الحِكمةُ مِثلُ الغيث أو المطر. في مخزنه ومَعْدنه لا نهاية له، لكنه يتنزل تبعًا للمصلحة؛ في الشتاء، وفي الربيع، وفي الصّيف، وفي الخريف، دائمًا بالمقدار المناسب، زيادةً ونقصًا؛ أمّا في المكان الذي يتزل منه فلا حدّ له. يضع العطّارون السُّكّر أو الدّواء في لفافات الورق، لكنّ السّكّر ليس هو ذلك المقدارَ الموجود في الورق. فمخازن السّكّر ومخازن الدّواء لا حدّ لها ولا نهاية؛ فكيف توضَعُ في الورق؟

قال بعضهم مشنّعًا: لِمَ كان القرآنُ يتزل على محمّد ﷺ كلمةً كلمةً، لا يتزل سورةً سورةً؟ – فقال المصطفى صلواتُ الله عليه:

"ماذا يقول هؤلاء البُلْهاء؟ – لو نزل عليّ تامّاً لذُبتُ ومُحيتُ من الوجود". لأنّ المتأملَ الذي يقدّر تقديرًا حقيقيًا، من القليل يفهم الكثير، ومن الشيء الواحد أشياء، ومن السطر الواحد دفاتر. ونظيرُ ذلك جماعةٌ كانوا جالسين يستمعون إلى حكاية، وكان أحدُهم يعرف تلك الأحوال والملابسات كلّها، [٣٠] كان وسْط الحادثة. من إشارة واحدة يفهم ما يُحكى كلّه؛ ويغدو أصفر وأحمر، ويتغيّر من حال إلى حال. أمّا الآخرون فلا يفهمون إلاّ بقدر ما سمعوا؛ لأنهم لم يقفوا على الأحوال كلّها. أمّا مَنْ كان مطّلِعاً فإنه يفهم الكثير من المقدار الذي سمعه.

لِنَعُدْ: إذا جئتَ إلى العطّار وجدتَ لديه كثيرًا من السّكّر. لكنه يرى كم أحضرتَ من النقود، ويعطيك بقدر ذلك. النقودُ يُراد بها هنا الهمّة والاعتقاد.

بقدر همّة الإنسان واعتقاده ينزل عليه الكلامُ. إذا جئتَ تطلب السّكّر ينظرون في أوعيتك كم تتّسع، وعلى قدرها يكيلون لك؛ مكيالاً واحدًا أو مكيالين. أمّا إذا أحضر أحدهم قطارًا من الجِمال وعددًا كبيرًا من الأوعية فإنهم يأمرون بأن يحضُر الكيّالون.

وهكذا يأتي إنسان لا تكفيه بحارٌ، ويأتي إنسانٌ تكفيه بضع قطرات، وما زاد عن ذلك يكون ضررًا له. ولا ينطبق هذا فقط على عالم المعاني والعلوم والحِكمة. بل ينطبق على كلّ شيء. الثروة والذهب والمعادن لا حدّ لها ولا نهاية. لكنها تنزل على قدر طاقة الشخص؛ لأنه لا يتحمّل أكثر من ذلك، ويصاب بالجنون. ألا ترى أنّ المجنون وفرهاد وغيرهما من العشّاق هاموا على وجوههم إلى الجبال والصّحاري بسبب عِشْق امرأة؛ لأنهم حُمّلوا من الشرق والشهوة أكثر مما يقدرون على حمله؟ ألا ترى أنّ فرعون عندما انصبّ عليه المُلك والمالُ فوق طاقته ادّعى الألوهيّة؟

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾

"ليس ثمة شيء، من حَسَنٍ وقبيحٍ، إلاّ عندنا خزائنه التي لا حدودَ لها، لكنّنا نرسله على قدر ما فيه من مصلحة".

نعم حقّاً: هذا الشخص لديه اعتقاد، لكنه لا يعرف بأيّ شيء يعتقد. مثلما أنّ الطفل لديه اعتقادٌ بالخبز، لكنه لا يعرفُ بأي شيء يعتقد.

وهكذا الحال في النّاميات والنباتات جميعًا: تغدو الشجرة صفراء وجافّة من العطش، لكنها لا تعرف ما العطش.

إنّ وجود الإنسان مِثْلُ العَلَم. ففي البدء يُرفَع العَلَمُ في الهواء، وبعد ذلك يُرْسَل العساكرُ إلى أسفلِ ذلك العَلَم من كلّ جهة بعلمُها الحقُّ وحده - العقلُ والفهمُ والأنَفةُ والغضبُ والحِلْمُ والكرَم والخوف والرّجاء، وأحوالٌ لا نهاية لها

[٣١] وصفاتٌ لاحدّ لها. فمن ينظر من بعيد لا يرى سوى العَلَم، أمّا من ينظر من قُربٍ فيعرف ما فيه من جواهر وحقائق.

دَخَل أحدُهم فقال مولانا: أين كنتَ؟ - كنّا مشتاقين إليك. لِمَ ابتعدتَ عنّا؟

أجاب الرّجلُ: هكذا جاءت التقادير.

فقال مولانا: نحن أيضًا سألنا الله أن يغيّر هذه التقادير ويزيلها.

التقديرُ الذي يسبّب الفراق تقديرٌ غير مناسب. نعم، واللهِ، هو من الحقّ أيضًا، وهو بالنسبة إلى الحقّ وحْدَه خيرٌ. صحيحٌ ما يقال من أنّ الأشياء كلّها بالنسبة إلى الحقّ خيرٌ وكمالٌ، أمّا بالنسبة إلينا فليس الأمرُ كذلك. الزّنا والطّهارة، ترْكُ الصّلاة وأداء الصّلاة، الكفر والإسلام، الشّركُ والتوحيد - هذه الأشياء جميعًا خيرٌ بالنسبة إلى الحقّ؛ أمّا بالنسبة إلينا فإنّ الزّنا والسّرقة والكفر والشّرك شرّ، أمّا التوحيد والصلاة والخيرات فهي لدينا خيرٌ. أمّا عند الحقّ فكلّها خير. وذلك مِثْلُ المِلِك الذي يكون لديه سجنٌ ومشنقة وخِلَع وأموال وأملاك وحشَم ومآدب وملاذٌ وطبول وأعلام. أمّا بالنسبة إلى المِلِك فهي جميعًا من مجالي كمال مُلْكه. وهي جميعًا بالنسبة إليه كمالٌ لملكه؛ أمّا بالنسبة إلى الخلْق فكيف تكون الخِلْعةُ والمشنقةُ شيئًا واحدًا؟

الفصل الثامن

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾

[٣٢] سأل أحدهم: أيُّ شيءٍ أفضلُ من الصلاة؟ أحدُ الأجوبة ما كنتُ قلتُه قبلُ، من أنّ (روح) الصّلاة خيرٌ من الصلاة، كما شرحنا آنفًا. الجواب الثاني أنّ الإيمانَ أفضلُ من الصّلاة؛ لأنّ الصلاة مفروضة في خمسة أوقات، أمّا الإيمان فدائم. الصّلاة يمكن أن تُسقَط بعُذْر، وتؤخّر برخصة: ثمّة هذا التفضيل الآخر للإيمان على الصلاة، وهو أنّ الإيمان لا يُسْقَط بأيّ عذرٍ كان ولا يمكن تأخيرُه برُخصة. أيضًا، الإيمانُ ينفع من دون الصلاة، والصّلاةُ لا تنفع من دون إيمان، مثل صلاة المنافقين. أمرٌ آخر: الصلاة في أيّ دين تختلف عنها في الدّين الآخر، أمّا الإيمان فلا يتغيّر من دين إلى آخر؛ أحوالُه ووجهته وغيرُ ذلك لا تتبدّل.

وثمة فروقٌ أخرى؛ تتّضح تبعًا للقوة الجاذبة لدى السامع. والمستمع كالطّحين بين يدي العجّان، والكلامُ كالماء، إذ يُصَبّ على الطحين من الماء بقدر ما يُصلحه.

عيني تنظر إلى شخصٍ آخر؛ فماذا أفعل؟
لُمْ نفسك؛ لأنّ ضياءها أنت.

"عيني تنظر إلى شخص آخر" يعني: تنشُد مستمِعًا آخر، غيرك. "فماذا أفعل - وضياؤها أنت؟": لأنّك مع نفسك، لَمْ تتحرّر من نفسك لكي يتضاعف ضياؤك مئة ألف مرّة.

كان هناك شخصٌ هزيلٌ جداً وضعيفٌ وحقير كالعُصفور، حقير جداً في العيون إلى درجة أنه حتى الصّور الحقيرة نظرت إليه باحتقار، وشكرت الله برغم أنها قبل رؤيته كانت تتشكّى من حقارة صورتها. وبرغم ذلك، كان جلفاً خشناً في كلامه، وكان يقول هُراءً كثيرًا. كان في ديوان الملك، فأزعج سلوكُه الوزيرَ؛ واغتاظ به لديه. حتى أتى يومٌ غضب فيه الوزير، وصاح: يا أهلَ الدّيوان، إني التقطتُ هذا المخلوقَ من التراب وربّيته. وبأكْلِ خبزي والجلوس إلى مائدتي وبإحساني وإنعامي أنا وآبائي صار إنساناً. وها هو الآن بلغَ الحدَّ الذي يقول لي فيه مثل هذه الأشياء. فوقف في وجهه وصاح: يا أهلَ الدّيوان وأكابرَ الدولة وأركانها، إنّ ما يقوله صحيحٌ تمامًا. فقد ربّيت بنعمته وفُتات خُبزه هو وآبائه، حتى نموْتُ قَطْعًا وصرتُ على هذه الصورة الحقيرة المخزية [٣٣] المُذلّة. ولو أنني ربّيت وغُذّيتُ بخبز شخص آخر ونعمته لكانت صورتي وقامتي وقيمتي أحسنَ من هذه التي أنا عليها. التقطني من التراب؛ وكل ما في وسعي أن أقوله: ﴿يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرابًا﴾ (عم: ٧٨/٤٠). ولو أنَّ شخصًا آخر التقطني من التراب لما كنتُ أضحوكةً على هذا النحو الذي ترون.

والآن فإنَّ المريد الذي يتلقّى التربية على يدي رجل الحقّ يكون له روحٌ نظيف وطاهر. أمّا الشخص الذي يُربّى على يدي مزوِّر ومُراء ويتلقّى العِلْمَ منه فيغدو مثل ذلك الشخص الذي جاء ذِكرُه فيما تقدّم، حقيرًا وضعيفًا وعاجزًا ومغتمّاً ولا مخرج لديه، وغير قادر على أن يركّز عقله على أيّ شيء، وحواسه قاصرة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧].

في جبلّة الإنسان جُبلت كلُّ العلوم في الأصل، حيثُ إنّ روحه يمكن أن يُظهر المغيّبات جميعًا، مثلما يُظهِر الماءُ الصّافي كلَّ ما هو تحته من حجر وطمي

وغير ذلك - وكلُّ ما هو فوقه، معكوسًا في جوهر الماء. وهذا شيء طبيعي، لا يحتاج إلى معالجة أو تعليم. ولكن عندما يُمزَج بالتراب أو بالألوان الأخرى تنفصل عنه تلك الخاصية وذلك العِلْم وينساهما. وهكذا أرسلَ الحقّ تعالى الأنبياءَ والأولياءَ مِثْلَ ماء صافٍ عظيم يخلّص كلَّ ماءٍ حقيرٍ وكدر يدخل فيه من كدورته ومن ألوانه العارضة. وعندئذٍ يتذكّر؛ عندما يرى روحُ الإنسان نفسَه صافيًا، يعرف يقينًا أنّه هكذا كان صافيًا في البَدْء، ويعرف أنّ تلك الظّلمة والألوان كانت عارضة.

وإذ يتذكّر حالَه التي كانت قبل هذه العَوارض، يقول:

﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥].

وهكذا فإنّ الأنبياء والأولياء يُذكّرون الإنسانَ بحاله السابقة؛ وهم لا يضعون في جوهره شيئًا جديدًا. والآن فإنّ كلّ ماءٍ كَدِر يعرف ذلك الماء العظيم، قائلاً: أنا مِنْهُ وأنتمي إليه، يختلط بذلك الماء.

[٣٤] أما الماءُ الكدِر الذي لا يعرف ذلك الماءَ ويراه شيئًا آخر غيره وليس من جنسه، فيلوذ بتلك الألوان والكدورات، لكيلا يمتزج بالبحر وحتى يكون بعيدًا عن الامتزاج بالبحر. ولهذا السبب قال النبيّ ﷺ: "فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"*. ولهذا أيضاً قال الحقّ:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].

يعني أنّ الماء العظيم من جنس الماء الصغير، ومن نفسه، ومن جوهره. وذلك الذي لا يراه من نفسه، لا يكون التناكُر وعلمُ المعرفة لديه من نفس الماء بل من قرين سُوءٍ للماء. صورة ذلك القرين تنعكس على مثل هذا الماء والماءُ لا يعلم أنّ

* هذا جزءٌ من حديث معروف صورتُه الكاملة هكذا: "الأرواحُ جنودٌ مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكرَ منها اختلف" رواه البخاريّ ومسلم (المترجم).

هروبه من هذا الماء العظيم، والبحر هل هو من نفسه أو من صورة قرينة السوء هذه، وذلك بسبب الامتزاج الشديد. ومِثْلُ ذلك أنّ آكل الطّين لا يعرف أكان مَيْلُه إلى الطين بسبب طبيعته أم بسبب عِلّة امتزجت بطبعه.

اعلمْ أنّ كلّ بيت من الشّعر وحديثٍ وآيةٍ يُستشهد بها، هي مِثْلُ شاهدَيْن لديهما شهادات مختلفة، وفي كلّ مقام شهادة مناسبة لذلك المقام. وذلك مِثْلُ أن يكون هناك شاهدان يشهدان على وَقْف بيت، والشاهدان نفسهما يشهدان على بيع دكّان، والشاهدان نفسهما يشهدان على نكاحٍ؛ في كلّ قضية يَحْضُرانها يقدّمان شهادة وفقًا لها. صورةُ الشاهد واحدةٌ دائمًا، أمّا معناه فهو الذي يختلف. نفعنا الله وإيّاكم.

"اللّون لونُ الدّمِ والرّيحُ ريحُ المِسْك"* .

---

* جزءٌ من حديث شريف. انظر: ابن سعد، الطبقات (المترجم).

الفصل التاسع

المطلوبُ الأوحد

[٣٥] قلنا: الرجلُ لديه الرغبةُ في أن يراك. وظلّ يقول: أتمنّى أن أكون قد رأيتُ مولانا.

قال مولانا: هو لا يرى مولانا في هذه اللحظة حقيقةً؛ ذلك أنّ الرّغبة التي استبدّت به، أي الرّغبة في أن يرى مولانا، كانت حجاباً لمولانا. وهكذا لن يرى مولانا في هذه اللحظة من دون حجاب. ومن ثمّ فإنّ كلّ ضروب الرّغبة والميل والمحبّة والشفقة التي يُكنّها الناسُ لأنواع الأشياء، للأب والأمّ والحبيب والسماوات والأرضين والبساتين والقصور والعلوم والأعمال والأطعمة والأشربة، تُعَدُّ ضروبًا من محبّة الحقّ والتّوق إليه.

وتلك الأشياءُ جميعًا حجُبٌ. وعندما يمضي الناس من هذا العالم ويرونَ ذلك المِلك من دون هذه الحجب يعلمون أنّ هذه الأشياء جميعًا لم تكن سوى حجب وأغطية، مطلوبُهم على الحقيقة ذلك الأوحدُ. كلّ المشكلات ستُحلّ عندئذ، وسيسمعون إجابات لكلّ الأسئلة والإشكالات التي في قلوبهم، وسيُرى كلُّ شيء عيانًا. ولا تكون إجابةُ الحقّ بالرّدّ على كلّ مُشكِل هكذا على انفراد، بل إنه بإجابة واحدة فحسب تُجاب الأسئلةُ جميعًا مرّة واحدة، وتُحلّ المشكلات كلّها.

مثلما يحدث في الشتاء عندما يزحف كلُّ شخص مرتديًا ثيابه الثقيلة وألبسته الجلدية بحثاً عن ملاذ من البرد القارس في غارٍ دافئ، ومثلما تبقى كـلُّ النباتـات من شجر وعشب وغير ذلك بسبب قرْص البرد مـن دون وَرَقٍ ومـن دون ثمـر وتحمل أمتعتها في باطنها وتخفيها؛ لكي لا يصـل إليهـا أذى الـبرد القـارس، وفي الربيع يجيب أسئلتها وبتجلٍّ واحدٍ، كلُّ مشكلاتها المختلفـة مـن إحيـاءٍ وإنبـاتٍ وإماتةٍ تُحلُّ دفعةً واحدة، وتُـزال تلـك الأسـباب الثانويـة. وهـي جميعًـا سـترفع رؤوسَها، وتعرف سبب ذلك البلاء.

وقد خلق الحقُّ تعالى هذه الحُجب من أجل المصلحة. لأنّ جمال الحقّ لو ظهر من دون حجاب، لما كانت لدينا القدرةُ على تحمّله، ولما استمتعنا به. وبوسـاطة هذه الحجب نحصل على المدد والنفع. أنت ترى هذه الشمس البعيدة التي نمشي في ضيائها، ونرى ونميز الحَسَن من القبيح، ونستدفئ بحرارتها، وتثمـر الأشـجارُ
[٣٦] والبسـاتين، وبحرارتهـا تنضَـج الفـواكـه الفجّـة والقـابضـة والمـُرّة وتغـدو حلـوة، وتظهـر بتأثيرهـا معـادن الذهـب والفضّـة والعقيـق واليـاقوت. ولـو قُـدّر لهـذه الشمس التي تُقدّم منافعَ كثيرة من خلال الوسائط أن تقترب لما قدّمتْ أيَّ نفعٍ، بل لاحترق العالَمُ والخَلقُ جميعًا ولما بقي منها شيءٌ.

عندما يتجلّى الحقّ تعالى على الجبل بحجابٍ يزدان بغلالةٍ من الشجر والزهـر والخضرة. وعندما يتجلّى من دون حجاب يجعل عاليَه سافلَه ويحيله إلى ذرّات.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ٧/١٤٣].

تدخّل أحدُهم سائلاً: ولكن في الشتاء أيضًا تكون الشمسُ نفسُها موجودةً.

أجاب مولانا: غرضُنا هنا المثالُ. فلا جَمَلَ هنا ولا حَمَلَ. المماثلة شيءٌ والمثالُ شيء آخر. وبرغم أنّ عقلنا لا يستطيع إدراكَ ذلك الشيء مهما بـذل مـن جهـد، فكيف يترك العقلُ جهده؟ وإذا ما تخلّى العقلُ عن جهده فلَنْ يكون عقلاً.

العقلُ هو ذلك الشيءُ الذي يظلّ دائمًا، ليلاً ونهارًا، مضطربًا ودون قرار بسبب الفكر والجهد والاجتهاد في إدراك الباري، برغم أنّه [سبحانه] لا يُدرَك وغير قابلٍ للإدراك. العقلُ مثلُ الفراشة والمعشوقُ كالشّمع. متى ضربت الفراشةُ نفسها بالشّمعة احترقت وهلكت. وشأنُ الفراشة أنّها مهما أصابها من ضرر ذلك الاحتراق والألم لا تستغني عن الشّمع. وإذا كان ثمة حيوان مثل الفراشة لا يستغني عن نور الشمع ويرمي بنفسه على ذلك النور فسيكون هو نفسُه شمعةً؛ وإذا ما ألقت الفراشةُ بنفسها على نور الشّمع ولم تحترق فلن يكون ذلك شمعًا أيضًا.

وهكذا فإن الإنسانَ الذي يصبر على البُعْد عن الحق ولايجتهد في الوصول إليه ليس إنسانًا؛ وإذا ما استطاع إدراكَ الحقّ، فلن يكون ذلك الحقُّ على الحقيقة أيضًا. وهكذا فإنّ الإنسانَ الحقيقيّ هو الذي لا يتوقّف عن الاجتهاد، ويظلّ يدور حول نُور جلال الحقّ دون هوادة ودون قرار. أمّا الحقّ فهو ذلك الذي يحرق الإنسانَ ويُحيلُه عَدَمًا، ولا يكون مُدْرَكا بعقلٍ من العقول.

الفصل العاشر

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾

[٣٧] قال بروانه: إنّ مولانا بهاء الدّين*، قبل أن يظهر مولانا إلى الساحة، كان يعتذر إليّ قائلاً: إنّ مولانا رأى ألاّ يأتي الأميرُ لزيارته ويزعج نفسَه. فإنّني معرّض لحالات كثيرة: في حالةٍ أتكلّم وفي حالةٍ أخرى لا أتكلّم، في حالةٍ أسهر على شؤون الخلق وفي حالة أخرى الودُّ بالعزلة والخلوة، وفي حالة ثالثة أكون مستغرقًا وغائبًا تمامًا. لا أرغب في أن يأتي الأميرُ في حالةٍ لا أستطيع أن أكون فيها لطيفًا معه وليس لديّ الفراغ لأنْ أعظه وأتجاذب أطراف الحديث معه. ولذلك فإنه من الأحسن لي، عندما يكون لديّ فراغ أستطيع فيه أن أهتمّ بالأحبّة وأقدّم لهم الفائدة، أن أذهب وأزور الأحبّة.

وواصل الأميرُ [بروانه] القولَ: فأجبتُ مولانا بهاءَ الدين: أنا لا آتي إلى هنا من أجل أن يهتمّ بي مولانا ويتحدّث معي، بل آتي لأتشرّف، وأكون في زمرة خدَمته. أحدُ الأشياء التي حدثت توّاً أنَّ مولانا كان مشغولاً ولم يظهر وتركني أنتظر حتى وقت متأخر؛ لكي أعلم كم هو صعبٌ وقاسٍ أن أترك المسلمين

---

* يريد هنا والدَ جلال الدّين، رحمهما الله. ويريد بـ"مولانا" الثانية مولانا جلال الدّين نفسَه [المترجم].

والطيّبين ينتظرون عندما يأتون إلى بابي ولا آذن لهم بالدّخول سريعًا. أذاقني مولانا مرارةَ ذلك وأدّبني، لكي لا أفعل ذلك مع الآخرين.

قال مولانا: لا، بل إنّ تركي إيّاك تنتظر كان عَيْنَ العناية بك. يُحكى أنّ الحقّ تعالى قال: يا عَبْدي سأقضي لك حاجتك سريعًا عند الدّعاء والأنين، لكنّ صوت أنينك يحلو لي. وتتأخّر الإجابة لكي تئن كثيرًا؛ لأنّ صوت أنينك يطربُني.

فمثلاً، جاء شحّاذان إلى باب أحد الأشخاص، أحدُهما مطلوبٌ ومحبوب، والآخر مبغوض جدًّا. يقول ربُّ المنزل للغلام: حالاً، ودون إبطاء، أعطِ ذلك المبغوض قطعةً من الخبز لكي ينصرف عن بابنا سريعًا. أما الآخر المحبوب فيقدّم له الوعدَ قائلاً: إلى الآن لَمّا يُخبز الخبزُ، فاصبر حتى يصل الخبز ويُخبَزَ.

رغبتي العظيمة هي أن أرى الأحبّة وأشبع نظري من رؤيتهم، ويشبعون نظرهم مني أيضًا. وعندما يحدث في هذه الدنيا أن يرى عددٌ كبير من الأحبة جوهرَ بعضهم بعضًا رؤيةً جيّدة فإنهم عندما يغدون في عالم الحشر تقوى لديهم المعرفةُ، ويعرف كلٌّ منهم الآخرَ سريعًا من جديد ويعرفون أنهم كانوا معًا في دار الدّنيا، وسيرتبط كلٌّ منهم بالآخر ارتباطًا رائعًا. ذلك أنّ الإنسان ينسى حبيبه سريعًا. ألا ترى كيف أنك في هذه الدنيا تغدو حبيبًا لشخص ومعشوقًا ويكون في نظرك مِثْلَ يوسف في الحُسْن، ثم بسبب فعلٍ قبيح واحد يُحجبُ عن نظرك وتنساه، وتتحوّل صورةُ يوسف إلى ذئب؟ - الشخص نفسُه الذي كنتَ تراه يوسفَ تراه الآن في صورة ذئب، برغم أنّ الصّورة لم تتبدّل وهي هي التي كنتَ رأيتها. وبسبب هذه الحركة العارضة نسيتَه. وغدًا عندما يُحشر الخلق وتُغيّر هذه الذات إلى ذات أخرى كيف ستعرفه ولم تكن قد عرفتَه جيّدًا وتفحصتَ ذاته جيّدًا؟ [٣٨]

والدّرس المحصَّل من هذا أنّ على الناس أن يرى بعضُهم بعضًا رؤية محقّقة، وأن يتجاوزوا الأوصاف السّيئة والجيّدة التي هي مستعارة لدى كلّ شخص، وأن يغوصوا في جوهره، متحقّقين من أنّ هذه الأوصاف التي يخلعُها بعضُ الناس على بعض ليست الأوصاف الأصلية لهم.

يُحكى أنّ أحدهم قال: إنني أعرف الشخص الفلانيّ معرفةً جيدة.وسأقدّم العلامة المميّزة له. فقال الآخرون: تفضّل قلْ. قال: كان مُكاريًا عندي. لديه بقّرتانِ سوداوان. وعلى هذا المثال يتحدّث الناس.

"أعُدُّ فلاناً من الناس صديقي. أعرفه". وكلُّ علامة مميزة يقدّمونها هي على الحقيقة مثلُ العلامات التي قدّمتْها قصّةُ البقرتين السّوداوين.

فليست تلك علامتَه المميّزة، ومثل تلك العلامة لا تأتي بطائل. وهكذا فإنّ على الإنسان أن يتجاوز الحسَن والسّيئ في الإنسان ويدخل في ذاته، ليرى أيّ ذاتٍ وأيّ جوهر لديه. فتلك هي الرؤية والمعرفة على الحقيقة.

وأتعجّب من أناسٍ يقولون: كيف يلعب الأولياءُ والعشّاق لعبة العشق في عالم غير محدّد، ليس له مكانٌ ولا صورة ولا زمان؟ - وكيف يستمدّون منه المددَ والقوّة؟ - كيف ينفعلون به ويتأثرون؟ وبعد ذلك كلّه، ألا يكونون مستغرقين ليلاً ونهارًا في ذلك الشيء نفسه؟ هذا الشخص الذي يحبّ شخصًا ما ويستمدّ العونَ منه - بعد ذلك كلّه، هو يستمدّ منه هذا المددَ واللطف والإحسان والعِلْم والذّكر والفكر والسّرور والغمّ.

[٣٩] وهذه جميعًا تنتمي إلى عالم اللامكان؛ وبرغم ذلك يظلّ لحظةً بعد لحظةٍ يستمدّ العَون من هذه المعاني، ويغدو متأثرًا بها. هذا كلّه لا يثير عجب المتشككين؛ ويتعجبون في الوقت نفسه من أن يغدو الأولياءُ عشّاقاً في عالم اللامكان ويستمدّون المددّ منه.

كان هناك فيلسوفٌ أنكر هذه الحقيقة. وفي يوم من الأيام مرض ونال منه الوهنُ، وامتدَّ مرضُه وقتًا طويلاً. فجاء حكيمٌ إلهيٌ لزيارته. قال الحكيم الإلهيّ: ماذا تطلب؟

أجاب الفيلسوفُ: الصّحة.

قال الحكيم الإلهي: اذكرْ لي صورة هذه الصّحة حتى آتيك بها.

فقال الفيلسوف: الصحةُ ليست لها صورة. ولا كيفية لها.

قال الحكيم الإلهيّ: عندما لا يكون للصحّة وصفٌ محدّد فكيف تطلبها؟

وقال أخيراً: قلْ لي ما الصّحّة؟

فردّ الفيلسوف: كلُّ ما أعرفه أنه عندما تأتي الصّحةُ تحصل عندي القوة أغدو سمينًا وأحمرَ وأبيضَ وناضرًا ومشرقًا.

فقال الحكيمُ الإلهيّ: أنا أسألك عن الصحة نفسها، عن ذات الصّحة ما هي؟

فردّ الفيلسوف: لا أعرفُ. لا وصْفَ لها.

فقال الحكيمُ الإلهيّ: إذا صرتَ مُسْلمًا، ورجعتَ عن مذهبك الأوّل، فسأعالجك وأجعلك صحيح الجسم وأعيد إليك الصّحة.

سُئِل النبيُّ صلوات الله عليه: رغم أنّ هذه المعاني لا كيفية لها، أيستطيع الإنسانُ أن يستفيد منها بوساطة الصّورة؟ - فأجاب: انظر إلى صورة السّماء والأرض. وبوساطة هذه الصّورة، استمدَّ المنفعة من ذلك المعنى الكليّ؛ بقدر ما ترى تصرّف عجلة الفَلَك، ومطر السّحاب في وقت محدّد، والصّيفَ والشّتاءَ وتبدّلاتِ الزّمان. ترى هذه الأشياءَ جميعاً تحدث وفق الصواب والحكمة. وبعد ذلك كلّه، هذه الغيمةُ التي لا حياة فيها كيف تعرف أنّ عليها أن تمطر في وقت

مدَد، ترى أيضًا هذه الأرض كيف تتسلّم البَذْر، فتعطي الحبّةُ عشرةَ أمثالها. والمحصّلةُ أنّ موجودًا هو الذي يفعل ذلك؛ فانظر إليه بوساطة هذا العالَم واستمدّ منه المدَد. ومثلما تستمدُّ مددًا من قالب الإنسان لإدراك حقيقته، استمدّ مددًا من حقيقة العالَم بتأمّل صورة العالَم.

عندما كان النبيّ ﷺ مستغرقًا وتكلّم، كان يقول: قال الله. من جهة الصّورة كان لسانُه هو الذي تكلّم؛ لكنه لم يكن موجودًا، والمتكلّمُ على الحقيقة كان الحقّ. وعندما كان قد رأى نفسَه في البدء جاهلاً مثل هذا الكلام
[٤٠] غيرَ عارفٍ به ولا عِلْمَ له به، ثمّ الآن يصدر عنه مِثْلُ هذا الكلام، عرف أنه الآن ليس ذلك الشخصَ الأوّل. هذا تصرّف الحقّ.

وهكذا كان المصطفى ﷺ يخبر عن أناسٍ وأنبياء مضوا قبل وجوده بمدّة آلاف من السنين، وماذا سيكون حتى آخر الدنيا، وعن العرش والكرسيّ وعن الخلاء والملاء. كان وجودُه قديمًا، إذ إنّ من المقطوع به أنّ الحادث لا يتحدّث عن مثل هذه الأشياء. كيف يخبرُ الحادثُ عن القديم؟ - وهكذا غدا معلومًا أنه ليس هو الذي كان يقول؛ بل الحقّ هو الذي يقول.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٥٣/٣].

الحقُّ منزّهٌ عن الصورة والحَرْف؛ كلامُه خارجٌ عن الحرف والصّوت. لكنه يُجري كلامه بأيّ حرف وصوت، وعلى أيّ لسان يشاء. على الطرقات وفي الخانات نحَتَ المثّالون على حوافّ الأحواض رجالاً أو طيورًا من الحجر يندفع الماءُ من أفواهها ويصبّ في الحوض. كلّ العقلاء يعرفون أنّ ذلك الماء لا يأتي من فم طائر الحجر، بل يأتي من مكان آخر.

إذا أردتَ أن تعرف إنسانًا فدعْه يتكلّم. فمن كلامه تعرفه. وإذا كان أفّاكًا وقال له شخصٌ: إنّ الإنسان يُعرف من كلامه، فتحفّظ في كلامه لكي لا

يُمْسِكُ، حتى في هذه الحال يُعْرَف كذِبُه في نهاية الأمر. وهذا ما توضحُه حكاية الطفل وأمّه. إذ قال طفلٌ لأمّه وهما في الصحراء: في الليالي المظلمة يظهر لي سوادٌ مخيف كالشيطان، فأخاف خوفًا شديدًا. قالت له أمّه: لا تخف. عندما ترى تلك الصّورة احملْ عليها بشجاعة. فيتّضح لك أنها مجرّد خيال. فقال الطفلُ: يا أمّاه، إذا كانت أمُّ ذلك السّواد أوصتْه بمثل ما أوصيتني به فماذا أفعل؟. إذا كانت قد أوصته قائلة: لا تنبس ببنت شفَةٍ حتى لا تنكشف، فكيف أعرفه؟. فقالت الأمّ: اصمُتْ في حضرته، واستسلم له، واصبر، لعلّ كلمةً تقفز من فيه. أو إذا لم تقفز، فلعلّ كلمةً تقفز من لسانك أنتَ دون قَصْد، أو تخطر ببالك كلمةٌ أو فكرة، فإنك بوساطة تلك الفكرة أو الكلمة تعرف حاله؛ ذلك لأنك قد تأثّرتَ به عندئذٍ. فإنّ صورته وأحواله هي التي برزت في داخلك.

كان الشيخ سررزي* رحمةُ الله عليه، جالسًا وسط مريديه. اشتهى أحد [٤١] المريدين رأس خروفٍ مشويًّا. أشار الشيخ أنهُ عليكم أن تأتوا له برأسٍ مشويّ. فقال المريدون: يا شيخُ، كيف عرفتَ أنه يريد رأسًا مشويًّا؟. فأجاب الشيخ: لأنني على امتداد ثلاثين سنةً نفيتُ عن نفسي كلّ شهوة. وقد طهّرتُ نفسي ونقّيتها من أيّة شهوة، فغدوتُ كالمرآة الصّافية التي لا غبش فيها. ولذلك فإنه عندما خطر لي الرأسُ المشويّ واشتهيتُه لنفسي وغدا رغبةً لديّ عرفتُ أنّ ذلك بسبب فلان هنا. لأنّ المرآة لا صورةَ فيها من ذاتها؛ فإذا ظهرت فيها صورةٌ فإنها صورةُ الآخر.

كان واحدٌ من عِلْية القوم جالسًا في الخلوة يسأل الله حاجةً. فجاءه نداءٌ يقول: مِثْلُ هذا المقصود العالي لا يتحقّق بالخلوة. اخرجْ من الخلوة حتى يقع عليك نظرُ أحدِ الأولياء الكبار، فيحصل لك ذلك المقصود. فقال الرّجل: أين

* هو الشيخ محمّد سررزي الزّاهد من أهل غَزْنة، الذي نقل مولانا حكايةً عنه في المثنويّ [المترجم].

ساجد ذلك الوليّ الكبير؟ فجاء الجواب: في الجامع. فقال الرّجل: كيف أعرف من هو وسط حشد كبير من الخلق؟ فقيل له: اذهب، وسيعرفك هو وينظر إليك. وعلامةُ أنّ نظره وقع عليك أنّ الإبريق سيسقط من يدك وتدخل في غيبوبة. وعندئذٍ تعرف أنه قد نظر إليك.

وهكذا فعل. ملأ إبريقًا بالماء، وعمل سقّاءً لجماعة المسجد. كان يدور بين صفوف الناس وعلى نحو مفاجئ ظهرت له حالة، فشهق شهقةً، ووقع الإبريق من يده فأُلقي في زاوية الجامع مغمًى عليه. انصرف الناس جميعًا. وعندما صحا وجد نفسَه وحيدًا. لم ير ذلك الوليُّ الكبير الذي ألقى نظرةً عليه في المكان، لكنه ظفر بمقصوده.

إنّ للهِ رجالاً بسبب تَعْظيمهم الكبير للحقّ وغيرتهم الشديدة عليه لا يُظهرون أنفسَهم للعِيان؛ لكنهم يوصلون الطالبين إلى مقاصد خطيرة ويهبونهم الهبات العظيمة. ومثل هؤلاء الملوك العظماء نادرون نفيسون.

قلنا: هل يأتي العظماءُ أمامكم؟

قال مولانا: لم يبق لي (أمام). وقد مضى وقت طويل وليس لي (أمام). وإذا أتوا، فإنّهم يأتون أمامَ ذلك الشيء المصوَّر الذي اعتقدوا أنه أنا. قال بعضُهم لعيسى عليه السلام: سنأتي إلى بيتك. فأجاب عيسى: أين بيتي في هذا العالم، وكيف يكون لي بيت؟.

يُحكى أنّ عيسى عليه السلام كان يطوف في البرّية فنزل مطر عظيم. فذهب ليلجأ إلى جُحر ابن آوى في زاوية غار، إلى أن يتوقف المطر. فجاءه الوحْيُ قائلاً: اخرج من جُحْر ابن آوى*، لأن جراءه لا ترتاح بسببك. فنادى: يا ربّ، لابن آوى مأوى وليس لابنِ مريمَ مأوى.

* ورد في الأصل الفارسيّ عِوَضَ هذه الكلمة كلمةُ "سه كوش"، والمقابلُ العربيّ الدقيق لهذه الكلمة هو "عَنَاقُ الأرض"؛ لكنّنا آثرنا "ابن آوى" ليتّفق ذلك مع قول عيسى عليه السلام بعد قليل الذي جاء بالعربية [المترجم].

قال مولانا: إذا كان لابن آوى بيتٌ، فليس لديه مثلُ هـذا المعشوق ليطـرده من بيته. أمّا أنتَ فلديك مِثْل هذا الطّارد. وإذا لم يكن لديك بيـتٌ فمـاذا يهـمُّ ذلك؟ - فإنّ لُطْفَ مِثْلِ هذا الطّـارد، ولطـف مثـل هـذه الخِلعـة المتمثّلـة في أنـه خصّك بأن يدفعك أمامـه، يَعْـدِل مئـة ألـفِ ألـف سـماء وأرض ودنيـا وآخـرة وعرش وكرسيّ ويزيد عن ذلك.

قال مولانا: مسألة أنّ الأمير جاء وأنا لـم أظهـر وجهـي سـريعًا لا ينبغـي أن تزعجه. ذلك أنّ مقصوده من هذا المجيء، إنّما كان إعزازَنا نحن أو إعزازه هـو؛ فإن كان من أجل إعزازنا فإنه كلّما أطال الجلوس والانتظار تضـاعف إعزازُنـا، أمّا إن كان غرضه إعزازَ نفسه وطلب الثواب فإنـه إذا انتظـر وأطـال تحمّـل ألـم الانتظار عظُمَ ثوابه. وهكذا فإنه على التقديرين كليهما تضاعف المقصودُ الـذي جاء من أجله وازداد. ومن ثم ينبغي أن يكون مبتهجًا ومسرورًا.

الفصل الحادي عشر

أرني الأشياءَ كما هي

[٤٣] ما يقال من أنّ "القلوب تتشاهد" قولٌ يقوله الناسُ ويحكونه، لكنه لم ينكشف لهم عن نحوٍ واضح. وإلاّ فما الحاجة إلى الكلام؟ - عندما يقدّم القلبُ شهادةً، فما الحاجة إلى شهادة اللّسان؟

قال الأميرُ النائب: حقّاً، يقدّم القلبُ شهادة. ولكنّ للقلب حظ مستقلّ، وللأذُن حظّ مستقلّ، وللعين حظّ مستقلّ، وللّسان حظ مستقلّ. ثمة حاجة إلى كلّ منها لكي تزداد الفائدة.

قال مولانا: إن حصل للقلب استغراقٌ فإنّ الأعضاء جميعًا تّمحي فيه ولا يبقى ثمّة حاجةٌ إلى اللسان. بعد كلّ شيء، إليكَ مثالَ ليلى. لم تكن كائناً روحيّاً، بل كائنًا ذا جسم ونفس، كانت من ماء وطين. كان لعشقها ذلك الاستغراقُ الذي استبدّ بالمجنون واستغرقه حتى إنه لم يعد محتاجًا إلى رؤية ليلى بالعين، ولا إلى سماع حديثها بالصوت؛ لأنه لم يحسّ بأنّ ليلى منفصلةٌ عنه، وهكذا صاح:

خيالُكَ في عيني واسمُكَ في فمي وذكرُكَ في قلبي إلى أين أكتبُ*

* يُنسبُ هذا البيتُ إلى حسين بن منصور الحلاّج، الصوفيّ الذي قُتِل سنة ٣٠٩هـ [المترجم].

هكذا يكون للجانب الجُسمانيّ المادّي تلك القوة التي يحوّل فيها العشقُ الإنسانَ إلى حال لا يرى فيها نفسَه منفصلاً عن المحبوب. حواسُّه جميعًا تُستغرَق فيه، من بَصر وسمع وشمّ وغير ذلك. ولا يطلب عضوٌ البتّة حظًّا آخر منفصلاً، بل يرى كلُّ عضوٍ الأعضاءَ مجتمعةً ويجعلها حاضرةً. ولو أنّ عضوًا من هذه الأعضاء التي أتينا على ذكرها نال حظّه التّامّ وأدّى وظيفته كاملةً لاستُغرقت الأعضاءُ الأخرى كلّها في تجربته، ولما طلبت حظًّا آخر. أمّا طلب الحِسّ حظًّا آخر منفصلاً فدليلٌ على أنّ هذا العضو لم يأخذ حظّه الحقيقيّ والتامّ. أخذ حظًّا ناقصًا ومن ثمّ لم يُستغرق في ذلك الحظّ؛ هناك حسٌّ آخر ينشد حظّه، كلٌّ حس منها منفردًا ينشد حظًّا.

إنّ الحواسّ مجتمعةٌ من جهة المعنى، أمّا من جهة الصّورة فمتفرّقة. وعندما يحصل لعضوٍ استغراقٌ تامّ، تُستغرق فيه الأعضاءُ كلّها. ولهذا فإنه عندما تطيرُ الذبابةُ إلى أعلى تحرّك جناحيها، ورأسها، وأجزاءها جميعًا، أمّا عندما تغرق في العسل فإن أجزاءها جميعًا تغدو شيئاً واحدًا ولا يبدي أيٌّ منها حركةً. [٤٤]

وطبيعةُ الاستغراق أنّ المستغرَق لا يعود موجودًا، ولا يبقى له جهد، ولا يبقى له فعلٌ وحركةٌ؛ يغدو غارقاً في الماء، وكلُّ فعلٍ يصدر عنه لا يكون فعلَه هو، بل فِعْلَ الماء. أما لو ضرب الماءَ بيديه ورجليه فلا يسمّى مستغرقًا؛ ولو صرخ: آه، أنا أغرق، لما سُمّي هذا أيضًا استغراقًا.

هذه العبارة الشهيرة: "أنا الحقّ". يظنّ بعض الناس أنها ادّعاء عظيم؛ لكنّ أنا الحق على الحقيقة تواضعٌ عظيم. لأنّ من يقول: "أنا عبدُ الحقّ" يثبت وجودَين اثنين، أحدهما نفسه، والآخر الله. أمّا من يقول "أنا الحق" فقد نفى نفسَه وأسلمها للرّيح. يقول: "أنا الحق" يعني "أنا عَدَم"، هو الكلّ، لا وجود إلا لله، أنا بكلّيتي عَدَمٌ، أنا لستُ شيئاً.

التواضع في هذا أعظم. وهذا ما لم يفهمه الناسُ. وإذا ما قدّم إنسانٌ العبودية من أجل الله، حِسْبةً لله، فإنّ عبوديّته تظلّ موجودةً؛ وحتى لو كانت من أجل الله، يظلّ يرى نفسَه ويرى فِعْلَه، ويرى الله؛ لا يكون غارقاً في الماء، الغارقُ في الماء هو ذلك الذي لايبقى له أيّةُ حركة وأيّ فعل؛ أمّا حركاته فتكون حركاتِ الماء.

كان أسدٌ يطارد غزالاً، كان الغزال يفرّ منه. كان هناك وجودان، أحدهما وجودُ الأسد والآخرُ وجودُ الغزال. أمّا عندما أدركه الأسدُ وأعمل فيه مخالبه، وبسبب الخوف من الأسد فقد الغزالُ وعيه وإحساسه بنفسه ووقع أمام الأسد، ففي هذه الساعة يبقى وجودُ الأسد، ويّمحي وجودُ الغزال وحْدَه ويتلاشى.

الاستغراقُ الحقيقيّ هو أنّ الحقّ تعالى يجعل للأولياء خوفًا غير خوف الخلق الذين يخافون من الأسد ومن النّمر ومن الظالم، يجعل الحقّ تعالى الوليّ خائفًا منه هو، ويكشف له أنّ الخوف من الحقّ والأمنَ من الحقّ، وأنّ العيش الهانئ والسّرور من الحقّ، وأنّ الأكلّ والنّوم من الحقّ. يُظهر الحقُّ تعالى للوليّ صورةً مخصوصة ومحسوسة بالعين اليقِظة والمفتوحة، صورةَ أسد أو نمر أو نار، وهكذا يغدو معلومًا لديه أنّ صورة الأسد والنمر التي يراها على الحقيقة ليست من هذا العالم البتّة بل من عالم الغيب، صُوّرت له وأُظهرت بجمالٍ عظيم. وكذلك بساتين وأنهار وحُور وقصور وأطعمة وأشربة وخِلَع وبُراقات ومدن ومنازل وعجائب مختلفة - وهو يعرف على الحقيقة أنّ هذه ليست من هذا العالَم. يُظهرها الحقُّ لنَظَره ويصوّرها. وهكذا يعرفُ يقينًا أن الخوف إنما يكون من الله وكذا الأمن، وكلّ الرّاحات والمشاهدات من الله.

والآن فإنّ هذا الخوف من الله لا يشبه الخوفَ من الخَلْق؛ لأنه يأتي من التأمّل والمشاهدة، وليس من الدليل والبرهان؛ ذلك لأنّ الحقّ قد أظهر له على نحو لا لبس فيه أنّ الأشياء كلّها منه سبحانه. والفيلسوف يعرف هنا، لكنه

يعرفه من خلال الدّليل؛ والدّليلُ غير دائم. وذلك السّرور الذي يحصل من الدليل ليس له بقاء، حتى تقول عن الدليل: إنه سارّ وحارّ وناضر.

وعندما يغيب عنه تذكّر الدليل، فإنّ حرارته وسروره لا يعودان موجودَيْن. مثلما يعرف شخص بالدّليل أنّ لهذا البيت بَنّاءً، ويعرف بالدّليل أنّ لهذا البنّاء عينين، وأنه ليس أعمى، وأنّ لديه قدرةً، وليس لديه عجز، وأنه كان موجودًا وليس معدومًا، وأنه كان حيّاً وليس ميتًا، وأنه سابق لبناء البيت. يعرف هذه الأشياء جميعًا، لكنه يعرفها بدليل. والدليلُ ليس باقيًا على الدّوام، يُنسى سريعًا.

أمّا العشّاق الذين خدموا الحقّ فقد عرفوا البنّاء ورأوه بعين اليقين، وأكلوا الخبز والمِلْح معاً وخالط بعضُهم بعضًا، لم يغب البنّاء قطُّ عن تصورهم وأنظارهم. ومِثْل هذا الشخص فانٍ في الحقّ. الذّنبُ عنده ليس ذنباً، والجُرْم عنده ليس جُرماً؛ لأنّه مغلوبٌ ومُستهلكٌ في الحقّ.

أمر مَلِكٌ غلمانه بأن يمسك كلٌّ منهم بقدح ذهبيّ؛ لأنّ ضيفًا سيأتي. وقد أمر المَلِكُ أيضًا أكثر غلمانه قربًا إلى قلبه بأن يمسك قدحًا أيضاً. وعندما أظهر المَلِكُ وجهَهُ غاب ذلك الغلامُ الخاصُّ عن وعيه بسبب رؤية المَلِك وأدركته حالٌ من السُّكْر، فوقع القدحُ من يده وانكسر. وعندما رأى الغلمانُ الآخرون ذلك منه قالوا: ربّما يكون هذا ما علينا أن نفعل؛ فألقوا الأقداح بقصد.

عاتبهم المَلِك قائلاً: لِم فعلتُمْ ذلك؟.

فأجابوا: كان المقرّبُ إليك، وقد فعل مِثْلَ ذلك.

فقال المَلِكُ: أيها البُلهاءُ، هو لم يفعل ذلك. أنا الذي فعلتُه.

من جهة الظاهر، كلُّ تلك الصّوَر كانت ذنبًا. أما ذلك الذنب فقد كان عينَ الطاعة، بل كان فوق الطاعة والذنب. المقصود الحقيقيّ منهم جميعًا إنما كان ذلك الغلام.

[٤٦] الغلمان الآخرون كانوا تابعين للمَلِك، ومن هنا فهم تابعون له [الغلام المقرّب] لأنه عينُ الملك، وليست العبوديّة عليه سوى صورة. وهو مملوءٌ من جمال المَلِك.

يقول الحقّ تعالى: "لولاك ماخلقتُ الأفلاك"*. "أنا الحق" أيضًا هي الشيء نفسُه، معناها: خلقتُ الأفلاك من أجلي.

وهذه هي "أنا الحقّ" بلُغةٍ أخرى ورمز آخر. وبرغم أنّ كلمات الأولياء العظماء تظهر في مئات الصُّور المختلفة، كيف يمكن أن يكون ثمة كلمتان والحقّ واحدٌ والطريق واحد؟ برغم أنها في الصورة تبدو متضادة، هي في المعنى واحدة. الاختلافُ بينها يكون في الصّورة، أمّا في المعنى فهي جميعًا متّحدة. وهذا مِثْلُ ما إذا أمر أميرٌ بأن تُنسج خيمة. فإنّ واحدًا يضفر الحبل وآخرَ يسوّي الوتد، وثالثًا ينسج الغطاء، ورابعًا يخيط، وخامسًا يفتق، وسادسًا يطرّز بالإبرة. وبرغم أنّ هذه الصّور مختلفة ومتفرّقة من جهة الظاهر، فإنهم يجتمعون من جهة المعنى، ويعملون عملاً واحدًا. ومثلُ هذا أحوال هذه الدنيا أيضًا.

عندما تنظر إلى المسألة ترى الخلق جميعًا يؤدّون العبودية للحقّ، الفاسق والصالح، والعاصي والمطيع، والشيطان والمَلَك. يريد أحدُ الملوك، مثلاً، أن يمتحن غلمانه ويختبرهم بوسائل مختلفة، لكي يتبين الثابتُ من غير الثابت، ويتميز الحسَنُ العهد من السّيئ العهد، ويظهر الوفيّ من غير الوفيّ. وهو يحتاج إلى موسوس ومهيّج لكي يظهر ثباتُ الغلام وإخلاصُه؛ ودون وجود هذا الموسوس والمهيّج كيف يظهر ثباتُه؟ - لكنّ هذا الموسوس والمهيّج يقوم بعبوديّة الحقّ؛ لأنّ إرادة المَلِك أن يفعل هكذا. أرسل ريحًا لتُظهر الثابتَ من غير الثابت، ولتفصل البعوضة عن الشجرة والبستان، لتذهب البعوضة ويبقى الباشق.

---

* حديث نبويّ مشهور. وقال بعضهم: إنه لم يرد بهذه العبارة بل بهذه الصّورة: "لولاكَ ما خلقتُ الجنّة، ولولاك ما خلقتُ النّار". ينظر في هذا: اللؤلؤ المرصوع [المترجم].

أمَرَ أحدُ الملوك واحدةً من جواريه بأن تزيّن نفسَها وتعرض نفسها على غلمانه؛ لكي يختبر أماناتهم وخياناتهم. وبرغم أنّ فِعْلَ الجارية يبدو معصيةً في الظاهر، لكنها على الحقيقة تؤدّي العبودية للمِلك.

رأى عبادُ الحقّ الحقيقيون بأنفسهم في هذه الدنيا، لا بالدليل والتقليد بل بالمعاينة والكَشْف من دون ستار وحجاب، أنّ الناس جميعًا، الخيّرَ منهم والشّرير، إنما يقومون بعبودية الحقّ وطاعته.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤].

[٤٧] وهكذا عند هؤلاء القوم تكون هذه الدنيا نفسُها القيامةَ؛ ذلك لأنّ القيامة عبارةٌ عن أنّ الخَلْق جميعًا يقومون بعبودية الله، ولا يفعلون شيئاً آخر غير العبودية. وهم يرون هذا المعنى هنا في هذه الدنيا، فقد جاء القولُ: "لَوْ كُشِفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقينا". العالِمُ، من الوجهة اللغويّة، أرفعُ منزلةً من العارف. لأنّ الحقّ يُقال عنه: إنّه (عالِم)، ولا ينبغي أن يقال عنه: إنّه (عارف). معنى (عارف) أنه ما كان يعرف، ثم عرف؛ ولا يجوز أن يقال مثلُ هذا عن الحقّ. أمّا من جهة العُرْف فإنّ العارف أكبر؛ لأنّ العارف هو ذلك الذي يعرف العالَم من دون دليل بالمشاهدة والمعاينة المباشرة. يسمّي العرفاءُ مِثْلَ هذا الشخص عارفًا.

وقد قيل: "العالِمُ أفضلُ من مئة زاهد". كيف يكون العالِمُ أفضلَ من مئة زاهد؟

ومهما يكن، فإنّ هذا الزاهد إنما يمارس الزهدَ على أساس العلم، وزهدٌ من دون عِلْمٍ مُحالٌ.

ثمّ، ما الزّهد؟ - إنّه الإعراض عن الدنيا والتوجّه إلى الطاعة والآخرة. وفي النهاية لابدّ من أن يعرف الدنيا، قُبْحها وعدم ثباتها، وأن يعرف لُطْف الآخرة

وثباتها وبقاءها، وأن يجتهد في الطاعة قائلاً: كيف أطيعُ وما الطاعة؟. هذه الأشياء جميعًا عِلْمٌ. وهكذا فإنّ الزهد من دون عِلْم محال. ومن هنا فإنّ ذلك الزاهد عالمٌ وزاهد.

هذا (العالِمُ) الذي هو أفضلُ من مئة زاهد أمرٌ محقّق، إلاّ أنّ معناه لم يُفْهَم.

وثمّة عِلْمٌ آخر هو الذي يعطيه اللهُ للإنسان بعد هذا الزّهد والعِلْم اللّذين امتلكهما في البَدْء. وهذا العِلْمُ ثمرةٌ لذلك العِلْم والزهد. ويقينًا فإنّ مِثْلَ هذا العالِم أفضلُ من مئة زاهد.

ونظيرُ هنا أنّ رجلاً غرس شجرةً، ثم أثمرت هذه الشجرة. لاجدال في أنّ تلك الشجرة التي أثمرت أفضلُ من مئة شجرة لم تُثمر. لأنّ تلك الأشجار ربما لا تثمر البتّة، لأنّ الآفات في الطريق كثيرة. فالحاجّ الذي يصل إلى الكعبة أفضلُ من ذلك الحاجّ الذي لايزال يسير في البريّة. فثمة خوف بشأن هذا الحاجّ الذي لم يصل: أيصلُ إلى الكعبة أم لا يصل؛ أمّا الأوّل فقد وصل حقّاً. حقيقةٌ واحدة خيرٌ من مئة شكّ.

قال الأميرُ النائب: إنّ ذلك الذي لم يصل، لديه أملٌ بالوصول أيضًا.

[٤٨] فأجاب مولانا: شتّان ما بين الآمِل والواصِل؛ فبين الخوف والأمن فرق كبير. وما الدّاعي إلى أن نتكلّم على الفرق وهو ظاهرٌ للجميع؟ فالكلامُ إنما هو على الأمن؛ لأنّ ثمة فروقًا عظيمة بين أمنٍ وأمن. ذلك لأنّ تفضيل محمد ﷺ على الأنبياء إنما يأتي من جهة الأمن؛ وإلا فإنّ الأنبياء جميعًا في أمنٍ، ولا خوف عليهم. لكنّ في الأمن درجاتٍ.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٢].

ويمكن الإشارةُ إلى عالَم الخوف ومقامات الخوف، أمّا مقامات الأمن فلا إشارة إليها. في عالم الخوف ينظر كلُّ إنسان ماذا سيبذل في سبيل الله؛ أحدهم

يبذل جسمه، آخر يبذل ماله، ثالث يبذل روحَه؛ أحدُهم يقدّم الصّيام، آخَر الصّلاة، ثالث عشر ركعات، رابع مئة ركعة. وهكذا فإنّ منازلهم مصوّرة ومحدّدة ويمكن الإشارة إليها. وعلى النحو نفسه فإنّ المنازل بين قُونية وقَيْصَريّة معيّنة ومعروفة: قَيماز، وأبروخ، وسلطان، وغير ذلك. أمّا المنازل البحرية من أنطالية إلى الإسكندرية فغيرُ محدّدة. يعرفها القبطانُ، ولا يُحدِّث عنها لأهل اليابسة لأنهم عاجزون عن فهمها.

قال الأمير: حتى الحديثُ يقدّم بعض الفائدة أيضًا. وبرغم أنهم ربما لا يعرفون كل شيء، سيعرفون القليلَ وسيكتشفون الباقي ويخمّنونه.

أجاب مولانا: إي، والله! جلَس شخص في الليل المظلم ساهرًا عازمًا على أن يمضي نحو النهار. برغم أنّه لا يعرف كيفية السَّفر، فإنّه يغدو قريبًا من النهار لأنه ينتظر النهار. شخص آخر يسافر مع القافلة في الليل المظلم وانهمار المطر. لا يعرف إلى أين وصل، وأين يمرّ، وكم قطع من المسافة؛ ولكن عندما يأتي النهار سيرى حصيلة ذلك السّفر وسيجد مكاناً ما. كلُّ من يعمل احتساباً عند الله، حتى لو أغمض عينيه، لن يضيع.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٩٩/٧).

ولكن لأنّ الدّاخِلَ مظلمٌ ومحجوبٌ لا يرى كم قطع من الطريق، لكنه في الآخرة سيرى.

"الدّنيا مزرعةُ الآخرة". كلُّ ما يزرعه هنا يحصده هناك.

كان عيسى، عليه السّلام، يضحك كثيرًا، وكان يحيى، عليه السلام، يبكي كثيرًا، فقال يحيى لعيسى: أمِنتَ المَكْرَ الدقيق تمامًا حتى ضحكتَ مِثْلَ هذا الضحك؟. فأجاب عيسى: وأنتَ أيضًا غفلتَ تمامًا عن عناياته وألطافه الدقيقة
[٤٩] اللطيفة الغريبة، حتى بكيتَ مثل هذا البكاء الكثير؟.

كان وليٌّ من أولياء الحقّ حاضرًا هذا الذي جرى، فسأل الحقّ: أيٌّ من هذين له المقام الأسمى؟ فأجابه الحقّ: أحسنُهم بي ظناً - يعني: "أنا عند ظنّ عَبْدي بي". كلُّ عبدٍ لديه خيالٌ وصورةٌ لي. ففي أيّة صورة تخيّلني أنا عند تلك الصّورة. أنا عبدٌ لذلك الخيال الذي يكون عنده الحقّ؛ ولا أهتمّ بتلك الحقيقة التي لا يكون عندها الحقّ. طهّروا أخيلتكم يا عبادي، لأنها مكاني ومقامي.

والآن اختبرْ نفسَك فيما يتصل بالبكاء والضحك، والصّوم والصّلاة، والخلوة والاجتماع وغير ذلك: أيٌّ منها أكثر نفعاً لك. وفيما يتصل بأحوالك: أيّ حال تجعلك أكثر استقامة على الطريق وأكثر ترقّياً، آثِرْ ذلك العمل. "استفتِ قلبكَ وإنْ أفتاك المُفتون".

لكَ معنًى في داخلك، اعرض عليه فتوى المفتين، لكي تأخذ وتتبنّى ما يأتي موافقًا له. وهذا مِثْلُ أن يأتي الطبيب إلى المريض ويسأل الطبيبَ الدّاخلي؛ لأنّ لك طبيبًا في داخلك، وذلك هو مزاجك الذي يرفض ويقبل. ولهذا فإن الطبيب الخارجيّ يسأله: "الشيء الفلانيّ الذي أكلتَه كيف كان؟ - أكان خفيفًا؟ - أكان ثقيلاً؟ - كيف كان نومك؟". وهكذا، من ذلك الذي يُخبره به الطبيبُ الدّاخلي يحكم الطبيبُ الخارجيّ. ولكنّ الأصل هو الطبيب الدّاخلي؛ أيْ مزاج المريض. وعندما يضعف هذا الطبيبُ ويفسد المزاج، بسبب ضعفه يرى الأشياء على النقيض تمامًا مما هي عليه، ويعطي إشارات معوجّة. يقول: إنّ السّكّر مرّ، وإنّ الخلّ حلوٌ، ولذلك يحتاج إلى الطبيب الخارجيّ ليقدّم له العون، حتى يعود المزاج إلى قراره الأوّل. وبعد ذلك يعرض نفسه على طبيبه ويأخذ منه الفتوى. وإنّ لدى الإنسان مزاجًا مشابهًا من جهة المعنى والحقيقة. وهكذا
[٥٠] فإن الأولياء هم الأطبّاء الذين يقدّمون للإنسان العونَ حتى يستقيم مزاجه ويقوى قلبُه ودينُه، حيث جاء الحديث: "أرني الأشياءَ كما هي". الإنسان شيءٌ عظيم؛ فيه مكتوبٌ كلّ شيء، ولكنّ الحجبَ والظلمات لا تسمح له بأن يقرأ

العِلْمَ الموجود في داخله. والحجبُ والظلمات هي هذه المشاغل المختلفة والتدابير الدنيوية المختلفة والرّغبات المختلفة. وبرغم أنّه غارقٌ في الظلمات ومحجوب بالسّتائر يستطيع أن يقرأ شيئاً ويستنبط منه. تأمّل عندما تُزال هذه الظّلماتُ والحجب أيّ طراز من المستنبطين سيكون، وأيّ علوم سيكتشف في داخله. بعد ذلك كلّه، كلُّ هذه الحِرَف، من خياطة وبناء ونجارة وصياغة وعِلْم ونجوم وطبّ وغير ذلك مما لا يُعدّ ولا يحصى من حِرَف الإنسان، انكشفت من داخل الإنسان، ولم تنكشف من الحجر والطّين اليابس. وما يُقال من أنّ غراباً علّم الإنسانَ كيف يدفن الميّت في القبر هو أيضًا تأمّلٌ للإنسان ركّز على الطائر، إلحاحٌ داخلي من الإنسان ألحّ عليه لفعل ذلك. وبعد ذلك، الحيوانُ جزءُ الإنسان: كيف يعلّم الجزءُ الكلّ؟ وهذا مِثْلُ أن يريد إنسانٌ أن يكتب بيده اليسرى؛ يمسك القلم بيده، ولكن برغم أنّ قلبه قويّ ترتجف يدُه عندما يكتب؛ ولكنّ اليد تكتب بأمر من القلب.

عندما يأتي الأمير، ينطق مولانا بكلمات عظيمة. فالكلماتُ لا تنقطع؛ لأنّه من أسباب الكلام، دائمًا يفيض الكلام عليه، لا ينقطع عنه. في الشتاء عندما لا تعطي الأشجارُ ورقًا وثمرًا لا ينبغي أن يُظنّ أنها منقطعةٌ عن العمل، بل هي تعمل دائمًا.

الشتاءُ هو زمان الدّخْل، والصيفُ هو زمان الخَرْج. والخَرْج يراه الجميعُ، أمّا الدّخل فلا يرونه. كما يُعِدّ شخص وليمةً وينفق فيها كثيرًا من المال، هذا الإنفاقُ يراه الجميع، أمّا الدّخل الذي كان قد جمعه شيئًا فشيئًا من أجل هذه الوليمة فلا يرونه ولا يعرفونه.

وبرغم ذلك فإنّ الأصل هو الدّخْلُ، لأنّ الخَرْج يأتي من الدّخْل. مع أيّ شخص نكون منسجمين، في كلّ لحظة لنا كلامٌ معه، حتى عندما نكون صامتين، في الغيبة والحضور على السّواء. والحقيقة أننا نقاتل الآخر، ونكون

[٥١] متمازجين متداخلين؛ برغم أنّ كُلاًّ منّا يضرب الآخر بقبضته، نتكلّم معه ونكون متّحدين ومتّصلين. لا تنظر إلى تلك القبضة، فثمة في تلك القبضة زبيب. ألا تصدّق بوجوده؟ إذن افتحْها، وانظر الفرق بين الزّبيب والدُّرّ النفيس. الآخرون يتحدّثون في الرّقائق والدّقائق والمعارف نظمًا ونثرًا. وإنّ مَيْلَ الأمير إلى هذه الناحية وليس إلى ناحيتنا بسبب المعارف والدقائق والمواعظ. فأشياءُ من هذا القبيل موجودةٌ في أيّ مكان، وليست قليلة. حُبُّه إيّاي وميلُه إليّ ليس من أجل تلك الأشياء. يرى شيئًا آخر؛ يرى نورًا يتجاوز ما يراه صادرًا عن الآخرين.

يُحكى أن أحد الخلفاء أحضر المجنون، وسأله: ما الذي حدث لك، وما الذي أوقعك؟ : فضحتَ نفسَك، وهجرت بيتَك، وغدوت خراباً وفناءً. فماذا تكون ليلى؟ – وأيّ جمال تملك؟ – تعالَ حتى أعرض عليك الحِسانَ والفاتنات وأجعلهنّ فداءً لك وأعطيك إياهنّ. وعندما حضروا، جُعِلَ المجنونُ والحِسان بحيث يرى بعضُهم بعضًا. أنزل المجنون رأسه، وأخذ ينظر أمامه. فأمره الخليفة: والآن، ارفعْ رأسك، وانظر. فردّ المجنون: إنّني خائف. إنّ عشق ليلى سيفٌ ممتشَق. إذا رفعتُ رأسي فسيطيح به. هكذا غرِق المجنونُ في عِشق ليلى. ومهما يكن، فإنّ للفتيات الأخريات عيونًا وشفاهًا وأنوفًا. فماذا رأى فيها حتى آل إلى مِثْل هذه الحال؟

الفصل الثاني عشر

رجعنا من جهاد الصُّوَر إلى جهاد الفِكَر

قال مولانا: إنّني مشتاق إلى لقائكم، ولكن لأنني أعرف أنكم منشغلون بمصالح الخلق أتجنّب الإثقال عليكم.

قال بروانه: كان هذا واجبًا عليّ. والآن وقد انتهت المشاغل سآتي لخدمتكم.

قال مولانا: لا فرق. كلّه شيء واحد. إنّ لكم من اللّطف ما يجعل الأشياء كلّها لديكم شيئًا واحدًا. كيف يستطيعُ المرءُ أن يتحدّث عن الهموم؟ - ولكن لأنّني أعرف أنكم اليوم أنتم الذين تهتمّون بأعمال الخير والإحسان لابدّ أن أرجع إليكم.

في هذه السّاعة كنّا نبحث في هذه المسألة: إذا كان لرجلٍ عيالٌ والآخر ليس له عيال أفيمكن أن يؤخذ من الأوّل ويعطى للثاني؟

يقولُ أهل الظاهر: تأخذ من للمُعيل وتعطي لغير المُعيل، وعندما تتأمّل جيدًا تجد أنه هو نفسُه معيلٌ على الحقيقة. وهذا مثلُ أنّ واحدًا من أصحاب القلب ممّن لديه جوهرٌ يضرب شخصًا فيكسر رأسَه وأنفه وفكّه. كلُّ الناس يقولون:

إنّ هذا هو المظلوم. أمّا تحقيقاً فإنّ المظلوم هو الضّارب؛ الظّالِمُ هو ذلك الذي لا يعمل من أجل مصلحته. ذلك الذي أكَلَ اللَّكْمَ وكُسِر رأسُه هو الظّالِمُ، وهذا الضّاربُ يقيناً هو المظلوم. لأنّه صاحبُ الجوهر، ولأنّه فانٍ في الحقّ، فإنّ أفعاله هي أفعالُ الحقّ. لا يُقال عن الله: إنه ظالم. فالمصطفى ﷺ، كان يقتل ويريق الدّماء ويُغير؛ وبرغم ذلك كانوا هم الظالمين، وهو المظلوم.

مثلاً: مَغْربيٌّ مقيمٌ في المغرب، ومشرقيٌّ جاء إلى المغرب. الغريب هو ذلك المغربيّ؛ ولكن أيَّ غريبٍ هذا الذي جاء من المشرق؟ - لأنّ العالم كلّه ليس سوى بيت، لا أكثر، فسواء أذهَب من هذا البيت إلى ذلك البيت، أو من هذه الزاوية إلى تلك الزاوية؛ أليس هو في النهاية في البيت نفسه؟ - أما ذلك المغربيّ الذي لديه الجوهر فقد جاء من خارج المنزل. يقول النبيّ: "الإسلامُ بدأ غريباً". لم يقل: المشرقيّ بدأ غريباً. وهكذا المصطفى ﷺ عندما كُسِر كان مظلومًا وعندما هَزَم الأعداء كان مظلومًا أيضًا. لأنه في الحالين كليهما كان الحقّ بيده؛ والمظلوم هو ذلك الذي يكون الحقّ في يده.

تحرّق قلبُ المصطفى ﷺ على الأسرى. فأوحى إليه الحقُّ تعالى من أجل تطييب خاطره أن: قل لهم "في هذه الحال التي أنتم عليها من الرّسْف في القيود
[٥٣] والسلاسل إذا نويتم فعلَ الخير فإنّ الحقّ تعالى سيحرّركم منها، ويعيدُ إليكم ما ذهب منكم بل يضاعفه لكم أضعافاً، ويمنحكم الغفران والرّضوان في الآخرة، كنْزانِ، أحدُهما هو ذلك الذي ذهب منكم، والآخر كنز الآخرة".

سأل بروانه: عندما يعمل العبدُ عملاً، أيأتي التوفيق والخير من العمل أم يكون عطاءً من الحق؟ أجاب مولانا: إنه عطاءٌ من الحقّ وتوفيقٌ من الحقّ. لكنّ الحقّ تعالى بسبب لطفه الواسع يعزوهما كليهما إلى العبد؛ إذ يقول: "كلاهما لك".

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُـمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِمـا كـانُوا يَعْمَلُـونَ﴾ [السجدة: ١٧/٣٢].

قال بروانه: لأنّ لله هذا اللّطف، فإنّ كلّ من يطلب على نحو حقيقي سيجد مطلوبه.

أجاب مولانا: ولكن من دون مرشد لا يمكن أن يحـدث هـذا. وهكـذا فإنّـه عندما كان بنو إسرائيل مطيعين لموسى، عليه السلام، فُتحت لهـم الطّـرق حتى في البحر، وأزيل الطّينُ من البحر فمرّوا. أمّا عندما شرعوا في المخالفة، فقد ظلّوا سنينَ كثيرة هائمينَ على وجوههم في الصّحارى. مُرْشِـدُ الوقـت يكـون ملتزمًـا بإصلاح أولئك الذين يدرك أنهم مرتبطون به ومطيعون له إطاعـة تامّـة. فمثـلاً، عندما تكون جماعةٌ من الجند مطيعةً تمامًا في خدمة الأمـير، يسـخّر الأمـير أيضًـا عقله في شؤونهم ويكـون ملتزمًـا بما فيه صلاحهـم. أمّـا عندمـا يكونـون غـير مطيعين فكيف يسخّر عقله في رعاية أحوالهم؟

العقلُ في جسم الإنسان مِثْلُ الآمرِ. فمادامت رعايـا الجسـد مطيعـةً لـه، فـإنّ الأمور كلّها تكون في حال الصلاح. أمّـا عندمـا لا تكـون مطيعـةً فـإنّ الأمـور كلّها تؤول إلى الفسـاد. ألا ترى عندما يكون الإنسـانُ ثَمِلاً يتنـاول الخمـرة كـم يسبب ذلك من الفساد في اليدين والقدمين واللّسان ورعايا وجوده جميعًا؟ - ثمّ في اليوم الثاني بعـد أن يصحـو يقـول: آه، مـاذا فعلـتُ؟ - ولِـمَ ضربـتُ؟ ولِـمَ شتمتُ؟.

وهكذا فإنّ الأمور تجري وفق مـا يُرام فقـط عندمـا يكـون مرشـدٌ في تلـك القرية، ويكون أهلُ القرية مطيعين له. ومن ثمّ فإنّ العقل يفكّر في إصـلاح هـذه الرّعايا عندما تكون طَوْع أمره. فإذا فكّر مثلاً في أن يذهب، فإنه لا يذهـب إلا عندما تكون القدمان مؤتمرتين بأمره، وإلا فإنّه لا يفكّر بهذه الفكرة.

والآن فإنّه كما أنّ العقل وسطَ الجسد هـو الأمير، تكون هـذه الوجـودات الأخرى في مجموعها، أي الخَلْق بما لهم من عقـول ومعـارف وتـأمّلات وعلوم، نسـبةً إلى ذلـك الوليّ جَسَـداً صِرْفـاً، ويكـون الوليُّ هـو العَقْـلَ وسْـط هـذه
[٥٤] الوجودات. وهكذا فإنـه عندمـا يكـون الخَلْـقُ اللـذين هـمُ الجسـدُ غـيرَ مطيعـين للأولياء الذين هم العقل، فإنّ أحوالهم كلّها تمضي في اضطراب ونـدَم. وعندمـا تغدو مطيعةً عليها أن تكون مطيعةً لكلّ ما يفعله الوليُّ، وألا تعـود إلى عقولهـا. لأنها ربّما لا تفهم أفعاله بعقولها هي، ينبغي أن تكون مطيعةً لـه. وهـذا مِثْـلُ أنْ يُسْلَم طفلٌ إلى خيّاط ليعلّمه الصّنعة، فإنّه ينبغي أن يكـون مطيعًـا للأسـتاذ؛ إذا أعطاه رقعةً ليخيطها فعليه أن يخيـط تلـك الرّقعـة، وإذا أعطـاه حاشـية فعليـه أن يخيط تلك الحاشية. إذا أراد أن يتعلّم حِرْفته فعليه أن يتخلّى عـن مبادراتـه تمامًـا وأن يغدو محكومًا لأمر أستاذه.

نرجو الحقّ تعالى أن يهيّئ لنا تلك الحال، التي هي عنايته، التي هي فوق مئة ألف جُهْدٍ وسَعْي.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٩٧/٣].

هذا الكلام وذلك الكلام شيء واحد: "جَذْبَةٌ مِنْ جذباتِ الله تعالى خيرٌ من عبادة الثقلين". يعني عندما تتدخّل عنايته تفعل فِعْلَ مئة جهد وأكثر مـن ذلـك. الجُهد جميل وجيّد ومفيد، ولكن ماذا يكون أمام عنايته تعالى؟

سأل بروانه: هل تعطي عنايةُ الله الجُهْدَ؟

أجاب مولانا: ولِمَ لا تعطي؟ عندما تأتي العناية يأتي الجهدُ أيضًا. أيّ جُهْـد قدّم عيسى عليه السلام إذ قال وهو في المهد ﴿إِنِّـي عَبْـدُ اللّـهِ آتـانِيَ الْكِتـابَ﴾ [مريم: ١٩/٣٠] وقد وصفه يحيى وهو في بطن أمّه. تهيّأ الكلامُ لمحمد رسول اللـه دون جهد:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الزمر: ٣٩/٢٢].

أولاً يأتي الفضلُ. عندما تدخل فيه اليقظة من الضلال يكون ذلك فضلاً من الحق وعطاء محضًا. وإلا لِمَ لا يصيب ذلك أصدقاءه الآخرين الذين كانوا قرناءَ له؟ - بعد ذلك يظهر الفضلُ والجزاءُ مثل شرارة النار. في الأوّل هو عطاء؛ ولكن عندما تضع القطن وتنمّي تلك الشرارة وتجعلها تزيد، بعدئذ يكون فضلاً
[٥٥] وجزاء. الإنسان لأوّل وهلة صغير وضعيف ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨].

ولكن عندما تغذي تلك النار الضعيفة فإنها تغدو عالمًا وتحرق عالمـاً، وتغدو تلك النار الصغيرة كبيرةً وعظيمةً.

﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٤].

قلتُ: إنّ مولانا يحبّكم حبّاً جمّاً.

قال مولانا: لامجيئي ولا كلامي يعدلان محبّتي. أقول ما يعنّ لي. إذا شاء الله، جَعَل هذا الكلامَ القليل نافعًا وأقامه في صدوركم ونفع به نفعًا عظيمًا. وإذا لم يشأ فهَبْ أنّ مئة ألف كلمة قيلت، فإنها لن تجد لها قراراً في أيّ قلب، بل ستمرّ وتُنسى. مثلما وقعت شرارةُ نار على خرقة مشتعلة: إذا أراد الحقّ فإنّ هذه الشرارة نفسها تشتعل وتكبر، وإذا لم يرد فإنّ مئة شرارة تقع على هذه الخِرقة المشتعلة ولا تبقى، ولا يكون لها أيّ أثر.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ﴾ [الفتح: ٤٨/٤].

هذه الكلماتُ جيشُ الحق. بأمْر الحقّ تَفتح القلاعَ وتستولي عليها. إذا أمر آلافاً مؤلفة من الفرسان بأن يذهبوا ويُظهروا وجوههم عند القلعة الفلانية دون أن يستولوا عليها، فإنهم يفعلون ذلك؛ وإذا أمر فارسًا واحدًا بأن يفتح تلك القلعة ويستولي عليها فإنّ هذا الفارس الوحيد نفسَه سيفتح البابَ ويستولي

عليها. فقد يُوفِد بعوضةً إلى النمرود فتهلكه، مثلما يُقال: "استوى عند العارف الدّانق والدّينارُ والأسَدُ والهرّة". لأنه إذا بارك الحقّ تعالى فإنّ الدّانق الواحد يفعل فِعْلَ ألف دينار وأكثر، وإذا أمسك البركة عن ألف دينار فلن تفعل فعل دانق واحد. وهكذا أيضًا إذا كلّف القطّة فإنها ستُهلِك الأسدَ، مثلما أهلكت البعوضةُ النمرود؛ وإذا كلّف الأسدَ فسترتعد منه الأسودُ أو تغدو حميراً له. مثلما أنّ بعض الدّراويش يركبون الأسودَ، ومثلما أنّ النار صارت على إبراهيم عليه السلام بردًا وسلامًا وخضرةً وورودًا ورياضًا؛ لأنّ أمر الحقّ لم يأتِ بأن تحرقه. وفي الجملة، إنه إذا عرف الرّحالُ أنّ الأشياء كلّها من الحق غدت كلّها [٥٦]
في نظرهم شيئًا واحدًا. أرجو من الحقّ أن تسمعوا هذه الكلمات أيضًا بآذان قلوبكم؛ لأنّ ذلك مفيد.

لو جاء ألف بصٍّ من الخارج، لما استطاعوا فتح الباب إذا لم يكن لهم لِصٌّ صديقٌ في الدّاخل يفتح من الدّاخل. قُلْ ألف كلمة من الخارج، فلن تفيد شيئًا إذا لم يكن لها تصديق من الدّاخل؛ مثلما أنّ الشجرة غير الطريّة الجذور لا يفيدها أن ينصبّ عليها آلاف السّيول. ينبغي أولاً أن يكون في جذرها طراوة وخضرة حتى يغدو الماء مددًا لها.

حتّى لو رأى الإنسانُ معهُ ألف نورٍ،

لم يكن النورُ ليقع إلاّ على أصله [نور العين]

لو اشتعل العالَمُ كلّه بالنور لم يَرَ أحد ذلك النورَ إذا لم يكن في عينه نورٌ. وأصْلُ ذلك القابليّةُ التي تكون داخل النفس.

والنفسُ شيءٌ والرّوح شيءٌ آخر؛ ألاترى أين تمضي النفسُ في منامها؟ – ويبقى الرّوح في الجسد،النفسُ تطوف وتتحوّل تغدو شيئًا آخر. وهكذا فإنّ ما قاله عليّ: "مَنْ عرف نفسَه فقد عرف ربّه"، تحدّث فيه عن هذه النفس.

قال مولانا: إذا قلنا: إنه كان يتحدّث عن هذه النفس، فإنّ ذلك ليس بالأمر اليسير، وإذا ما فسّرناها بأنها تلك النفس فإنّ المستمع سيفهمها بوصفها تشير إلى هذه النفس لأنه لا يعرف تلك النفس. مثلاً أمسكتَ بيدك مرآة صغيرة، إذا ظهر الشيءُ في المرآة حَسَناً أو كبيرًا أو صغيرًا فهو ذلك الشيءُ. الكلماتُ المجرّدة لا يمكن أن تضمن الفهم؛ الكلمات توحي فقط بالدافع الداخلي للمستمع.

خارجَ هذا العالم الذي نتحدّث عنه ثمّة عالم آخر ينبغي أن نطلبه. هذه الدّنيا وطيّباتُها نصيبٌ لحيوانية آدم؛ هذه جميعًا تغذّي حيوانيته، وأمّا الأصلُ، الذي هو الإنسان، ففي التناقص والتضاؤل.

ومهما يكن، فإنهم يقولون: "الآدميُّ حيوانٌ ناطقٌ". وهكذا يتشكّل الإنسانُ من شيئين. ما يغذّي حيوانيّته في هذا العالم المادّيّ هو هذه الشهوات والآمال.
[٥٧] أمّا ما هو خلاصتُه وجوهره الحقيقيّ فغذاؤه العِلْمُ والحكمة ورؤيةُ الحقّ. والحيوانيّةُ في الإنسان تفرّ من الحقّ، أما إنسانيتُه فتفرّ من الدنيا.

﴿فَمِنكُمْ كافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٦٤/٢].

شخصان في هذا الوجود يتحاربان. من سينجح؟ - الذي يجعله الحظُّ حبيبَه.

لاشكّ في أنّ هذا العالم هو عالم الشتاء. لِمَ يسمّون الجمادات جماداً؟ - لأنّها جميعًا متجمّدة.

هذه الحجارةُ والجبال والرّداء الذي يغطي الوجودَ متجمّدة جميعاً. إذا لم يكن هذا العالَمُ عالم الشتاء، فَلِمَ يكون متجمّداً؟ إنّ معنى هذا العالم بسيط؛ وبرغم أنه غير مرئي في ذاته يمكن بتأثيراته معرفةُ أنّ ثمة ريحاً وبرداً قارساً.

هذا العالم مِثْلُ فصل الشتاء، إذ تكون الأشياءُ كلُّها متجمّدة. أيّ طِراز من الشتاء هو؟ إنّه شتاء عقليّ لا حسيّ. وعندما يأتي ذلك الهواءُ الإلهيّ تبدأ

الجبالُ بالذوبان، يغدو العالَمُ ماءً؛ مثلما أنّه عندما تأتي حرارةُ تموز تأخذ كلّ الأشياء المتجمّدة في الذوبان. يومَ القيامة عندما يأتي ذلك الهواءُ، كلُّ الأشياء تذوب.

الحقُّ تعالى يجعل هذه الكلمات جندنا حولكم، لتكون سدّاً لكم أمام أعدائكم، لتكون سببًا لقهر أعدائكم. لأنّ ثمّة أعداءً، أعداءً في الدّاخل وأعداءً في الخارج. وبرغم ذلك ليسوا بشيء: أيّ شيء يكونون؟ - ألا ترى كيف يكون آلاف الكفّار أسرى لكافر واحد هو مَلِكُهم، وذلك الكافرُ أسيرٌ لأفكاره؟ - ومن هنا نتحقّق من أن الأفكار لها تأثيرها، لأنّه بتأثير فكرة واحدة وملطّعة يكون آلافُ الخلق والعوالم أسارى. وهناك حيث لا نهاية للفِكَر، تأمّل أيّ عظمة والتي يكون لها، وكيف تقهر الأعداء، وما العوالمُ التي تسخّرها! عندما أرى بجلاء أنّ مئة ألف صورة مما لاحدّ له، وجيشًا لا نهاية له في صحراء داخل صحراء، أسيرةٌ كلّها لشخص واحد، وذلك الشخص أسيرٌ لفكرة حقيرة! وهؤلاء الذين هم جميعًا أُسارى فِكرة واحدة - أين يقفون بالنسبة إلى فِكَرٍ عظيمة ولا نهاية لها وخطيرة ومقدّسة وعُلْويّة؟

ومن هنا نستيقن أن الفِكَر لها تأثيرها. والصُّور كلّها تابعةٌ وآلةٌ؛ ومن دون الفكرة تكون معطّلةً وجمادًا. وهكذا فإنّ من يدرك الصّورة وينشغل بها هو أيضًا (جماد)؛ وليس له طريق إلى المعنى. إنّه طفلٌ وغيرُ بالغٍ، حتى لو ظهر في صورة شيخ ذي مئة سنة.

(٥٨) "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر": يعني، كنّا في مجاهدة الصّوَر، وفي مراجعة الأعداء "الصّوريّين"؛ والآن نواجه جيوش الفِكَر، لتهزم الفِكَرُ الجيّدةُ الفِكَرَ السيّئة، وتخرجها من مملكة الجسد. هذا إذن على الحقيقة الجهادُ الأكبر والمعركة العظيمة.

وهكذا فإنّ الفِكرَ لها تأثيرهـا، لأنها تعمل دون توسّط الجسَد، مثلما أنّ العقل الفعّال يدير الفَلَك دون آلة. ولذلك يقول الفيلسوف: إنّ الفِكرَ لا تحتاج إلى آلة.

أنتَ جوهرٌ، والعالَمانِ كلاهما عَرَضٌ لك،

والجوهرُ الذي يُطلَبُ مِنَ العَرَض ليس بذي قيمة.

ابكِ على مَنْ يبحث عن العِلْم في القَلْب؛

واضحكْ على مَنْ يبحث عن العقل في النفس.

ولأنّه عَرَضٌ، لا ينبغي للإنسان أن يقف عنده. لأنّ هذا الجوهر مِثْلُ نافحة المِسْك، وهذا العالَمُ المادّي وطيّباته مِثْلُ رائحة المسك. رائحةُ المِسْك هذه لا تبقى لأنّها عَرَض. كلُّ من طلب في هذه الرّائحة المِسْكَ، لا الرائحة، ولم يقنع بالرائحة، فهو جيّد؛ أمّا من وقف عند رائحة المِسْك واكتفى بها، فهو سيّئ. لأنه التمس شيئاً لا يبقى في يده. ذلك لأنّ الرائحة مجرّد صفةٍ للمسك. مادام المِسْك ظاهرًا في هذا العالم، فإنّ الرّائحة تصل إلى الأنوف. وعندما يدخل في الحجاب ويعود إلى العالَم الآخر، فإنّ أولئك الذين كانوا يحيون برائحته يموتون لأنّ الرائحة كانت ملازمةً للمِسْك، وتنتقل إلى المكان الذي يتجلّى فيه.

وهكذا فإنّ السّعيد هو الذي يصل إلى المِسْك من خلال الرائحة ويغدو عَيْنَ المِسْك. وبعد ذلك لا يبقى له فَناء ويبقى في عين ذات المِسْك ويكون له حكْمُ المِسْك. وبعد ذلك يُوصِل رائحتَه إلى العالَم، والعالم يحيا به. لا يكون له مما كان عليه سوى الاسم: مثلما يغدو الحِصانُ، أو أيّ حيوان آخر، في حوض المِلْح مِلْحًا ولا يبقى له من الحصان سوى الاسم. يكون بحيرةَ المِلْح نفسه في الفعل والتأثير. وماذا يضيره ذلك الاسم؟ – لن يخرجه من المِلْحيّة. ولو أنّك وضعتَ لمنجم المِلْح هذا اسماً آخر، لما خرج من مِلْحيّته.

وهكذا ينبغي على الإنسان أن يتفادى هذه الطّيبات والألطاف التي هي شُعاع الحقّ وانعكاسه، ولا ينبغي أن يقتنع بهذا القدر، فبرغم أن هذا القدر من لطف الحق وشعاع جماله لكنّه لايدوم. باقٍ نسبةً إلى الحقّ، غيرُ باقٍ نسبة إلى الخلق. هو مِثْلُ شعاع الشمس الذي يضيء في المنازل؛ برغم أنه شعاعٌ للشمس ونورٌ، يظلُّ ملازمًا للشمس. عندما تغرب الشمس لا يبقى الضياء. ولهذا ينبغي علينا أن نغدو الشّمسَ، حتى لا يبقى لدينا الخوفُ من الانفصال. [٥٩]

هناك عطاءٌ، وهناك معرفة. بعضُهم لديه عطاء ومَنْح ولكن ليس لديه معرفة؛ وبعضُهم لديه معرفة، ولكن ليس لديه عطاء. ولكن عندما يتوافر هذان الاثنان عند شخص، فإنّ ذلك الشخص يكون موفّقًا توفيقًا عظيمًا. مثْلُ هذا الشخص لا نظير له؛ نظيره، على سبيل المثال، شخصٌ يمضي في طريق، لكنّه لا يعرف ما إذا كان هذا هو الطريق أم أنه يمضي دون طريقٍ. يمضي على غير هدى لعلّ ديكًا يصيح أو علامةَ عمرانٍ تظهر. أين هذا من رجلٍ يعرف الطريقَ ويتقدّم فيه ولا يحتاج إلى إشارة أو مَعْلم؟ – لديه مهمّته الواضحة. وهكذا فإنّ المعرفة تفوق الأشياء كلّها.

الفصل الثالث عشر

اجعلوا أنفسكم بعيدةً عن مُرادها

قال النبي عليه السلام: "اللّيلُ طويلٌ فلا تقصّره بمنامك. والنّهارُ مضيءٌ فلا تكدّره بآثامك".

اللّيل طويلٌ من أجل بثّ الأسرار وطلب الحاجات دون تشويش الخَلْق، وإزعاج الأحبّة والأعداء. تحصل عندئذٍ الخلوة والسَّلْوة؛ إذ يُسْدِل الحقُّ تعالى السّتار، حتى تكون الأعمالُ مصونةً ومحروسةً من الرّياء، وخالصةً لله تعالى. وفي اللّيل المظلم يظهر المُرائي من المخلص؛ المُرائي يُفتضح. في الليل تُستر الأشياء كلّها باللّيل، وبالنهار تفتضح؛ ولكنّ المرائي يُفتضح بالليل. يقول: "عندما لا يراني أحدٌ، مِنْ أجل مَنْ أفعل؟" - يجيبونه: "إنّ واحدًا يرى، ولكنّك لستَ واحدًا حتى ترى ذلك الواحد. إنما يرى ذلك الشخصُ الذي يكون كلُّ الأشخاص في قبضة قدرته. وفي وقت العَجْز يدعوه الجميع؛ في وقت ألَمِ الأسنان وألم الأُذُن وألم العين، وعند الاتهام والخوف وغياب الأمن يدعوه الجميع. في السّرّ يدعوه الجميع، مستيقنين أنه سيسمع وسيقضي حاجتهم. وفي الخفاء، في الخفاء، يقدّمون الصّدقات من أجل دفع البلاء والشفاء من المرض مستيقنين أنّه سيقبل ذلك العطاءَ وتلك الصّدقة. وعندما يُعيد إليهم الصّحة وراحة البال ينصرف عنهم ذلك اليقين ثانيةً ويرجع إليهم خيال القلق".

يقولون: "يا ربّ، في أيّ حال كنّا عندما بكلّ إخلاص دعوناك في تلك الزاوية من السجن، مردّدين ألفَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١/١١٢] دون مَللٍ أو كَللٍ، فقضيتَ حاجاتنا. والآن ونحن خارجَ السّجن مانزال محتاجين، كما كنّا داخلَ السّجن، إلى أن تُخرجنا مِنْ سجن العالم الظُّلماني هذا إلى عالم الأنبياء النّوراني. لِمَ لا يأتينا الإخلاصُ نفسُه دون السجن ودون الألم؟ - ألفُ خيالٍ ينزل ممّا يقدّم فائدة عجيبة ومما لا يقدّم شيئًا من هذا، وتأثير هذه الأخيلة يُنتج آلافًا من ضروب الكسل والملالة. فأين ذلك اليقينُ الذي يحرقُ الخيالَ؟".

يجيبُ الحقّ تعالى: كما قلتُ، إنّ نفسَكم الحيوانية عدوّ لكم ولي.

[٦١] ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١/٦٠].

جاهدوا دائمًا هذا العدوّ في السّجن؛ لأنه عندما يكون في السّجن وفي البلاء والألم، يظهر إخلاصكم ويقوى، لقد جرّبتم وتأكّد لكم آلافَ المرّات أنه من ألم الأسنان ووجع الرأس والخوف يحصل لكم الإخلاص. فَلِمَ بعد هذا تقيّدون براحة الجسد؟ - لِمَ أنتم مشغولون دائمًا بالسّهر عليه؟ - لا تنسوا رأسَ الخيط: دائمًا اجعلوا أنفسكم بعيدةً عن مُرادها لكي تصلوا إلى المراد الأبديّ وتتخلّصوا من سجن الظّلمة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٧٩/٤٠].

الفصلُ الرّابع عشر

من الله وإلى الله

[٦٢] قال الشيخُ إبراهيم*: إذا ضرب سيفُ الدّين فرّوخ شخصًا شغل نفسَه بشخصٍ آخر في الحكاية لكي يضربه، ولا تجدي شفاعةُ شخصٍ بهذه الطريقة والأسلوب.

قال مولانا: كلُّ ما تراه في هذا العالَم يطابق تماماً ما في ذلك العالم؛ بل إنّ هذه الأشياء جميعًا نماذجُ لذلك العالَم. وكلّ ما يوجد في هذا العالم جيء به من ذلك العالَم.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٥/٢١].

يحمل الأقرعُ البعلبكي فوق رأسه صِواني وأدويةً مختلفة، قَبْضة من كلّ مخزن – قبضة فلفل، قبضة مصطكي. المخازن لا نهاية لها، ولكن لا مكان في صينيّته لأكثر من ذلك. والإنسانُ مِثْلُ الأقرع البعلبكيّ، أو دكّان العطّار. فالإنسان مملوءٌ بقبصاتٍ وأجزاءٍ من خزائن صفات الحقّ موضوعةٍ كلّها في حِقاق وصوانيّ، حتى يرتبط في هذا العالَم بتجارةٍ ملائمةٍ له – من السّمع جزءٌ، ومن النُّطق جزءٌ، ومن العقل جزء، ومن الكرَم جزء، ومن العِلْم جزء. وهكذا فإنّ هناك طوّافين للحقّ؛ يقومون بالطّواف والتجوال، ويملؤون الصّواني نهارًا وليلاً.

---

* هو من خاصّة مريدي شمس الدّين التبريزي؛ شيخ مولانا جلال الدّين [المترجم].

وانت تفرّغ أو تضيع لكي تكسب بملك؛ في النهار تفرّغ، وفي اللّيل يملؤون ثانيةً ويعطون القوت.

أنت، مثلاً، ترى ضياء العين. في ذلك العالم أبصارٌ وعيونٌ وأنظار مختلفة. نموذج من ذلك أرسل إليك، لكي تتفرّج بذلك على العالم. ليس الإبصار مقصورًا على ذلك القدر فقط، لكنّ الإنسان لا يتحمّل أكثر من هذا. "هذه الصّفاتُ جميعًا لدينا دون حدود؛ ونحن نرسلها إليك بقدر معلوم".

هكذا تأمّلْ كيف أنّ آلافَ الخَلْق قرْناً بعد قرن جاؤوا وملؤوا من هذا البحر، ثم غدوا فارغين مرة أخرى. انظر أيّ مخزن ذلك المخزن. وكلٌّ من كان له وقوفٌ أكثر عند ذلك البحر كان قلبُه أبردَ إزاء الصينيّة. وهكذا تصوّرْ عندئذٍ أنّ العالَم يصدر عن دار الضّرْب تلك، ويعود إلى دار الضّرب مرةً أخرى.

﴿إنّا لِلّهِ وَإنّا إلَيْهِ راجِعُون﴾ [البقرة: ٢/١٥٦].

"إنّا" يعني: جميع أجزائنا جاءت من هناك وهي نماذج من هناك، وتعود ثانيةً
[٦٣] إلى هناك، من صغير وكبير ومن كلّ الحيوانات. ولكنها في هذه الصينيّة تغدو ظاهرةً على نحو سريع؛ ودون الصّينية لا يمكن أن تظهر. لأنّ ذلك العالَم لطيفٌ ولا يأتي في النظر؛ ورغم ذلك ما أروعَه عندما يأتي! ألا ترى كيف يظهر نسيمُ الرّبيع في الأشجار والأعشاب ورياض الأزهار والرّياحين؟ - بوساطتها تتأمّلُ أنت جمال الرّبيع. ولكن عندما تنظر في نسيم الرّبيع نفسه لا ترى شيئًا من هذه الأشياء. ليس بسبب أنّ تلك المشاهِد والرّياض ليست في النسيم؛ بعد كلّ شيء، أليست هذه من شعاعه؟ - بل إنّ في نسيم الرّبيع أمواجًا من رياض الزهر والرّياحين؛ لكنّ تلك الأمواج لطيفةٌ ولا يمكن رؤيتها بالنظر؛ لا تظهر إلاّ بوسيطٍ يخرجها من لطافتها. ومِثْلُ ذلك في الإنسان أيضاً، إذ تكون هذه

الأوصافُ خفيّةٌ، ولا تظهر إلاّ بوسيط داخليّ أو خارجيّ - في إنسانٍ تظهر بالكلام، وفي إنسانٍ آخر بالإيذاء، وفي ثالث بالحَرْب والصّلح. ليس في وسعك أن ترى صفات الإنسان: تأمّل في نفسك، فلن تجد شيئاً. وهكذا افترضْ أنك خِلْوٌ من هذه الصفات. ولا يعني ذلك أنّك تغيّرتَ عن الحال التي كنتَ عليها، بل لأنها مختفيةٌ فيك، مثل الماء في البحر. فالأمواهُ لا تخرج من البحر إلاّ بوساطة السّحاب؛ ولا تظهر إلاّ في الموج. الموج جيّشانٌ يظهر من داخلك دون وسيط خارجيّ. ولكن مادام البحر ساكناً، فلن ترى شيئاً. جسدُك على شاطئ البحر، ونفسُك من البحر. ألا ترى كيف أنّ كثيرًا من الأسماك والثعابين والطيور والمخلوقات المختلفة تظهر وتعرض أنفسها، ثم تعود إلى البحر؟ صفاتك، كالغضب والحسد والشهوة وغيرها، تظهر من هذا البحر.

وهكذا يمكنك أن تقول: إنّ صفاتكم لطيفةٌ يا عشّاق الحقّ. ولا يمكنكم أن تروها إلاّ بوساطة اللّسان؛ عندما تغدو عاريةً؛ بسبب لُطفِها لا تُرى.

الفَصلُ الخامس عشر

عرائسُ الأسرار

[٦٤] في الإنسان عِشقٌ وألَمٌ وتلهّفٌ وإلحاحٌ، على نحو أنه لو صار مئةُ ألفِ عالَمٍ مُلْكاً له لما استراح ولما هَدَأ. هؤلاء الخَلْق يعملون بدأَبٍ في كلّ حرفةٍ وصَنْعةٍ ومنصب؛ يدرسون النجوم والطبَّ وغير ذلك، ولا يهدؤون البتّة، لأنهم لم يظفروا بمقصودهم. يسمّي الناس المعشوقَ "راحة القلب"، لأنّ القلبَ يجد الرّاحة في المعشوق؛ فكيف يمكن بعدئذٍ أن يجد الرّاحة والقرار لدى غيره؟

كلّ هذه الطّيبات والمقصودات مِثْلُ السّلّم. ولأنّ درجات السّلّم ليست مكاناً للإقامة والاستقرار، بل للمرور فقط، فيا لَسعادةِ من يستيقظ وينتبه مبكّراً، حتى يقصُرَ عليه الطريقُ الطويلُ، ولا يضيع عمُرُه في درجات السّلّم هذه.

سأل أحدهم: يأخذ المغول الأموال، وبين الفينة والأخرى يعطوننا الأموال أيضًا. وهذا وضعٌ عجيب. ما حكمك على ذلك؟

أجاب مولانا: كلُّ ما يأخذه المغولُ قد دخل في قبضة الحقّ وخزائنه. مثلما تملأ كوزًا أو جرّة من البحر وتذهب به بعيدًا، فإنّ ذلك يغدو مُلْكاً لك مادام في الكوز أو الجرّة، وليس لأحدٍ أن يتصرّف فيه. وكلُّ من يأخذ من الجرّة من دون

إذنك بُعدُ غاصبًا. ولكن عندما يُسكب في البحر مرّة أخرى يغدو حلالاً للجميع، ويخرج من مُلْكك. وهكذا فإنّ مالَنا حرامٌ عليهم، ومالُهم حلالٌ لنا.

"لا رَهْبانيّةَ في الإسلام: الجماعة رحمة". عمل المصطفى صلواتُ الله عليه من أجل الجماعة؛ لأنّ لاجتماع الأرواح آثاراً عظيمة وخطيرة، أمّا في الوحدة والانفراد فلا يحصل شيء من ذلك. وهذا هو السرّ في بناء المساجد؛ ليجتمع فيها أهلُ المحلّة وتتضاعف الرّحمة والفائدة. وأبعد ما بين المنازل من أجل التفريق وستر العيوب: تلك هي فائدتها. وقد بُنيت المساجدُ الجامعة لكي يجتمع فيها أهل المدينة جميعًا. وأُسّست الكعبة لكي يلتقي عندها أغلبُ الخَلْق من المدن والأقاليم.

قال أحدُهم: عندما جاء المغولُ لأوّل مرّة إلى هذه الولايات كانوا عُراةً ومجرّدين، كان مركوبُهم الثيرانَ وأسلحتهم من الخشب. أمّا في هذا الزمان فهم محتشمون وشَبِعون، ولديهم خيول عربية مُطهّمة وأسلحة جيّدة.

[٦٥] قال مولانا: في ذلك الوقت عندما كانوا منكسري القلوب وضعفاء ولا قوّة لديهم أعانهم اللهُ وأجاب دعاءهم. أمّا في هذا الزمان الذي غدوا فيه محتشمين وأقوياء فإنّ الحقّ تعالى يهلكهم بأضعف الخَلْق؛ لكي يعرفوا أنهم بعناية الحقّ ومدَد الحقّ استولوا على العالم، وليس بقوتهم وقدرتهم. في موطنهم الأوّل كانوا في صحراء، بعيدين عن الناس، لا حَوْل لهم ولا قوة، مساكين، عراةً، فقراء. من دون قَصْدٍ، جاء بعضٌ منهم تجّارًا إلى ولاية خوارزمشاه وبدؤوا بالشّراء والبيع، وكانوا يشترون الكِرْباس [ثوبٌ من القطن الأبيض] ليغطّوا أجسادهم. وقد منعهم الخوارزمشاه، وأمر بأن يُقتل تجّارُهم، وأن يُؤخذ منهم الخراجُ أيضًا، ولم يأذن للتجّار بأن يذهبوا إلى هناك. مضى التّتار إلى مليكهم متضرّعين، قائلين: "لقد هلكنا". طلب منهم ملكهم أن يمهلوه عشرة أيّام، ودخل في كهف عميق؛ وهناك صام عشرة أيّام. وأظهر الخضوع والخشوع.

فجاء نداءٌ من الحقّ تعالى: "قبلتُ ضراعتَك وتوسّلك. اخرجْ: أينما ذهبتَ فستكون منصوراً". وهكذا كان. عندما خرجوا انتصروا بأمر الحقّ واستولوا على العالم.

قال أحدُهم: التّتار أيضًا يقرّون بالحشر، ويقولون بأنه سيكون هناك حسابٌ.

قال مولانا: يكذبون، هم يريدون أن يجعلوا أنفسَهم مشاركين للمسلمين.

يقولون: "نحن أيضاً نعترف ونقرّ". سُئِل الجمَلُ: "من أين جئتَ؟" – فأجابَ: "من الحمّام". فجاء الرّدّ: "ذلك ظاهرٌ من خُفّك!". إذا كانوا يقرّون بالحشر فما علامةُ ذلك ودليله؟ هذه المعاصي والمظالم والسّيئات التي اقترفوها كالثّلج والجليد تجمّعت طبقاتٍ فوق طبقات. وعندما تأتي شمسُ الإنابة والندم وأخبارُ الآخرة وخشيةُ الله ستذهب ثلوجَ المعاصي تلك كلّها مثلما تذهبُ الشمسُ الثّلج والجليد. وإذا قال بعضُ الثّلج والجليد: "إنّني رأيت الشمسَ، وقد سطعتْ عليّ شمسُ تموز، وظلّ ثلجًا وجليدًا"، فلن يصدّقه عاقلٌ البتّة. فإنّه من
[٦٦] المحال أن تأتي شمسُ تموز وتترك الثلجَ والجليد على ما هما عليه.

وبرغم أنّ الحقّ تعالى وعد بأنه سيكون جزاءٌ حسنٌ وجزاء سيّئ يوم القيامة، يصل نموذجٌ من ذلك في كلّ لحظة وفي كلّ لمحة. فإذا دخل السّرور إلى قلب الإنسان، فإنّ ذلك جزاءٌ له على جَعْله إنسانًا مسرورًا؛ وإذا اغتمّ فإنّ ذلك جزاءٌ له على جَعْله إنساناً مغتمّاً. هذه هدايا من ذلك العالَم وعلاماتٌ ليوم الجزاء؛ لكي يفهم الناسُ بهذا القليل ذلك الكثيرَ، مثلما تُقدَّم حفنةٌ من القمح نموذجًا لما في مخزن القمح.

المصطفى صلواتُ الله عليه برغم مالَه من عظمة وأبّهة آلمته يده في إحدى اللّيالي. فجاءه الوحْيُ أنّ هذا بسبب ألم يد العبّاس الذي كان قد أسَرَه وقيّد

يده إلى أيدي جَمْع من الأسرى. وبرغم أنّ ذلك التقييد كان بأمر الحقّ فقد جاءه الجزاء. لكي تعلم أنّ هذا القَبْض والكدورة والكآبة التي تصيبك إنما هي من تأثير الإيذاء والمعصية اللّتين اقترفتهما. وبرغم أنّك لا تتذكّر بالتفصيل ما فعلتَه، اعرفْ من الجزاء أنك قد فعلتَ كثيرًا من الأفعال السّيئة. ومن غير المعلوم لديك أكان ذلك السّوءُ نتج عن الغفلة أم عن الجهل، أم عن جليس ليس من أهل الدّين سهّل عليك الذّنوبَ فلم تعتبّها ذنوبًا. تأمّل الجزاءَ، إلى أيّ مدى انبسطتَ وإلى أيّ مدى انقبضت: قَطْعًا القَبْضُ جزاءُ المعصية، والبَسْط جزاءُ الطاعة. وهكذا المصطفى ﷺ عُوتِبَ من أجل أنه أدار خاتمًا حول إصبعه: "ما خلقناك من أجل التعطّل واللّعب".

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥].

قِسْ على هذا وتبيّنْ منه ما إذا كان يومُك قد مضى في المعصية أو الطّاعة.

شغل الحقّ موسى عليه السّلام بالناس، وبرغم أنه كان مستحيًا لأمر الحقّ ومنشغلاً تمامًا بالحقّ، شغل الحقُّ جانباً منه بشؤون الناس من أجل المصلحة العامة.

وشغل الخضرَ به تماماً. وشغل المصطفى ﷺ في البدء به تمامًا، وبعدئذٍ أمره: "ادعُ الناسَ، وانصحْهم، وأصلحهم". حزن المصطفى صلواتُ الله عليه وتألّم

[٦٧] وقال: "آه، يارَبّ، أيّ ذنبٍ اقترفتُ؟ - لِمَ تطردني من الحضرة؟ - لا أريدُ الناس". قال له الحقّ: "يامحمد، لاتأسَ، لن أدعَك مشغولاً بالخَلْق. حتى في صميم هذا الانشغال أنتَ معي.

عندما تُشغَل بالناس، لن تؤخذ شَعْرةٌ واحدةٌ من رأس هذه الساعة التي تكون فيها معي، لن تؤخذ شعرةٌ واحدةٌ منك. في كلّ عمل تزاوله تكون في عَيْن وَصْلي".

سأل أحدُهم: الأحكامُ الأزليّة وتلك التي قدّرها الحقّ تعالى، هل تتغيّر؟

أجاب مولانا: ما قضاه الحقّ تعالى في الأزَل، من أنّ الإحسان سيجازى بالإحسان والسّوء بالسّوء، لا يتغيّر البتّة؛ لأنّ الحقّ تعالى حكيم: كيف يمكن أن يقول: "اعملْ شرًّا، لكي تحصل على الخير؟". هل حدث أن زرع إنسانٌ قمحًا ثم حصد شعيرًا؟ - أو زرع شعيرًا ثم حصد قمحًا؟ هذا غير ممكن. الأولياءُ والأنبياء جميعًا قالوا: إنّ جزاء الإحسان هو الإحسان، وجزاء السّوء هو السّوء.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨].

إذا قصدتَ بالحُكْم الأزليّ هذا الذي قلناه وشرحناه، فإنه لن يتغيّر البتّة: معاذ الله! أمّا إذا قصدتَ أنّ جزاء الخير والشرّ يزداد ويتغيّر، يعني: كلّما أكثرتَ من الخير كثر ما تتلقاه من الخير، وكلّما ظلمتَ تضاعف الشرُّ الذي ينتظرك، فهذا يتغير يقيناً؛ امّا أصلُ الحُكم فلا يتغيّر.

سأل أحدُ المماحكين: إنّنا نرى أحياناً أنّ الشقيّ يغدو سعيدًا والسّعيد يتحوّل إلى شقيّ.

أجاب مولانا: نعم، ذلك الشقيُّ عمل خيرًا، أو فكّر في خير، فصار سعيدًا. وذلك السّعيد الذي صار شقيّاً عمل شرّاً أو فكّر في شرّ، فصار شقيّاً. مثل إبليس عندما اعترض في شأن آدم قائلاً:

﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٣٨/٧٦].

بعد أن كان أستاذَ الملائكة لُعِن إلى الأبد وطُرِد من الحضرة. نحن أيضًا نقول الشيءَ نفسَه: جزاءُ الإحسان إحسانٌ، وجزاء الإساءة إساءةٌ.

سأل أحدهم: نذر رجلٌ أن يصوم يومًا. إذا لم يصم أيكون عليه كفّارة أم لا؟

أجاب مولانا: في مذهب الشافعيّ تكون هناك كفّارة حتى في قولٍ واحد، لأنّه يَعدّ النّذْر يمينًا، وكلُّ من يحنث باليمين تترتّب عليه كفّارة. أمّا في مذهب أبي حنيفة فإنّ النذر ليس بمعنى اليمين، ومن ثمّ لا تكون هناك كفّارة.

(٦٨) ويكون النّذرُ على وجهين: مطلق ومقيّد. والمطلق هو أن يقول: "عليّ أن أصوم يوماً". والمقيّد أن يقول: "عليّ كذا إن جاء فلان".

أضاف مولانا: أضاع أحدهم حمارًا. صام ثلاثةَ أيام على نيّة أن يجد الحمار. بعد مضيّ ثلاثة أيّام وجد حماره ميتًا. تألّم، وفي تألّمه رفع رأسه إلى السّماء وقال: إذا أنا لم أفطر ستّة أيّام من رمضان عوضًا عن هذه الأيّام الثلاثة التي صُمْتُها، فلستُ رجلاً، لن تستفيد منّي.

سأل أحدهُم: ما معنى (التحيّات) و(الصّلوات) و(الطيّبات) على النبي؟

أجاب مولانا: يعني أنّ هذه العبادات والخدمة والعبوديّة والمراعاة لا تأتي منّا ولسنا أحرارًا في أدائها. والحقيقة أنّ (الطيبات) و(الصلوات) و(التحيّات) لِلّه؛ ليست لنا، كلّها لِلّه ومُلْكٌ له. مثلما في فصل الرّبيع يزرع النّاسُ، ويخرجون إلى البريّة، ويسافرون، ويمرّون. وهذه جميعًا هبات الرّبيع وعطاياه؛ وإلاّ فسيظلّون كما كانوا، محبوسين في البيوت والكهوف. ومن هنا فإنّ هذه الزراعة وهذا التفرّج والتنعّم من الرّبيع، وهو وليّ نعمتها وصاحب الفضل فيها.

الناسُ ينظرون إلى الأسباب، ويرون الأعمال نتاجًا للأسباب. أمّا لدى الأولياء فقد تبيّن أنّ الأسباب ليست أكثر من حجاب، لكي لا يُرى المسبّب ويُدْرَك. مثلما يتكلّم شخص من وراء ستارة.

يظنّ الناسُ أنّ السّتارة تتكلّم، ولا يعرفون أنّ الستارة لا عمل لها، وأنها حجابٌ فقط. عندما يخرج من الستارة يغدو معلومًا أنّ الستارة كانت ذريعةً. أولياءُ الحقّ يرون وراءَ الأسباب الأفعالَ وهي تُنفَّذ وتظهر إلى الوجود. مثلما

تخرج من الجبل ناقةٌ، وتتحوّل عصا موسى إلى ثعبان مُبين، ومن الحجر الصّلد تنفجر اثنتا عشرة عينًا. ومثلما شقّ المصطفى صلواتُ الله عليه القمرَ دون آلةٍ بإشارة منه؛ ومثلما جاء آدم عليه السلام إلى الوجود دون أمّ وأبٍ؛ وعيسى عليه السلام دون أبٍ. ولإبراهيم عليه السلام، انبثق الوردُ والزهر من النار، وهلمّ جرًّا.

وهكذا عندما رأوا هذه الأشياء عرفوا أنّ الأسباب ذريعةٌ، وأنّ الصانع الفعليّ شيء آخر. الأسباب ليست سوى غطاء، لينشغل به العوامّ.

(٦٩) وعَدَ الحقُّ تعالى زكريّا عليه السلام أنْ سأعطيك ولدًا. صرخ زكريّا: "أنا شيخٌ كبير وامرأتي عجوز. وقد ضعفت آلةُ الشهوة عندي، وقد بلغتْ زوجي حالاً لا تستطيع معها أن تحمل. يارِبِّ، مِنْ زوجٍ كهذه يأتي ولدٌ؟".

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٣/٤٠].

فجاء الجواب: "انتبه يازكريّا، لقد أضعتَ رأسَ الخيط. لقد أظهرتُ لك مئة ألف مرّة أنّ الأفعال لا أسباب لها. وقد نسيتَ ذلك، ولم تعلم أنّ الأسباب ليست سوى ذرائع. إنني قادرٌ في هذه اللحظة أمامَ عينيك على أن أظهر منك مئةَ ألف ولدٍ من دون امرأةٍ ومن دون حَبَل. بل لو أشرتُ فقط لظهر في العالم الناسُ كلّهم تامّين وبالغين وعالِمين. ألستُ أنا الذي أوجدتُك من دون أمّ وأبٍ في عالم الأرواح؟ – ألم تسبقْ لك منّي الألطافُ والعنايات قبل أن تجيء إلى هذا الوجود؟ – لِمَ تنسى هذه الأشياء؟

أحوالُ الأنبياء والأولياء والناس الآخرين، والأخيار والأشرار على قدر مراتبهم وجوهرهم يمكن أن تقدّم في مثال. يجيء بغِلْمانٍ من بلاد الكفر إلى ولاية من ولايات المسلمين ويبيعوا هناك. بعضُهم يجيء به وهو في سنّ الخامسة،

وبعضهم في سنّ العاشرة، وآخرون في سنّ الخامسة عشرة. فأولئك الذين جيء بهم أطفالاً، لأنهم ربّوا سنواتٍ كثيرة بين المسلمين حتى غدوا شيوخًا، نسوا أحوالَ تلك الولاية الأولى نسياناً تامّاً ولم يتذكّروا أيّ أثر عنها. وأولئك الذين جيء بهم وهم أكبر قليلاً من الأوّلين كانوا يتذكّرون قليلاً، وأولئك الذين جيء بهم وهم أكبرُ كثيراً كانوا يتذكّرون أكثر. مثلما كانت الأرواحُ في ذلك العالم في حضرة الحق، حيث يقول الحقّ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧]، وكان غذاؤها وقُوتُها كلامَ الحقّ، من دون حُروف ومن دون أصوات. وعندما يؤتى بأيّ منهم إلى هذه الدنيا طفلاً، ثم يسمع ذلك الكلامَ، فإنّه لا يتذكّر شيئاً من أحواله السابقة، ويجد نفسَه غريباً عن هذا الكلام. ذلك الفريقُ من الناس محجوبٌ عن الحقّ، غارقٌ تمامًا في الكفر والضلالة. بعضُهم
[٧٠] يتذكّر مقدارًا ضئيلاً، والغليان والاشتياق لذلك الطرف يتأجّجان فيهم: وهؤلاء هم المؤمنون. وبعضُهم عندما يسمعون ذلك الكلام تظهر تلك الحالُ السابقة أمام أنظارهم كما كانت في القديم؛ وتُزال الحجُب تمامًا وينضمّون إلى ذلك الوصال: وأولئك هم الأنبياء والأولياء.

والآن سأوصي أحبّائي بجدّ. عندما تُظهرُ عرائسُ المعنى وجوهَها لكم في الباطن، وتكشف الأسرار، حذارِ حذارِ من أن تحدّثوا الأغيارَ، وتشرحوه لهم. ولا تخبروا أحدًا بكلماتي هذه التي تسمعونها.

"لا تعطوا الحكمةَ لغير أهلِها فتظلموها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم"*.

لو أنّ حسناء فاتنةً استسلمت لك وتوارت في بيتك قائلةً: "لا تُظهرني لأيّ إنسان، لأنني مُلْك لك"، أيكون من الجائز لك واللائقِ بك البتّة، أن تعرضها في الأسواق، وتقول لكلّ شخص: تعالَ، انظر هذا الجمال! لن يكون ذلك مقبولاً البتّة عند تلك الفاتنة؛ ستذهب إلى الآخرين، وستغضب عليك. جعل الحقُّ تعالى

* هذا الكلامُ منسوبٌ إلى عيسى، عليه السّلام، ولكن بعبارات مختلفة. [المترجم].

هذه الكلماتِ حرامًا عليهم. مثلما يتضرّع أهلُ جهنّم إلى أهل الجنّة: والآن، أين كرَمُكم ومروءتكم؟ - ماذا يكون لو أنكم أفضتُم علينا من تلك العطايا والهِبات التي أعطاكم الحقُّ تعالى إيّاها على سبيل الصّدقة والإحسان وآثرتمونا بها؟

وللأرضِ مِنْ كأسِ الكِرامِ نصيبُ*

فنحن نحترق ونذوب في هذه النار. ماذا سيحدث لو أنكم أعطيتمونا شيئًا من هذه الفواكه، أو سكبتم على أرواحنا قطرةً أو قطرتين من ماء الجنة الزّلال؟

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٠].

أجاب أهلُ الجنة: "حرّم الله ذلك عليكم. بذرةُ هذه النعمة كانت في دار الدنيا. ولأنكم لم تزرعوا ولم تحرثوا هناك، من الإيمان والصّدق والعمل الصالح، فماذا تحصدون هنا؟ وحتى لو آثرناكم بشيء تكرّمًا منّا لأحرق حلوقكم ولم ينزل إلى بطونكم؛ لأنّ الله حرّم ذلك عليكم. ولو وضعتموه في حقائبكم لتمزّقت وسقط منها.

جاء إلى حضرة المصطفى صلوات الله عليه جماعةٌ من المنافقين والأغيار.
كانوا يشرحون الأسرارَ، ويمدحون المصطفى ﷺ. فقال النبيّ للصحابة بطريق [٧١]
الرّمْز: "خمّروا آنيتَكم". يعني: غطّوا كِيزانكم وكؤوسكم وقدوركم وأباريقكم وجراركم؛ لأنّ هناك كائنات غير نظيفة وسامّة؛ لئلاّ تسقط هذه في كيزانكم،

* من قطعةٍ تمامُها في "إحياء علوم الدّين" للغزاليّ جـ٤، ص٧١، على هذا النحو:

شَرِبْنا شَرابًا طيّبًا عندَ طيّبٍ كذلكَ شرابُ الطيّبينَ يطيبُ
شَرِبْنا وأهرقْنا على الأرضِ فضْلَةً وللأرضِ مِنْ كأسِ الكرامِ نصيبُ

وقائلُها مجهولٌ [المترجم].

ثمّ من دون عِلْم تشربون منها الماء فيؤذيكم. بهذه الصورة دعاهم إلى أن يُخفوا الحِكْمة عن الأغيار وإلى أن يغلقوا أفواههم ويوقفوا ألسنتهم أمام الأغيار، لأنهم فئرانٌ غيرُ لائقين لهذه الحكمة والنّعمة.

قال مولانا: ذلك الأميرُ الذي خرج توّاً من أمامنا، برغم أنه لم يفهم كلامَنا على جهة التفصيل، أدرك على الجُملة أننا كنا ندعوه إلى الحقّ. وأدلّ على الفهم بتلك الضراعة وهزّ الرأس والمحبة والعشق. نعم، هذا الرّيفيّ الذي يدخل إلى المدينة يسمع أذان الصلاة، برغم أنه لا يفهم معنى الأذان على جهة التفصيل، يفهم المقصود والمغزى العامّ.

الفصل السّادس عشر

مَنْ رآهُ فقد رآني

[٧٢] قال مولانا: كلُّ محبوب جميلٌ، لكنّ هذا البيان لا ينعكس؛ إذ لا يلزم أن يكون كلُّ جميل محبوبًا. الجمال جزءُ المحبوبيّة، والمحبوبيّة هي الأصلُ. عندما يكون شيءٌ محبوبًا سيكون جميلاً قَطْعًا؛ جزءُ الشيء لا ينفصل عن كلّه، ويكون ملازمًا للكلّ.

في زمان المجنون كان هناك حِسانٌ أجملُ من ليلى، لكنهنّ لم يكنّ محبوبات للمجنون.

كانوا يقولون للمجنون: هناك حِسان أكثر جمالاً من ليلى، نأتيك بهنّ. فكان يقول: حسنًا، أنا لاأحبّ ليلى من أجل صورتها. وليلى ليست صورةً. ليلى في يدي مِثلُ كأسٍ؛ وأنا أشرب من كأس الشراب تلك. وهكذا فإنني عاشقٌ للشراب الذي أشربه من الكأس. لكم أنظارٌ ترى القَدح فقط، وليس لديكم معرفةٌ عن الشراب. إذا كان لديّ قَدَحٌ ذهبيٌّ مرصّعٌ بالجوهر وفيه خَلٌّ أو شيء آخر غير الشراب، فماذا يفيدني؟ - إنّ قَرْعةً قديمةً مكسّرة فيها شرابٌ خيرٌ عندي من ذلك القدح ومن مئةٍ من مثل هذا القدح.

لابدّ للإنسان من العشق والشّوق حتى يعرف الشرابَ بعيدًا عن القدح. مِثْلُ إنسانٍ جائع لم يَطعَمْ شيئاً على امتداد عشرة أيام، وإنسانٍ متخم يأكل كلّ يوم

خمس مرات، كلاهما ينظر إلى الخبز؛ لكنّ المتخم يرى صورةَ الخبز، أما الجائع فيرى صورة الرّوح. لأنّ هذا الخبز مِثْلُ القدح، واللذة التي يُحدثها كالشراب في القدح. وذلك الشرابُ لا يمكن رؤيتُه إلا بعين الاشتهاء والتشوّق. وهكذا اظفر بالاشتهاءِ والتشوّق، حتى لا تكون بمجرّد راءٍ للصّورة، بل في كلّ كَوْنٍ ومكانٍ يمكن أن ترى المعشوق. صُوَرُ هؤلاء الخلق مِثْلُ الكؤوس، وهذه العلومُ والفنونُ والمعارف نقوشٌ للكؤوس. ألا ترى كيف أنّه عندما تُكْسَر الكأس لا تعود تلك النقوشُ موجودةً؟ فالشراب إذن هو الشيء، الذي هو في كأس القوالب المادّية، ومن يشرب هذا الشرابَ يرى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ [الكهف: ٤٦/١٨].

ينبغي على السّائل أن يتصوّر مقدّمتين: الأولى: عليه أن يكون واثقاً أنه مخطئٌ فيما يقوله، وأنّ شيئًا مختلفًا هو الموجود. والثانية، عليه أن يتصوّر أنّ [٧٣] هناك قولاً وحكمةً أحسن من هذه وفوق هذه، لا يعرف عنهما شيئاً. وهكذا ندرك معنى القول: "السؤالُ نِصْفُ العِلْم".

كلُّ إنسان التفت إلى إنسان آخر، والمطلوب لدى الجميع هو الحقّ. وبهذا الأمل يُمضون أعمارهم. ولكنْ في هذه المعمعة ينبغي أن يوجد شخصٌ مميِّزٌ يعرف في هذا الخضمّ مَنْ هو المصيبُ، وعليه أثرُ ضَرْب صولجان المَلِك، حتى يعلن ويؤمن بأنّ هناك إلهاً واحدًا.

يُقال عن الإنسان "غريقُ الماء" عندما يتصرّف فيه الماءُ ولا يكون له تصرّفٌ في الماء.

فالسّبّاحُ والغريق كلاهما في الماء؛ لكنّ الغريق يحمله الماءُ ويكون محمولاً، أمّا السّبّاح فحاملٌ لقوّته ويتحرّك بإرادته. وهكذا فإنّ كلَّ حركةٍ يقوم بها الغريق وكلّ فعلٍ وقولٍ يصدر عنه يكون من الماء، وليس منه: هو هنا مجرّدُ ذريعة.

مثلما تسمع كلامًا من جدارٍ، فتعرف أنه ليس من الجدار، بل هناك شخص جعل الجدارَ يتكلّم.

الأولياءُ لهم هذه الحال. ماتوا قبل أن يموتوا وأصبحوا حُكْم الباب والجدار. لم يبق فيهم رأسُ شَعْرةٍ من الوجود. هُمْ في يد القدرة مِثْلُ التّرس: حركةُ الترس ليست من التّرس. وهذا هو معنى: "أنا الحقّ".

يقولُ التّرسُ: لستُ موجوداً البتّة، الحركةُ تأتي من يد الحقّ. انظروا إلى هذا التّرس على أنّه الحقّ، ولا تصطدموا مع الحقّ، فإنّ أولئك الذين ضربوا على مثل هذا الترس إنما حاربوا الله على الحقيقة وقد ضربوا أنفسَهم بالحقّ. ومِنْ عهد آدم حتى الآن تسمع أنتَ بالأشياء التي حدثت لمثل أولئك الذين حاربوا الله – فرعون وشدّاد ونمرود وقوم عاد ولوط وثمود إلى ما لا نهاية. وذلك التّرسُ سيظلُّ قائمًا إلى يوم القيامة، عهدًا بعد عهد؛ تارة في صورة الأنبياء وأخرى في صورة الأولياء، وذلك لكي يتميّز الأتقياءُ من الأشقياء، والأعداءُ من الأولياء.

وهكذا فإنّ كلَّ وليٍّ حجّةٌ لله على الخلق؛ الذين تُحدَّد مراتبُهم ومقاماتهم تبعًا لدرجة تعلّقهم به. إذا عادَوه فقد عادَوا الحقّ، وإذا صادقوه فقد صادقوا الحقّ، وهذا معنى: "مَنْ رآه فقد رآني ومَنْ قصده فقد قصدني"*.

عبادُ الله مَحْرَمُ حَرَم الحقّ. ومثلما أنّ الحقّ تعالى قد قطع من خُدّامه كلّ عِرْقٍ للوجود المستقلّ والشهوة، وكلّ جَذْرٍ للخيانة، وطهّرهم، لابدّ أن يصيروا سادةَ العالَم ومَحْرَمَ الأسرار حيث ﴿لا يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/٧٩].

قال مولانا: إذا أدار ذلك الرّجلُ ظهره لتُربة الأولياء والعظماء، فإنّه لا يفعل ذلك عن إنكار وإغفال، بل أدار وجهه إلى أرواحهم. فإنّ هذا الكلام الذي

* يبدو هذا القولُ مستمَدًّا من قول أبي يزيد البسطاميّ في وصف معراجه: "مَنْ رآكَ رآني، ومَنْ قصدكَ قصدني". انظر رسالة النور التي نشرها عبد الرحمن بدوي بعنوان (شطحات الصّوفية) ص١٣٩ [المترجم].

يخرج من فمي هو روحُهم. وليس بضارّ أن يُدار الظهرُ إلى الجسدِ والوجهُ إلى الرّوح.

إنّه طبعٌ من طباعي أنّني لا أريد لأيِّ قلبٍ أن ينقبض منّي. أثناء السّماع يدفع حشدٌ كبيرٌ من النّاس بأنفسهم إليّ، فيمنعهم بعضُ الأحبّة. وذلك لا يسرّني. وقد قلت مئات المرّات: "لا تقولوا شيئًا لأحدٍ من أجلي، فأنا راضٍ بذلك". أنا حنونٌ إلى درجة أنّي، من خشية ألاّ يملّ هؤلاء الأحبّةُ الذين يأتون إليّ، أقول شِعرًا؛ ليُشغلوا به. وإلاّ فمِنْ أين لي الشّعْر؟ - والله إنّني أنفرُ من الشّعر وليس لديّ ما هو أسوأ من الشّعر. غدا مفروضًا عليّ؛ مثلما يغمس رجلٌ يده في أكْلة الكِرْش ويحيطها بالطّعام من أجل إثارة شهيّة الضيف؛ لأنّ شهيّة الضيف هي للكِرْش، صار لازمًا لي.

ومهما يكن، فإنّ الإنسان ينظر ما البضاعة التي يحتاج النّاسُ إليها في مدينة كذا، وما البضاعة التي يشترونها؛ تلك البضاعة يشتريها وتلك يبيعها؛ برغم أنّ الأمتعة تكون أدنى منزلة. درستُ كثيرًا من العلوم ولقيتُ كثيرًا من العنت، لكي أكون قادرًا على تقديم أشياء نفيسة وغريبة ودقيقة للفضلاء والمحقّقين والأذكياء وأرباب التفكير العميق الذين يَفِدون عليّ. الحقُّ تعالى نفسُه أراد هذا. فقد جمع هنا كلّ هذه العلوم، وحشد هنا كلَّ هذه الآلام، لكي أشغلَ بهذا الصّنيع. ماذا في وسعي أن أفعل؟ وفي ولايتي وبين قومي ليس ثمة حِرْفةٌ أدنى منزلةً من الشّعر.

وإذا بقيتُ في ولايتي، فعليّ أن أعيش وفقاً لطباعهم وأن أمارس ما رغبوا فيه، كإلقاء الدّروس وتصنيف الكتب والتذكير والوعظ والزّهد والقيام بكلّ الأعمال الظاهرة.

قال لي الأميرُ بروانه: "أصْلُ الأمرِ هو العمل". فأجبتُ: "أين أهلُ العمل، وطلاّب العمل، حتى أريهم العمل؟ - الآن أنتَ تنشُدُ الكلامَ وقد أمْلْتَ أذنك لكي تسمع شيئًا. وإذا أنا لم أتكلّم فإنّك تملّ. صِر طالب عَمَل؛ لكي أظهر لك العمل! أنا أبحث في العالم كله عن رجل لكي أظهر له العمل. ولأنني لم أظفر [٧٥] بمشترٍ للعمل بل للكلام فقط، شغَلتُ نفسي بالكلام. وماذا تعرف أنتَ عن العمل، عندما لا تكون عاملاً؟ لا يمكن معرفةُ العمل إلاّ بالعمل، ولا يمكن فهمُ العِلمِ إلا بالعِلْم؛ والصّورة بالصورة، والمعنى بالمعنى. وما دام أنّه ليس ثمّة مسافرٌ واحد في هذا الطريق وهو خالٍ، كيف يجرون إذا كنّا نحن في الطريق وفي العمل؟

والخلاصة أنّ هذا العمل ليس صلاةً وصيامًا. فهذه صورةُ العمل؛ العملُ معنى في الباطن. ومهما يكن، فإنه منذ زمان آدم إلى زمان المصطفى ﷺ لم تكن الصلاة والصوم على هذه الصورة التي نعرفها، أمّا العمل فقد كان كذلك. وهكذا فهذه صورةُ العمل؛ العمل معنى داخل الإنسان. مثلما تقول: "الدّواء عَمِلَ عملَه"؛ ولكن هذه ليست صورة العمل، بل هي معناه. ومثلما يقولون: "ذلك الرّجل عاملٌ في مدينة كذا."؛ وهم لا يرون شيئًا من الصّورة، بل يدعونه عاملاً تبعًا للأعمال المتصلة به.

وهكذا فإنّ العمل ليس هو هذا الذي فهمه الناس على الجملة. فهم يعتقدون أنّ العمل هو هذا الظاهر، ولكنْ إذا أدّى المنافق تلك الصورة للعمل فإنه لا يفيده البتّة؛ لأنّ معنى الصّدق والإيمان غير موجود فيه.

أصْلُ الأشياء جميعًا الكلامُ والقول. وأنت لا عِلم لك بالكلام والقول، وتراهما ضئيلي الشأن. الكلام ثمرةُ شجرة العمل؛ لأنّ القول يُولّد من العمل. وقد خلق الحقّ تعالى العالَم بالقول، إذ قال: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

الإيمانُ بالقَلْب، ولكن إذا لم تذكره بالقول فإنّه لا يفيد. والصلاة التي هي فِعْلٌ، إذا لم تقرأ فيها القرآن، لا تكون صحيحة. وعندما تقول: "في هذا الزمان لا اعتبار للقول" تنفي هذا التأكيد أيضاً بوساطة القول. وعندما لا يكون ثمّة اعتبارٌ للقول، كيف نسمع منك أنّ القول لا اعتبار له. والخلاصةُ أنتَ تقولُ هذا نفسه بالقول.

سأل أحدُهم: عندما نعمل خيرًا ونؤدّي عملاً صالحاً، ثم نؤمّل من الله ونتوقّع منه الخيرَ وأن يكون جزاؤنا من جنس عملنا، أيضرّنا ذلك؟

قال مولانا: إي والله، ينبغي أن يكون عند الإنسان أمل. الإيمان نفسه خوفٌ ورجاء.

سألني أحدُهم مرّةً: "الرّجاء نفسه طيّب، فما هذا الخوف؟". أجبتُ: "أرني خوفاً من دون رجاء، أو رجاء من دون خوف. طالما أنّ أحدهما لا ينفصل عن
[٧٦] الآخر، فكيف تسألُ مِثْلَ هذا السؤال؟". مثلاً، زرع أحدهم قمحًا، فلابدّ له أن يرجو أن يحصد قمحًا؛ وهو في الوقت نفسه خائفٌ من أن يحدث مانع وتظهر آفةٌ. وهكذا يغدو معلومًا أن لا رجاء من دون خوف، ولا يمكن تصوّر خوفٍ من دون رجاء أو رجاء من دون خوف. فإذا كان الإنسان مؤمّلاً ومتوقّعًا للجزاء والإحسان، فإنه لا محالة سيكون أكثر نشاطاً وأكثر جِدّاً في ذلك العمل. وذلك التوقّع هو جناحُه، وكلّما قوي جناحُه زاد طيرانُه. وعندما يكون يائسًا يتحوّل إلى كسولٍ، ولن يتأتى منه خيرٌ آخَر وخدمة أخرى. مِثل المريض الذي يتناول الدّواء المرّ ويترك عشرات اللذائذ الحلوة؛ فإذا لم يكن لديه أملٌ بالصحة فكيف يستطيع تحمُّل هذا؟

"الإنسانُ حيوان ناطق". الإنسان مركّبٌ من حيوان ونطق؛ ومثلما أنّ الحيوان دائمٌ فيه ولاينفكّ عنه، النطق أيضًا دائمٌ فيه. وإذا كان لا يتكلم في

الظاهر، فإنّه يتكلّم في الباطن؛ ناطقٌ دائمًا. إنّه مِثْلُ سَيْلٍ امتزج بـه الطّين؛ الماء الصّافي هو نطقُه، أمّا الطّين فهـو حيوانيّتُـه؛ لكـنّ الطّين عـارضٌ فيـه. ألا تـرى كيف أنّ تلك القِطَـعَ من الطّين والقوالـب قـد ذهبـت وتبـدّدت، أمّـا نطقهـم وحكاياتهم وعلومهم السّيئة والحسنة فقد بقيت؟

صاحبُ القلب كُلٌّ، إذا رأيتَه رأيتَ الكـلّ، "الصّيدُ كلّه في جوف الفَرا". أناسُ العالم كلّهم أجزاؤه، وهو الكلّ.

كلُّ الناس، الطيّبين والسّيئين، أجزاءُ الدّرويش

ومَن ليس كذلك، ليس مثلَ هذا الدّرويش*.

والآن عندما تكون قد رأيتَه وهو الكلّ، تكون قَطْعاً قـد رأيـتَ العـالم كلّـه؛ وكلُّ من تراه بعده يكون مجرّد تكرار. وقولهم مضمَّنٌ في أقوال الكـلّ؛ وعندمـا تكون قد سمعتَ قولَهم، يكون كلُّ قولٍ تسمعه بعد ذلك مكرّراً.

فمَـنْ يَـرَهُ في مـنزلٍ فكأنّمـا رأى كـلَّ إنسـانٍ وكـلَّ مكـانِ

ويقول الشاعر:

يا مَنْ أنتَ نسخةُ الكتابِ الإلهيّ،

ويا منْ أنتَ مرآة الجمال الشاهي[1]

ليس خارجًا عنك كلُّ ما هو موجودٌ في العالَم،

ففي نفسِك اطلبْ كلَّ ما تريده، واهتِفْ: "إنّه أنا"!

* هذا البيت من غزليّات مولانا [المترجم].

(١) الشاهي: الملكيّ.

الفصل السّابع عشر

نصفُ الإنسان ملَك ونصفه الآخر حيوان

[٧٧] قال النائب: في السابق كان الكفّار يعبدون الأصنام ويسجدون لها. ونحن في هذا الزمان نفعل الشيءَ نفسَه. فنحن نذهب ونسجد للمغول ونخدمهم، ونعدّهم مسلمين. ولدينا الكثير من الأصنام الأخَر في باطننا أيضًا، من الحِرْص والهوى والحقد والحسد، ونحن نطيعُها كلّها. وهكذا نقوم نحن أيضًا بالعمل نفسه ظاهرًا وباطنًا؛ ثمّ نعدّ أنفسنا مسلمين.

قال مولانا: ولكنْ هنا شيء آخر مختلف، في أنه يدخل في رُوعكم أنّ هذا السّلوك سيئ وغير مُرْضٍ البتّة. فقد رأت أعينُ قلوبكم شيئًا عظيمًا إلى حدّ بعيد يُظْهِر لكم هذا السلوك قميئًا وقبيحًا. فالماءُ المالح يُظهر ملوحتَه لمن شَرِب الماء الحُلْو؛ و"بضدّها تتبيّن الأشياءُ". وهكذا فإنّ الحقّ تعالى قد وضع في أرواحكم نور الإيمان الذي يُظْهِر هذه الأعمال قبيحة.

والخلاصةُ أنه في مقابل الجمال يظهر هذا قبيحًا. ولأنه ليس لدى الآخرين هذا الألمُ، يكونون سعداء تمامًا في حالهم الرّاهنة، ويقولون: "هذا رائعٌ تماماً".

الحقّ تعالى سيعطيك مطلوبك. وأينما بلغت همّتك، فسيوصلك إلى هذا الذي بلغتْهُ همّتك، حيث "الطّير يطير بجناحيه والمؤمنُ يطير بهمّته".

الخلْقُ ثلاثة أصناف: الأوّل الملائكة، الذين هم عقلٌ محضٌ. والطّاعةُ والعبادةُ والذّكْر طبْعٌ لهم وغذاء: يتغذّون بذلك وبه يحيون. مثل السّمك في الماء حياتُه بالماء؛ وفراشه ووسادته الماء. والملَكُ ليس في حقّه تكليف؛ لأنّه مجرّد من الشهوة ومطهّر منها. فأيّة مِنّة هذه إذا لم يطِع شهوة، ولم يعالج أهواء النفس؟ لأنه طاهرٌ من هذه، وليس لديه مجاهدة. وإذا أطاع إرادة الله، فإنّ ذلك لا يُعدّ طاعةً؛ لأنّ ذلك هو طَبْعُه، وليس في وسعه أن يتخلّى عنه.

وثمّة صنفٌ آخر هو البهائم، التي هي شهوة محضة، وليس لديها عقل زاجر. وليس عليها تكليف.

ويبقى أخيرًا الإنسانُ المسكين، الذي هو مركّب من عَقْلٍ وشهوة. نِصْفُه مَلَكٌ، ونصفه الآخر حيوان؛ نصفٌ حيةٌ، ونصف سمكة، (نيمش ماراست، [٧٨] ونيمش ما هي - بالفارسية). سمكتُه تسحبه نحو الماء، وحيّتُه تسحبه نحو التراب. هو دائماً في صراعٍ واحتراب: "مَنْ غلب عقلُه شهوتَه فهو أعلى مِنَ الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عَقْلَه فهو أدنى من البهائم"*.

نجا المَلَكُ بالعِلْم، ونجت البهيمةُ بالجهل،

ويظلّ متنازَعًا بين الاثنين ابنُ آدم

وهكذا فإنّ بعض الآدميّين قد تابعوا العقلَ إلى الحدّ الذي غدوا فيه ملائكةً ونورًا محضًا. وهؤلاء هم الأنبياءُ والأولياء. وقد تحرّروا من الخوف والرّجاء، إذْ ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/٣٨].

* جعله مولانا الرّوميّ حديثاً نبويًّا، ونسبه بعضهم إلى الإمام عليّ، كرّم الله وجهه [المترجم].

وعند بعضهم غلبت الشهوةُ على العقل، حتى أخذوا تمامًا حُكْم الحيوان. وقد بقي بعضُهم في التنازع. وأولئك هم تلك الطائفة التي تشعر في داخلها بالغمّ والألم والأسى والحسرة، ولا ترضى بحياتها. وهؤلاء هم المؤمنون، الذين ينتظرهم الأولياءُ ليُحِلّوهم في منزلتهم، ويجعلوهم مِثْلَهم؛ وينتظرهم الشياطين أيضًا، لينزلوا بهم إلى أسفل سافلين، ونحو أنفسهم.

نحن نريد، والآخرون يريدون،

فمن سيُفْلِح؟ - من يجعله الحظّ حبيباً له!

قوله تعالى:

﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً﴾ [النصر: ١١٠/١-٣].

يفسّر مفسّرو الظاهر هذه السّورة على هذا النحو: كان لدى المصطفى ﷺ همّةٌ عالية، "سأجعل العالم كلّه مُسْلمين وسأضعهم في طريق الله".

عندما رأى وفاته تدنو قال: "آهٍ، ما عشتُ لكي أدعو الخلق إلى الله؟". أجابه الحقّ تعالى: لا تحزن. في تلك الساعة التي تمضي فيها، هذه الولايات والمدن التي ستفتحها بالجيوش والسّيوف ساحوّلها كلّها مطيعةً ومؤمنةً دون جيوش وسيوف. وآيةُ ذلك أنّه في النهاية عندما تُتوفّى سترى الخَلْق يدخلون من كلّ بابٍ جماعاتٍ ويغدون مسلمين. وعندما تأتي هذه العلامةُ، اعلم أنّ وقتَ رحيلك قد حان. وعندئذٍ سبّح واستغفر، لأنك ستأتي إلى هناك.

أمّا أهلُ التحقيق فيقولون: إنّ معنى السّورة هو أنّ الإنسان يظنّ أنه سيدفع
(٧٩) عن نفسه الأوصافَ الذميمة بعمله وجهاده. وعندما يجاهد كثيرًا ويبذل كلّ قواه ويستخدم كلّ وسائله، يصيبه اليأس. عندئذ يقول له الحقّ تعالى: "كنتَ تظنّ أنّ ذلك سيتحقّق بقوّتك وفعلك وعملك. تلك هي السّنّةُ التي وضعتُها،

أي كلُّ ما هو لديك ابذلْه في سبيلي. بعد ذلك سيصل عطائي. على هذا الطريق الذي لانهاية له آمرك بأن تسير بهاتين اليدين والقدمين الضعيفتين اللتين تمتلكهما. معلوم عندي تمامًا أنك لن تقطع الطريق بهاتين القدمين الضعيفتين؛ بل إنك لن تستطيع قَطْعَ منزلة واحدة من هذا الطريق في مئة ألف سنة. ولكن عندما تمضي في هذا الطريق، وتواصل حتى تنهار وتقع ولا تبقى عندك أيّةُ قدرة على السّفر، بعد ذلك تتقدّم بك عنايةُ الحقّ. مِثْل الطفل؛ طالما أنه يرضع يُحْمَل باليدين، أمّا عندما يكبر فيُترك ليمشي بنفسه. الآن، في هذا الوقت الذي لم تعد فيه قواك موجودة – في ذلك الوقت الذي امتلكتَ فيه القوى وبذلتَ فيه المجاهدات، بين الفينة والأخرى، وبين النوم واليقظة، أظهرتُ لك اللطفَ الذي استمددتَ منه القوّة لكي تطلبني وامتلأتَ أملاً؛ وهكذا في هذه الساعة التي لم تبق فيها تلك الآلةُ موجودةً لديك، انظر ألطافي وعطاياي وعناياتي. عندما يأتي الناسُ إليك أفواجًا، على نحوٍ ما كنت ترى ذرّةً منه بعد مئة ألف مجاهدة. والآن:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾

استغفِر من هذه الفِكَر والظنون؛ إذ ظننتَ أنّ ذلك الأمر سيتحقّق بفضل يديك وقدميك، ولم تَرَ أنه منّي. والآن إذ رأيتَ أنّني فاعلُه وأنه منّي، استغفر الله ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

أنا لا أحبّ الأمير من أجل أمور دنيوية؛ من أجل منزلته وعلمه وعمله. أمّا الآخرون فيحبّونه من أجل هذه الأشياء، لايرون وجه الأمير، بل ظهره. والأميرُ مِثْلُ المرآة، وهذه الصّفاتُ مِثْلُ الدّرر الثمينة والذهب الموضوعة على ظهر المرآة. أولئك الذين يعشقون الذهب والدرّ يقع نظرهم على ظهر المرآة؛ أمّا الذين يعشقون المرآة فلا يقع نظرهم على الدرّ والذهب. وجوهُهم دائمًا متوجهة نحو المرآة، وهم يحبّون المرآة من أجل كونها مرآة. لأنهم يرون في المرآة الجمال {٨٠}

الأعدّاء لا يملّون من المرآة. أمّا صاحبُ الوجه القبيح والمعيب فلا يرى في المرآة سوى القبيح؛ يدير المرآةَ سريعًا ويطلب هذه الجواهر. والآن ماذا يضير وجهَ المرآة، إذا نُقِش على ظهرها ألفُ نوع من النقوش ورصِّع بالجواهر؟

وهكذا ركّب الحقُّ تعالى الحيوانيّةَ والإنسانيّة لكي تظهر الاثنتان. "وبضدّها تتبيّن الأشياءُ". تعريف الشيء دون ضدّه أمر غير ممكن. والحقّ تعالى ليس له ضدّ، إذ يقول: "كنتُ كنزًا مخفيّاً فأحببتُ أن أُعرَف*". وهكذا خلق العالمَ، الذي هو من الظلمة، لكي يَظهر نورُه. وهكذا أيضاً أظهر الأنبياء والأولياء، قائلاً لكلّ منهم: "اخرُجْ بصفاتي إلى خَلْقي". وهم مظهرُ نور الحقّ، لكي يظهر الصديق من العدوّ، ويمتاز القريبُ من الغريب. فذلك المعنى، من جهة المعنى، ليس له ضدٌّ، إلاّ بطريق الصّورة: مثلما أنّه في مقابل آدم إبليس، وفي مقابل موسى فرعون، وفي مقابل إبراهيم نمرود، وفي مقابل المصطفى ﷺ أبو جهل، وهكذا إلى ما لانهاية. وهكذا فإنه بالأولياء يظهر ضدٌّ لِلّه، برغم أنّه في المعنى لاضدّ له. من خلال العداوة والمضادّة ظهروا، وبرزت أعمالهم وشُهِرت، إذ يقول الحقّ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٦١/٨].

يقول الشاعر:

ينثر القمرُ النّورَ فينبحُ الكَلْب،

فما جريرةُ القمر، إذا كان طبعُ الكلب كذلك؟

---

* حديثٌ قدسيّ مشهور، وقد استند إليه الصّوفية في أكثر مصنّفاتهم. يقول مؤلّف "اللؤلؤ المرصوع" في شأنه: "حديث كنتُ كنزاً مخفيّاً لا أعرف، فأحببتُ أن أعرف، فخلقتُ خلقاً وتعرّفتُ إليهم فبي عرفوني" قال ابن تيمية: ليس من كلام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولا يُعرف له سندٌ صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزّركشيّ وابن حجر، ولكنّ معناه صحيحٌ ظاهر، وهو بين الصّوفية دائر – اللؤلؤ المرصوع، ص٦١. نقلاً عن حواشي المرحوم بديع الزّمان فروزا نفر وتعليقاته على كتابنا هذا، الأصل الفارسيّ، تحقيق فروزا نفر، ص٢٩٢ [المترجم].

من القمر يملأ النورُ أركان السماء،

فمن ذلك الكلبُ الذي هو بحار الأرض؟

هناك الكثير من الناس الذين يعذّبهم الحقّ تعالى بالنعمة والمال والذهب والسلطان، فتفرّ نفوسهم من ذلك.

رأى فقيرٌ في بلاد العرب أميراً ممتطياً جوادًا، ورأى في جبينه نورَ الأنبياء والأولياء وبهاءهم فقال: "سبحانَ مَنْ يعذّب عبادَه بالنِّعَم".

الفصل الثامن عشر

قطرةٌ من يوم ﴿أَلَسْتُ﴾

[٨١] يقرأ ابن مُقْرِي القرآن قراءةً صحيحة. نعـم، هـو يتلـو صـورةَ القـرآن تـلاوةً صحيحة، ولكن لا عِلْم له بالمعنى. والدليلُ علـى ذلـك أنـه عندمـا يحصـل علـى المعنى يردّه. يقرأ من دون بصر. مِثْلُ شخص لديه قرو السمّور يمسك بـه بيـده، فيجيئه أناسٌ بفروٍ آخر أحسن من ذلك الذي عنده، فيردّه.

وهكذا نستيقن أنه لا يعرف فرو السمّور على جهة الحقيقة. أحد الأشخاص قال له: إنّ هذا فرو السمّور، فأخذه بيده على سبيل التقليد. مثل الأطفال الذين يلعبون بالجوز، عندما تقدّم لهم لُبُّ الجوز أو دهن الجوز يرفضونـه قـائلين: "إنّ الجوز هو ذلك الذي يخشخش. أمّا هـذا فليـس لـه صـوت ولا خشخشـة". إنّ خزائن الله كثيرة، وعلومه كثيرة. فإذا قرأ الإنسان هذا القـرآن بعِلْـمٍ، فَلِـمَ يـردُّ القرآنَ الآخر؟

أكّدتُ لمقرئ القرآن أنّ القرآن يقول:

﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِمـاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٩].

الآن بخمسين درهمًا من الحبر يستطيع الإنسانُ أن يكتب هـذا القرآن كلّه. وهذا رمزٌ لِعلْم الله، العِلْم كلّه لله، ليس هذا فقط. يضع العطّار في الورق قليـلاً من الدّواء.

تقول أنت: "إنّ دكّان العطّار كلّه في هذه الورقة". هذا حُمْقٌ وبلَهٌ. في زمان موسى وعيسى وغيرهما كان هناك قرآن. كان هناك كلامُ الله، لكنه لـم يكن بالعربيّة. وقد أكّدت هذا، لكنّني رأيتُ أنه لم يؤثّر في ذلك المقرئ، فتركتُه.

يُحكى أنّه في زمان الرسول ﷺ كلُّ مَـنْ حفـظ، مـن الصحابـة، سـورةً، أو نصف سورة عن ظهر قلـب، دَعَوْه عظيمًا وأشاروا إليه بالبنان: "إنه يحفظ سورة" - ذلك لأنهم هضموا القرآن. أكْلُ مَنٍّ و مَنَّيْن من الخبز أمرٌ عظيم. لكنّ الناس الذين يضعون الخبز في أفواههم دون مَضْغٍ ثم يلفظونه، في مقدورهم أن يأكلوا آلاف الأطنان بتلك الطريقة.

[٨٢] وفي هذا يقول: "رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه": وهـذا في حقّ الشـخص الذي لا يقف على معنى القرآن.

وبرغم ذلك فمن الخير أن يكون الأمر كذلك. قومٌ أغلق الحقُّ أعينهم بالغفلة حتى يعمروا هذا العالم. ولو لم يكن بعضُهم غافلاً عـن ذلـك العـالم، لما كـان هذا العالَم معموراً البتّة. الغفلةُ هي التـي تدفـع إلى العمـارة والبنـاء. تـأمّلْ حـال الطفل الآن: فمِنَ الغفلة يكبر ويغدو طويلاً، وعندما يبلغ عقلُه درجة الكمال لا يكتسب طولاً آخر إضافيّاً. وهكذا فـإنّ موجـب العمـارة وباعثهـا هـو الغفلـة: وسبب الخراب والهَدْم هو الانتباه والصّحو.

ما أقوله لا يخرج سببُه عن واحدٍ مـن اثنـين: إمّـا أن أقـول حَسَـدًا، وإمّـا أن أقول شفقةً. معاذ الله أن يكون حسداً! فإنّ حسَدَ مـن هـو جديـرٌ بالحسـد أمـرٌ مؤسف، فما بالك بمن لا يستحقّ؟

لا؛ فأنا أقول مستحيًا لأعلى درجات الشفقة والرحمة، قاصدًا إلى أن أسحب صديقي العزيز إلى المعنى.

يُحكى أنّ شخصًا في طريق الحجّ دخل الصحراء، فاستبدّ به عطشٌ عظيم. حتى رأى من بعيد خيمة صغيرة وممزّقة. فمضى إلى هناك، وعندما رأى فتاةً صاح: "إنّني ضيف! مرادي يحقّق!". فنزل وجلس وطلب ماءً. أتوه بماء مذاقُه أحرُّ من النّار وأملح من الملح؛ وقد أحرق كلّ ما مرّ به من شفته إلى حَلْقه. وقد دفعته الشفقةُ الزائدة إلى أن ينشغل بنصيحة تلك المرأة. فقال: "إنّ لكم عليّ حقًّا بسبب هذا القدر من المواساة الذي لقيتُه منك. جاشت نفسي بالشفقة. انتبهوا إلى هذا الذي أقوله لكم. انظروا، بغداد قريبة والكوفة وواسط وغيرها. وإذا كنتم عاجزين فإنكم تقدرون بالقعود هنا وهناك، والتدحرج من مكان إلى آخر، أن توصلوا أنفسكم إلى هناك. فهناك المياه الحلوة الباردة الكثيرة، والأطعمة المختلفة، والحمّامات، وضروب النعيم والطيّبات، وأخذ يعدّد لذائذ تلك المدن.

بعد لحظة جاء ذلك البدويّ الذي كان زوجها. كان قد اصطاد عددًا من
[٨٣] جرذان الصحراء، التي أمر زوجته أن تطبخها. وقد قدّموا شيئاً منها إلى الضيف، الذي أكل منها بضيق شديد. بعد ذلك، في منتصف اللّيل، نام الضيف خارج الخيمة. قالت المرأة لزوجها: "ألم تسمع أبدًا بالأوصاف والحكايات التي ذكرها هذا الضيف؟". وقد أعادت على مسمع زوجها قصّة الضيف كلّها. أجاب البدويّ: "لا تُصغي إلى هذه الأشياء أيتها الزوجة، فالحُسّاد في العالم كثيرون. عندما يرون بعض الناس يعيشون في رخاء وسعادة يحسدونهم ويريدون أن ينفروهم من المكان الذي هم فيه ويحرموهم رغد عيشهم".

وهؤلاء الناس من هذا القبيل. عندما يقدّم لهم أحدٌ النّصح شفقةً ورحمةً يحملون ذلك على الحسد. إلاّ عندما يكون في الإنسان أصلٌ فإنه في النهاية

سيُدير وجهه إلى المعنى. عندما تكون قطرةٌ من "يوم ألستُ" [العهد الأول] قد انصبّت عليه، فإنّ تلك القطرة في النهاية ستحرّره من التشويش والمحن. فتعالَ إذن! إلى متى ستكون بعيدًا عنّا وغريبًا؟ - إلى متى يستبّد بك التشويشُ والسّوداء؟ - وماذا يقول الإنسانُ لقوم لم يسمعوا بجنس ذلك من أحدٍ، ولا من شيخه؟ - يقول الشاعر:

لأنه لم يكن في أسلافه عظمةٌ

ليس في وسعه أن يسمع أسماء العظماء.

وبرغم أنّ التوجّه إلى المعنى لا يبدو جذّابًا كثيرًا في البدء، إلاّ أنّه كلّما تقدّم الإنسانُ بدا أكثرَ طلاوةً؛ خلافاً للصورة، التي تبدو جذّابة في البدء، ولكن كلّما أطلت الجلوسَ معها بردتَ أكثر. ما صورةُ القرآن مقارنةً بمعناه؟ - تأمّل الإنسان: ما صورته مقارنةً بمعناه؟ - لو أنّ معنى صورة الإنسان تلك ذهَبَ لما تُرِكَ لحظةً في منزله.

قال مولانا شمسُ الدّين، قدّس اللهُ سرّه: ذات مرّة: كانت قافلةٌ كبيرة في طريقها إلى مكان ما. لم يجدوا أثراً للعمران، ولم يجدوا ماءً. وعلى حين غِرّة وصلوا إلى بئر، ولكن لم تكن ثمة دلو. وعندئذٍ أحضروا سطلاً وقطعة حبل، وأنزلوا السّطل إلى أسفل البئر. سحبوا الحبْلَ، فانكسر السّطل. أنزلوا سطلاً آخر، فانكسر أيضًا. بعد ذلك ربطوا أناسًا من أهل القافلة بحبلٍ ثم أنزلوهم إلى البئر، ولكنهم لم يخرجوا أيضًا. كان هناك أحدُ العقلاء. قال لهم: "سأنزل أنا". أنزلوه، حتى إذااقترب من قاع البئر ظهر له مخلوق أسود مُرْعب على نحو مفاجئ.

[٨٤] قال العاقل: "لا أريد النجاة، بل عليّ على الأقل أن أحتفظ بعقلي ولا أفقد وعيي لكي أرى ما سيحدث لي".

قال المخلوقُ الأسود: "لا تُطِلْ القصّة. أنت أسيري، ولن تنجو إلاّ إذا أعطيتني الإجابة الصحيحة. لن تنجو بشيء آخر".

قال الرجل: "سَلْ ما بدا لك".

قال الأسود: "أيّ مكان أفضل؟".

قال العاقل: "أنا أسيرٌ ومسكين بين يديه. إذا قلتُ: بغداد، أو غيرها فربما أكون قد نلتُ من بلده وموطنه". بعدئذ قال بصوت مسموع: "خيرُ مكانٍ للعيش هو المكان الذي يكون فيه للمرء مؤنسٌ. ولو كان ذلك في قعر الأرض، لكان خير مكان؛ ولو كان في غار فأر، لكان خير مكان".

قال الأسودُ: أحسنتَ، أحسنتَ. نجوتَ. أنت إنسانٌ في مليون. الآن أطلقتُ سراحك، وحرّرتُ الآخرين ببركتك. ولن أسفك دمًا بعد الآن. وهبتُ لك كلّ رجال العالم محبّةً لك".

بعدئذ أذِن لأهل القافلة بأن يرتووا من الماء.

الغرض من هذه القصّة هو المعنى. ويمكن قولُ المعنى نفسِه في صورة أخرى. لكنّ المقلّدين يتمسّكون بالصّورة نفسها. من الصّعب أن تتحدّث معهم؛ ولو أنك قلتَ هذا الكلامَ نفسَه في مثالٍ آخر لما استمعوا إليه.

الفصل التاسع عشر

الأصلُ هو المقصود

[٨٥] قال مولانا: "قالوا لتاج الدّين قباي: إنّ هؤلاء العلماء يأتون بيننا ويجعلون الناس في طريق الدّين دون اعتقاد". فأجاب: "ليس الأمر أنّهم يأتون بيننا ويجعلوننا دون اعتقاد. بل، معاذ الله أن يكونوا منّا. فمثلاً لو أنك طوّقت كلبًا بطوق ذهبيّ لما كان في مقدورك أن تدعوه كلبَ صيدٍ بسبب ذلك الطّوق. فصفةُ الصّيد شيءٌ محدَّد في الحيوان، سواء أكان مطوّقاً بالذهب أم بالصّوف".

الرّجل لا يكون عالِمًا بسبب الجبّة والعِمامة، ذلك أنّ العالِميّة فضيلةٌ في ذاته، ولا يغيّر من الأمر شيئًا أن يرتدي صاحبُها قَباء أو عباءة.

وهكذا في زمان الرسول ﷺ أراد المنافقون أن يقطعوا طريق الدّين. ومن ثمّ كانوا يرتدون رداء الصلاة، لكي يُضعفوا المقلّدين في طريق الدّين؛ لأنهم لا يستطيعون فِعْلَ ذلك إذا لم يجعلوا أنفسهم مسلمين في الظاهر. فلو حدث أن يطعن مسيحيّ أو يهوديّ في الدين فكيف يسمعه الناس؟

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١٠٧/٤-٧].

هذا مجرّد كلام: ظفِرتَ بذلك النّور، لكنّك لم تظفر بالإنسانية [الآدميّة].

انشُد الإنسانيّة: هذا هو المقصود والباقي إسهاب. عندما يزخرَف الكلام كثيراً يُنسى المقصود.

كان بقّالٌ يحبّ امرأة، فأرسل رسائل إلى السيّدة مع جاريتها: "أنا مِثْلُ هذا، أنا مِثْلُ ذلك. أنا عاشق، أنا أحترق، لا يهدأ لي بال. ووقع عليّ ظلمٌ. وكنتُ مثلَ هذا البارحة. اللّيلة الماضية حدث لي كذا وكذا". وقصّ قصصًا طويلة. جاءت الجارية إلى حضرة السيّدة (الخاتون) وقالت: "البقّالُ يقرئك السلام ويقول: تعالي، حتى أفعل بك كذا وكذا". قالت السيّدة: "بهذا الفتور؟". قالت الجارية: "هو أطال الكلامَ، أما المقصود فقد كان هذا. والأصل هو المقصود والباقي مجرّد صُداع".

الفصل العشرون

شراعُ سفينة وجود الإنسان

[٨٦] قال مولانا: أنت ليلاً ونهارًا تحارب، طالبًا تهذيب أخلاق المرأة وتطهير نجاستها بنفسك. أن تطهّر نفسَك بها خيرٌ من أن تطهرها بنفسك. هذّب نفسَك بوساطتها.

امض إليها، وسلّم بكلّ ماتقوله، حتى لو كان كلامُها في نظرك مُحالاً. ودع الغيرة، برغم أنها صفةٌ للرّجال؛ فإنه من خلال تلك الصفة الجيّدة تدخلُ الصّفاتُ السيّئة فيك. ومن أجل هذا المعنى قال الرسول ﷺ: "لارهبانيّة في الإسلام". فقد كان طريقُ الرّهبان الخلوةَ والاعتزال في الجبال والعزوف عن النساء وترك الدنيا. وقد أظهر الله عزّ وجلّ للنبيّ ﷺ طريقًا ضيّقًا وخفيًّا. وما ذلك الطريق؟- إنه طَلَبُ النساء، ليتحمّل جورهنّ ويسمع محالاتهنّ، وليتعاملن معه بخشونة، وليتهذّب خلُقه.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٤].

بتحمّل جور النساء تكون كأنك تزيل نجاستك بهنّ. يتحسّن خُلُقك بالتحمّل، ويسوء خُلُقهنّ بالمخاشنة والتعدّي. وإذا أدركت هذا طهّرتَ نفسَك. اعلمْ أنهنّ كالثوب؛ بهنّ تطهّر أدرانك، وتغدو أنت نفسُك طاهراً. وإذا لم تنجح مع نفسك فتشاور مع نفسك من جهة العقل على هذا النحو: "دعني

أفترض أننا لم نتزوّج. أنها بغيّ. كلّما غبنتني الشهوةُ ذهبتُ إليها". بهذه الطريقة تدفع عن نفسك الحميّة والحسد والغيرة حتى تظهر لك بعد هذه المشاورة لذّةُ المجاهدة والتحمّل، وبسبب محالاتهنّ تبدو لك أحوال. وبعد ذلك، من دون تلك المشاورة تغدو مريدًا للتحمّل والمجاهدة ولإخضاع نفسك للحيف، عندما ترى في ذلك منفعةً محدّدة لنفسك.

[٨٧] يُحكى أنّ الرسول ﷺ عاد مع الصحابة من غزاة. أمرهم أن يقرعوا الطبل قائلاً: "هذه الليلةَ سننام عند باب المدينة، وندخلها غدًا". فقالوا: "يارسول الله، ما المصلحة في ذلك؟"- قال: "ربّما رأيتم نساءكم مع رجال غرباء فتألّمتم وحدثت الفتنة". أحدُ الصحابة لم يسمع؛ فدخل ووجد زوجته مع رجل غريب.

والآن، فإنّ طريق الرسول ﷺ هو أنه يجب تحمّل الألم، تخليصُ النفس من الغَيْرة والحميّة وألم الإنفاق على المرأة وكسوتها ومئة ألف من الآلام التي لا نهاية لها، لكي يظهر العالَمُ المحمّديّ. طريقُ عيسى عليه السلام هو مجاهدة الخلوة وقمع الشهوة، أما طريق محمد ﷺ فهو تحمّل جور النساء والرّجال وغُصصهم. فإذا لم تستطع الذهاب في الطريق المحمّديّ، فعلى الأقل اذهب بطريق عيسى حتى لاتبقى محرومًا تمامًا. إن كان لديك صفاء لتحمّل يؤهّلك لأن تتحمل مئة لطمة، وترى ثمرة ذلك ومحصّلته، أو تعتقد في الغيب أنّ الأشياء "ستحدث وفق ماقالوا وأخبروا، وسأصبر إلى أن يحين الوقت الذي يصل إليّ فيه أيضًا ذلك الذي أخبروا عنه"- بعد ذلك سترى، لأنك وَضعتَ قلبك على هذا، وتقول: "برغم أنّني هذه الساعة لاأحصل على طائل من هذه الآلام، سأصل في النهاية إلى الخزائن"، ستصل إلى الخزائن، نعم، وأكثر مما طمعتَ فيه ورجوته. وإذا لم يكن لهذه الكلمات تأثير فيك في هذه اللحظة فإنها ستترك أثرًا عظيمًا فيك بعد مدّة، وذلك عندما تغدو أكثر نضجًا. ذلك هو الفرقُ بين

المرأة والعالِم. وسواءٌ أتحدّثتَ مع المرأة أم لم تتحدّث معها، ستبقى هي نفسها، ولن تتحرّر من أساليبها وأعمالها؛ بل إنّ الكلام لايؤثّر فيها، وتغدو أكثر سوءًا.

مثلاً، خذْ رغيف خبز وضعْه تحت إبطك، وامنعْه على الناس، قائلاً: "لن أعطي هذا لأحدٍ أبدًا. أعطيه؟- لماذا، بل لن أظهره". وبرغم أنّ هذا الرّغيف قد رُمي عند الأبواب، ولم تأكله الكلاب، بسبب كثرة الخبز ورخصه، فإنّه بمجرّد أن بدأتَ المنعَ رغب الخلقُ كلّهم فيه، وتعلّقت قلوبهم به، وأتوا متوسّلين ومعارضين، "نريد أن نرى ذلك الخبز الذي تمنعه وتخفيه". خاصّة إذا حفظتَ
[٨٨] ذلك الخبز لمدة عام في كمّك وبالغْتَ وأكّدت عدم إعطائه وعدم إظهاره، فإنّ رغبتهم في ذلك الخبز تتجاوز الحدّ، إذْ "الإنسانُ حريصٌ على مامُنع".

كلّما أمرتَ المرأةَ "أن احتجبي" ازداد تلهّفها إلى أن تُظهر نفسَها، وازدادت رغبةُ الخلق بتلك المرأة بسبب احتجابها. وهكذا تجلس أنت في الوسط، وتزيد الرّغبةَ عند الطرفين كليهما، وتظنّ أنك تصلح. ذلك عينُ الفساد. إذا كان لديها جوهرٌ يمنعها من أن تفعل فعلاً سيّئًا، فسواءٌ أمنعْتَها أم لم تمنعْها ستمضي وفق طبعها الجيّد وجبلّتها الطاهرة. وهكذا كنْ فارغ البال وجانب التشويش والاضطراب. وإذا كانت على عكس هذا، فستظلّ تمضي في طريقها أيضًا؛ لايزيدُها المنعُ إلا رغبةً، على الحقيقة.

هؤلاء الناس يظلّون يقولون: "إننا رأينا شمس الدّين التبريزيّ، أيّها السيّد، رأيناه حقًّا".

أيها الأحمق، أين رأيتَه؟- الذي لايرى الجملَ فوق سطح المنزل يأتي ويقول: "رأيتُ ثقب الإبرة وأدخلتُ الخيط فيه". تلك حكايةٌ جيّدة يحكونها عن شخص قال: "شيئانِ أضحكاني: زنجيّ يلوّن رؤوس أصابعه بالسّواد، وأعمى يخرج رأسه من النافذة". هما تمامًا مِثْلُ ذلك. عُمْيٌ في باطنهم، يُخرجون

رؤوسهم من نافذة الجسم المادّيّ. ماذا سيرون؟- إلامَ يصل تحسينُهم وإنكارهم؟- هما عند العاقل شيءٌ واحد؛ ماداموا لم يروا التحسين ولا الإنكار، فإنّ أيّ شيء يقولونه هراء.

يجب أولاً الحصول على الرؤية، وبعد ذلك على الإنسان أن ينظر. وحتى حين يحصل على الرؤية، كيف يستطيع الإنسان أن يرى مادام أنّهم لاينبغي أن يُرَوا؟

في هذا العالم أولياء كثيرون حقّقوا الوصال؛ وأولياء آخرون وراء أولئك، يسمّون مستوري الحقّ. والأولياء الأوّلون يتضرّعون دائمًا: "ياربّ، أظهرْ لنا واحدًا من مستوريك". ومادام أنهم لايريدونه حقيقةً، أو مادام أنه لاينبغي أن يُرى من جانبهم، مهما امتلكوا من أعينٍ قوية الإبصار، ليس في وسعهم أن يروه. أما بغايا الحان اللاتي لاينبغي لهنّ أن يرين أحدًا، فلا يستطعن الوصول إليهم أو رؤيتهم. كيف يستطيع إنسانٌ أن يرى مستوري الحقّ أو معرفتهم دون إرادتهم؟ [٨٩]

ليس هذا أمرًا سهلاً. قالت الملائكة:

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

"نحن أيضًا عشّاق، روحانيون، نورٌ محضٌ. أمّا هُمْ، إذ هم بشرٌ، فحفنةٌ من النّهمين السفاكين للدماء، يسفكون الدّماء". وهذا كلّه من أجل أن يرتجف الإنسان على نفسه بسبب الملائكة الرّوحانيين، الذين ليس لديهم مال ولا جاهٌ ولا حجاب، نورٌ محض غذاؤهم جمالُ الحقّ، عشقٌ محض، ذوو عيون حادّة وترى بعيدًا، بين الإنكار والإقرار، من أجل أن يرتجف الإنسان على نفسه: "وه، مَنْ أنا؟- وماذا أعرف؟- وكذلك إذا أضاء شيء من النّور على وجهه وشعر بفرح، فسيشكر الله ألف مرّة، قائلاً: "كيف أكون جديرًا بهذا؟".

هذه المرّة ستحصلون على قدر أكبر من الفرح من كلام شمس الدّين. لأنّ شراع سفينة وجود الإنسان هو الاعتقادُ. عندما يكون ثمّة شراع ستقلّه الرّيح إلى مكان عظيم؛ وعندما لايكون ثمة شراع، يكون الكلام كلّه مجرّد ريح.

طيّبةٌ العلاقةُ بين العاشق والمعشوق؛ لاكُلفة البتّة بينهما. كلّ هذه الصّور من التكلّف من أجل الغير. كلّ شيء غير العشق حرامٌ عليه.

كنتُ سأقدّم شرحًا عظيمًا لهذه الكلمات، ولكن لاوقتَ لهذا، وينبغي على الإنسان أن يسعى كثيرًا ويحفر الأنهار حتى يصل إلى حوض القلب. لكنّ الناس ملولون، أو المتكلّم ملول، ويقدّم الأعذار. وإلاّ فإنّ ذلك المتكلّم الذي لايخلّص النّاسَ من الملالة لايساوي شيئًا.

ليس في وسع أحدٍ أن يطلب من أيّ عاشق أن يقدّم برهانًا على جمال المعشوق، ولا يستطيع أحدٌ أن ينشئ في قلب أيّ عاشق برهانًا على كره المعشوق. وهكذا يغدو معلومًا أنّ البرهان هنا لاعمل له، هاهنا على الإنسان أن يكون باحثًا عن العشق. وإذا بالغتُ في هذا البيت في شأن العاشق، فليست هذه مبالغة حقيقية. وأرى أيضًا أنّ المريد قد بذل كلّ معناه من أجل صورة الشيخ:

يامَنْ صورتُك أجملُ من ألف معنى

ذلك لأنّ كلّ مريد يأتي إلى الشيخ عليه أولاً أن يتخلّى عن (معناه)، ويغدو محتاجًا إلى الشيخ.

سأل بهاءُ الدّين: بالتأكيد لم يتخلّ عن (معناه)، من أجل (صورة) الشيخ، بل من أجل (معنى الشيخ)؟

[٩٠] قال مولانا: لايحسُن أن يكون الأمرُ هكذا. فإنه إذا كان الأمرُ هكذا فسيكون كلٌّ منهما شيخًا. والآن عليك أن تجتهد حتى تحصل على نورٍ في داخلك، حتى تتخلّص من نار التشويشات هذه وتأمنها. وإذا ماظفر الإنسانُ

بمثل هذا النور الداخليّ، فإنّ كلّ أحوال العالم التي لها تعلّق بالدنيا مثل المنصب والإمارة والوزارة تضيء في باطنه فتمرّ مثل البرق؛ مثلما يحصل لدى أهل الدنيا الذين تضيء أحوالُ عالم الغيب، مثل خشية الله والاشتياق إلى عالم الأولياء، في قلوبهم، وتمضي سريعةً كالبرق. فقد أصبح أهلُ الحقّ بكلّيتهم لله، وتوجّهت وجوهُهُم إلى الحقّ، وهم مشغولون بالحقّ ومستغرقون فيه. شهوات الدّنيا، مثل شهوة العِنّين، تظهر سريعًا ولا تستقرّ وتمضي. وأهل الدنيا على عكس هذا في أحوال العقبى.

(٩١)

الفصل الحادي والعشرون

البحرُ والزّبَد، أو الآخرةُ والدنيا

قال مولانا: يقول شريف پاي سوخته:

ذلك المنعِمُ الأقدسُ المستغني عن العالَم،

هو نفسُه روحُ الكلّ، وهو مستغنٍ عن الرّوح.

وكلُّ ماأحاط به وهمُك،

فذلك المنعم معبودُه، وهو مستغنٍ عن تلك العبادة

هذه الكلماتُ فاضحة جدًّا؛ ليست مديحًا للملك وليست فخرًا بالنفس. أيّها الرُّجَيْل، أيُّ سرور يكون لك من كونه مستغنيًا عنك؟

ماهذا بخطاب الأحبّة، هذا خطابُ الأعداء. فالعدوّ هو الذي يمكن أن يقول: "أنا غيرُ منشغلٍ بك ومستغنٍ عنك". الآن تأمّل هذا المسلمَ العاشق المتّقد الذي في حال انتشائه يخاطب ذلك المعشوق قائلاً له إنّه مستغنٍ عنه. وهذا مِثْلُ وقّاد الحمّام الذي يجلس في الحمّام ويقول: إنّ السّلطان مستغنٍ عنّي، أنا الوقّاد، وغير مكترثٍ بي وغير مهتمّ أيضًا بكلّ الوقّادين. أيّ فرح هذا الذي سيجده مِثْلُ هذا الوقّاد البائس في فكرة أنّ الملك كان غير مكترث به؟- لا، فالكلماتُ الصحيحة التي ينبغي أن يقولها هي الآتية: "كنتُ فوق سطح الحمّام، فمرّ السلطان، فسلّمتُ عليه. نظر إليّ كثيرًا، وبعد ذلك اجتازني، وهو لايزال ينظر

إليّ". مِثْلُ هذه الكلمات يمكن أن تعطي بهجةً لذلك الوقّاد. أمّا القول: "إنّ الملك لايقيم وزنًا للوقّادين"- فأيُّ ضربٍ من المديح للملك مِثْلُ هذا الكلام، وأيّ فرحٍ يبعث في نفس الوقّاد؟

"كلّ ماأحاط به وهْمُك" أيها الرُّجَيل، ماذا سيمرّ بوهمك ويعنّ لك، إلاّ أنّ الرّجال مستغنون عن وهمك وخيالك، وإذا حكيتَ لهم عن وهْمك ملّوا وفرّوا؟- وما الوهمُ الذي لايكون اللهُ مستغنيًا عنه؟- وقد جاءت آية الاستغناء بشأن الكافرين؛ وحاشى أن يكون مِثْلُ هذا الخطاب للمؤمنين.

أيها الرُّجَيْلُ، إنّ استغناءه ثابتٌ؛ إلاّ إذا كانت لك حالٌ روحيّة ذات قيمة، فإنّه لايكون مستغنيًا عنك، بقدر عزّتك.

كان شيخُ المحلّة يقول: "المشاهدة أولاً، وبعد ذلك المحادثة. فكلُّ الناس يرون السلطان، أمّا الذي يكلّمه فهو الخاصّ المؤثَّر عنده". قال مولانا: هذا أعوج وفاضح ومعكوس. فموسى، عليه السلام، تمتّع بالمحادثة وبعد ذلك طلب

[٩٢] المشاهدة. مقام موسى كان مقام المحادثة؛ أمّا مقام محمد ﷺ فقد كان مقام المشاهدة. فكيف والحالُ كذلك يمكن أن يكون كلام الشيخ صحيحًا؟

قال مولانا: قال أحدُهم أمام مولانا شمس الدّين التبريزيّ قدّس الله سرّه: "قد أثبتُّ وجودَ الله بدليل قاطع". في الصباح الآتي قال مولانا شمس الدّين: "الليلةَ الماضية نزلت الملائكة ودعت لذلك الرّجل قائلةً: "الحمدُ لله، لقد أثبتَ وجود ربّنا!". أطال الله عمره! لم يقصّر في حقّ أهل العالم.

أيها الرُّجَيْل، الله ثابتٌ، لايحتاج إثباتُ وجوده إلى دليل. إذا فعلتَ شيئًا، فأثبت نفسَك في مرتبةٍ ومقامٍ أمامه؛ وإلاّ، فإنّه ثابتٌ دون دليل.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤].

لاشكّ في هذا. الفقهاءُ أناسٌ أذكياء، ومعة بالمغة بصراء في فنّهم. ولكن بينهم وبين العالم الآخر شُيِّد جدارٌ، من أجل حفظ "يجوز ولا يجوز". لأنه لو لم يكن ذلك الجدارُ حجابًا لهم لما استفتاهم أحدٌ ولتعطّل عملُهم. وهذا نظير ماقاله مولانا العظيم قدّس الله سِرّه العزيز: "العالَم الآخر مِثْلُ البحر، وهذا العالم مِثْلُ الزّبد. وقد شاء الله عزّ وجلّ أن يجعل الزّبد معمورًا. ولذلك أقام أناسًا ظهورُهم إلى البحر من أجل عمارة الزّبد. وإذا لم ينشغلوا بهذا فإنّ الخلق سيُفني بعضُهم بعضًا ويستلزم ذلك خراب الزّبد. وهكذا ضُرِبتْ خيمةٌ من أجل الملِك، وقد شغل قومًا بعمارة هذه الخيمة. أحدهم يقول: "إذا لم أصنع أنا الأطناب فكيف ستنتصب الخيمة؟" ويقول آخر: "إذا لم أصنع أنا الوتد فبأيّ شيء ستُربط الأطناب؟" كلُّ شخص يعرف أنّ هؤلاء جميعًا عبيدٌ لذلك الملك الذي سيجلس في الخيمة ويتفرّج على المعشوق.

وهكذا، إذا ترك النسّاج النّسْج من أجل أن يكون وزيرًا فسيبقى العالَمُ كلّه عاريًا ومتجرّدًا؛ وهكذا أُعطي سرورًا بهذه الحِرْفة، فغدا راضيًا. ولذلك خُلق أولئك القوم لحفظ عالم الزّبد عامرًا، وخُلِق العالَمُ من أجل الحفاظ على ذلك الوليّ.

[٩٣] ما أسعد ذلك الذي يكون العالَمُ قد خُلق من أجل الحفاظ عليه، ولم يُخلق هو من أجل الحفاظ على العالم. يهب الله عزّ وجلّ كلّ إنسان الرِّضى والسعادة بالعمل الذي هو حرفته، حتى إنّه لو عاش مئة ألف سنة لظلّ يمارس العمل نفسه، ولازداد عشقُه للملك العمل كلّ يوم، ولتولّدت لديه في تلك الحِرفة مهاراتٌ دقيقة، يحصل منها على لَذّات ومباهج لاحدّ لها.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

هناك تسبيحٌ لصانع الطُّنب، وتسبيحٌ آخر للنجّار الذي يصنع أعمدة الخيمة، وثالث لصانع الأوتاد، ورابع للنسّاج الذي ينسج غطاء الخيمة، وخامس للأولياء الذين جلسوا في الخيمة يتفرّجون ويتعاشرون.

والآن فإنّ هؤلاء الناس الذين يأتون إلينا، إذا سكتْنا ملّوا وتألّموا، وإذا قلنا شيئًا فإنه يجب أن يكون ملائمًا لهم. نحن نتألّم، وهم يذهبون ويشنّعون علينا، قائلين: "إنه يملّ منّا ويفرّ منا"، وكيف يفرّ الحطبُ من قدر الطبخ، إلاّ إذا فرّت القدْر؟ لايمكن ذلك. وهكذا فإنّ فرار النار والحطب ليس فرارًا البتة. بل، عندما يرى القِدْرَ ضعيفةً يبتعد عنها؛ وهكذا فالحقيقة في الأحوال كلّها أنّ القدْر هي التي تفرّ. ولذلك فإنّ فرارنا هو فرارهم. نحن مرآة: إن كان لديهم تهيّؤ للفرار فإنّه يظهر فينا؛ نحن نفرّ من أجلهم هم. المرآة هي تلك التي يرى الناسُ فيها أنفسَهم؛ فإذا رأونا ملولين فإنّ تلك ملالتُهم. لأنّ الملالة صفة ضعف. ولا مجال هنا للملالة، وأي عمل للملالة؟

حدث لي في الحمّام أن أظهرتُ تواضعًا زائدًا للشيخ صلاح الدّين*، وأظهر الشيخُ صلاح الدّين تواضعًا عظيمًا لي. وأمام ذلك التواضع شكوتُ أنا. فخطر لي، "تجاوزتَ الحدَّ في التواضع. التواضع بالتدريج أحسن؛ في البدء قبِّل يدَه، وبعدئذ قدَمَه. ثم شيئًا فشيئًا إلى أن تصل إلى الحدّ الذي لايظهر فيه ذلك، ويكون هو قد اعتاده. قطعًا لاينبغي مضايقتُه، وتكليفُه خدمةً مقابل خدمةٍ، عندما تكون قد عوّدته تدريجيًا على ذلك التواضع".

عليك أن تسلك الطريق نفسه مع الأحبّة ومع الأعداء، فتفعل الأشياء تدريجيًا. فمثلاً مع العدوّ، أولاً تقدّم له النصيحة شيئًا فشيئًا؛ فإذا لم يسمع، ضربتَه؛ فإذا لم يسمع تصرفه عنك. يقول القرآن: [٩٤]

* المرادُ هنا هو صلاح الدّين فريدون زركوب القونويّ، وهو من المحبّين الصّادقين والمحبوبين الملازمين لمولانا. وبعد اختفاء شمس تبريز ظلّ مولانا منشغلاً لمدّة عشر سنوات بصحبة صلاح الدّين هذا. توفّي سنة ٦٥٧هـ. (المترجم).

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٤/٣٤].

وشوون العالم تمضي على هذا النحو. ألا ترى التصالح والتحابّ في الربيع؟ في البدء يظهر الدّفءُ شيئًا فشيئًا، وبعدئذ يزداد. تأمّلْ أيضًا الأشجار، كيف تتقدّم شيئًا فشيئًا؛ فثمة أولاً التبسّم، وبعدئذ تعرض ألبستَها من الأوراق والثمار مثلما يعرض الدّراويشُ والصوفيّةُ كلَّ شيء، ويقامرون بكلّ ما يملكونه.

وهكذا يتعجّل الإنسانُ في أعمال الدنيا والآخرة، مبالغًا في أول عمله. وذلك العمل غير ميسَّر له، إذا كانت طريقتُه المناسبة هي الرياضة. وقد قيل: إنّه إذا كان الإنسان يأكل مَنًّ خبزٍ فعليه أن يُنقصه يوميًّا مثقالَ درهم، تدريجيًّا. وبتلك الطريقة، لا تكاد تمضي عليه سنةٌ أو سنتان حتى يكون قد أوصل ذلك الخبزَ المتناول إلى نصف مَنّ، مُنقِصًا إيّاه على نحو لايظهر على الجسم تأثيرُ ذلك الإنقاص. وهكذا الشأنُ مع العبادة والخلوة والتوجّه إلى الطّاعة والصلاة. وإذا كان الإنسان يصلّي بكلّ قلبه، عندما يدخل في طريق الحقّ سيحافظ في البدء على الصلوات الخمس مدّة، ثم يزيد عليها بعد ذلك إلى مالا نهاية.

الفصل الثاني والعشرون

ماءُ الحياةِ*

[٩٥] الأصلُ أن يحفظ ابنُ حارش حرمة الشيخ صلاح الدّين في غيابه؛ لعلّ ذلك ينفعه وتندفع عنه هذه الظلمات والغشاوات. ألا يقول ابن حارش هذا في نفسه: إنّ الخلق والناس تركوا بلادهم وآباءهم وأمهاتهم وأهلهم وقرابتهم وعشيرتهم، وسافروا من الهند إلى السند، وصنعوا الزرابيل من الحديد حتى تقطعت؛ لعلّهم يلتقون رجلاً له رائحةٌ من ذلك العالم. وكم من أناسٍ ماتوا تلهّفًا وتحسّرًا ولم يفوزوا، ولم يلتقوا مثل هذا الرجل. وأنت قد التقيت في بيتك حاضرًا مثل هذا الرّجل، ثم تتولّى عنه! ماهذا إلاّ بلاء عظيم، وغفلة. وهو نفسُه كان يقول لي عن شيخ المشايخ صلاح الحقّ والدّين خلّد الله ملكه إنه رجلٌ كبير وعظيم، وذلك ظاهر في وجهه.

ومن يوم جئتُ في خدمة مولانا ماسمعتُه يومًا يسمّيكم إلاّ (سيّدنا) و(مولانا) وما غيّر هذه العبارة في يوم من الأيام. ألا تكون أغراضُه الفاسدة هي التي حجبته عن هذا؛ إذ يقول اليوم عن الشيخ صلاح الدّين: إنه ليس شيئًا. فماذا أساء الشيخُ صلاحُ الدّين إليه من ضروب الإساءة، إلا أنه يراه يقع في الجُبّ فيقول له: لاتقعْ في الجبّ؛ شفقةً منه على الناس جميعًا؛ وهو يكره تلك

* هذا الفصلُ بالعربيّة في الأصل. [المترجم].

الشفقة. لأنك إذا فعلتَ شيئًا لأيرضي صلاحَ الدّين كنتَ في وسط قهره. فإذا كنتَ في قهره كيف تنجلي؟- بل كلّما مضيتَ تسودّ من دخان جهنّم نصحك وقال لك: لاتسكن في قهري، وانتقلْ من دار قهري وغضبي إلى دار لطفي ورحمتي. لأنك إذا فعلتَ شيئًا يرضيني دخلتَ في دار محبّتي ولطفي. فمتى ينجلي فؤادُك ويصير نورانيًّا؟ وهو ينصحك من أجل فائدتك وخيرك، وأنت تحسب أنّ تلك الشفقة وتلك النصيحة لأجل علّة أخرى وغرض آخر. وماذا يمكن أن يكون لمثل ذلك الرّجل من غرض لديك أو عداوة؟ عندما يحصل لك [٩٦] ذوقٌ ما من خمر حرام أو من حشيش أو من سماع أو من سبب من الأسباب ألا ترضى في تلك الساعة عن كلّ عدوّ لك، وتعفو عنهم، وتميل إلى تقبيل أرجلهم وأيديهم؛ ويكون الكافرُ والمؤمنُ في تلك السّاعة شيئًا واحدًا في نظرك؟

الشيخ صلاحُ الدّين أصلُ هذا الذّوق، وبحرُ الذوق عنده، فكيف يكون لديه بُغضٌ لأحدٍ وعداوة؟- معاذ الله؛ وإنما يقول هذا شفقةً ورحمةً بالعبيد. ولولا أنّ الأمر كذلك لما كانت له علاقة بهذه الجرذان والضفادع. فمن يكون لديه ذلك المُلك وتلك العظمة ماذا يفعل بهؤلاء المساكين؟ ألم يقولوا: إنّ ماء الحياة موجودٌ في الظلمة، والظلمة هي أجسام الأولياء، وماء الحياة فيها؟ ولا يمكن أن يُعثر على ماء الحياة إلاّ في الظلمة. فإن كنتَ تكره هذه الظلمة وتنفرُ منها، فكيف يصل إليك ماءُ الحياة؟. وحين تطلب أن تتعلّم المخنوثة من المخنثين أو القحوبة من القحاب، أيمكن أن تتعلّم ذلك إلاّ بتحمّل ألف مكروهٍ وضربٍ ومخالفة لإرادتك؟ حتى تفوز بما تريد وتتعلّم ذلك. وأنت تريد أن تظفر بحياة باقية سرمدية، وهو مقام الأنبياء والأولياء، من دون أن يصيبك مكروه، ومن دون أن تترك بعض ماعندك. كيف يصير هذا؟!

ولم يحكم عليك الشيخُ بما حكم المشايخ الأوّلون، بأن تترك المرأة والأولاد والمال والمنصب. بل كانوا يحكمون على المريد قائلين له اترك امرأتك حتى

تتزوّجها. وكان المريدون يتحمّلون ذلك. أمّا أنتم فما لكم لاتتحمّلون إذا نصحكم بشيء يسير ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦]. فماذا يقول هؤلاء الناس؟- لقد غلب عليهم العمى والجهل. ألا يتأمّلون كيف أنّ الشخص إذا عشق امرأةً يظلّ يتصنّع ويتذلّل ويبذل المال لكي يخدعها، ويبذل طاقته وجهوده لكي يظفر بتطييب خاطرها، يفعل ذلك ليلاً ونهارًا لايملّ منه، ويملّ من غير هذا؟

إنّ محبّة الشيخ، ومحبّة الله، تكون بأقلّ من هذا. من أقلّ حكمة ونصيحة ودلال يُعرض ويترك الشيخ، فيُعلم أنه ليس بعاشق، ولا طالب. لو كان عاشقًا وطالبًا لتحمّل أضعاف ماذكرنا، وكان على قلبه ألذّ من العسل والسّكّر.

الفصل الثّالث والعشرون

عبيرُ المعشوق

[٩٧] قال مولانا: عليّ أن أذهب إلى توقات*، لأنّ تلك المنطقة دافئة. وبرغم أنّ أنطالية دافئة، فإنّ أغلبيّة الناس هناك من الرّوم الذين لايفهمون لغتنا؛ برغم أنه بين الرّوميّين من يفهمها أيضًا. كنت أتكلّم في يوم من الأيّام بين جماعة، وكان بينهم أيضًا جماعةٌ من الكفّار. وفي وسط كلامي بدؤوا بالبكاء والتعبير عن الذوق والحال التي ألمّت بهم.

سأل أحدُهم: وماذا يفهمون وماذا يعرفون؟ إنّ مسلمًا واحدًا فقط من ألف مسلم يفهم هذا الجنس من الكلام. فماذا فهموا هم حتى بكوا؟.

أجاب مولانا: ليس لزامًا أن يفهموا روح هذه الكلمات. الأصلُ هو هذه الكلمات نفسها، وهم يفهمونها. وبعد كلّ شيء، كلّ إنسان يقرّ بوحدانيّة الله، وبأنه الخالق والرّازق، وأنّه المتصرّف في كلّ شيء، وأنّ مآل كلّ شيء إليه، وأنّ العقاب والعفو منه. عندما يسمع أيّ إنسان هذه الكلمات، التي هي وصفٌ للحقّ وذِكْرٌ له، يحصل له اضطراب وشوق وذوق؛ لأنه من هذه الكلمات يأتي عبير معشوقه ومطلوبه.

---

* توقات: بفتح الأوّل (حسب رواية ياقوت في معجم البلدان) مدينةٌ في شمال شرقيّ قونية قرب سيواس. [المترجم].

وبرغم أنّ الطرق مختلفة، يظلّ القصدُ واحدًا. ألا ترى أنّ ثمّة طرقًا كثيرة إلى الكعبة؟- فعند بعضهم الطريقُ من الرّوم، وعند بعضهم من الشام، وعند بعضهم من فارس، وعند بعضهم من الصّين، وعند بعضهم بطريق البحر من ناحية الهند واليمن. وهكذا إذا أنتَ تأمّلت الطّرق، وجدتَ اختلافًا عظيمًا ومباينةً لاحدود لها؛ أمّا عندما تنظر إلى المقصود فإنك تجدها جميعًا متفقة وواحدة. قلوبُ الجميع متفقة على الكعبة. للقلوب ارتباطٌ وعشقٌ ومحبّةٌ عظيمة للكعبة، وليس فيها مجال للاختلاف. وذلك التعلّق ليس كفرًا وليس إيمانًا؛ يعني أنّ ذلك التعلّق ليس ملتبسًا بتلك الطرق المختلفة التي أتينا على ذكرها. بمجرّد أن يصلوا إلى هناك، فإنّ ذلك النقاش والاحتراب والاختلاف الذي كان منهم في الطريق، هذا يقول للملك: "إنك مُبْطلٌ، وكافر"، وذلك الآخر يردّ بالأوصاف نفسها - [أقول] بمجرّد أن يصلوا إلى الكعبة يغدو معلومًا أنّ ذلك الاحتراب إنما كان في الطُّرق فحسب، وأنّ مقصودهم كان واحدًا.

[٩٨] خذ مثلاً، أنه لو كان للقصعة روح لكانت هذه القصعة عبدًا لصانعها وللعبت معه لعبة العشق. الآن، هذه القصعة التي صنعتْها الأيدي، بعضُهم يقول: إنها يجب أن توضع هكذا على المائدة؛ وبعضهم يقول: يجب غسْلُ داخلها، وبعضهم يقول: يجب غَسْلُ خارجها، وبعضهم يقول: يجب غسْلُها كلّها، وبعضهم يقول: إنها لاتحتاج إلى غسل البتّة. الاختلافُ في هذه الأشياء فقط؛ أمّا مسألة أنّ القصعة لها يقينًا صانعٌ ومُبْدِعٌ ولم تأتِ إلى الوجود هكذا من نفسها فمتّفقٌ عليها، وليس لشخص مخالفةٌ في هذا الشأن.

ولنعد إلى أصل الحديث: كلُّ الناس في أعماق قلوبهم محبّون للحقّ وطلاّب له، ولديهم حاجةٌ إليه وفي كلّ شيء يضعون رجاءهم فيه، ويرون أنه لاأحد غيره قادرٌ ومتصرّف في شؤونهم. مِثْلُ هذا المعنى ليس كفرًا ولا إيمانًا. وليس لذلك اسمٌ من الوجهة الباطنية. أمّا عندما ينساب ماءُ المعنى من الباطن نحو

ميزاب اللسان ويتجمّد، فإنه يستلزم صورةً وعبارةً؛ وهاهنا يغدو اسمُه كفرًا وإيمانًا وخيرًا وشرًّا. مثل النباتات التي تنمو من الأرض. في أوّل أمرها ليس لها صورة؛ أمّا عندما تظهر في هذا العالم فتبدو في البدء لطيفةً وناعمة وبيضاء اللّون. وكلّما تقدّمت في هذا العالم غدت غليظة وكثيفة واتخذت لونًا آخر.

وعندما يجلس المؤمن والكافر معًا ولا يقولان شيئًا بوساطة العبارة يكونان شيئًا واحدًا. ليس ثمّة انفصال للفِكَر، والباطنُ عالَمٌ حُرّ. لأنّ الفِكَر لطيفة، لايمكن ضبطُها. "نحن نحكم بالظاهر، والله يتولّى السّرائر". الحقُّ تعالى يُظهِر تلك الفِكَرَ فيك، وليس في وسعك إبعاد تلك الفِكَر عنك بمئة ألف جهد وسعي. وبشأن مايقال من أنه لاحاجة لِلّه إلى أية آلة، ألا ترى كيف يُظهر الله تلك التصوّرات والفِكَرَ فيك دون آلةٍ ودون قلمٍ ودون لونٍ.

[٦٩] تلك الفِكَرُ مِثْلُ الطير في الهواء وغزلان البرّ التي قبل أن تمسكها وتضعها في الأقفاص لايحلّ لك بيعُها في الشّرع. فإنّه ليس في مقدورك بيعُ طائر في الهواء؛ لأنه في البيع التسليم شرْطٌ، وعندما لايكون ذلك في مقدورك، كيف تسلّمه؟

وهكذا، فالفِكَرُ مادامت في الباطن تكون دون اسمٍ ودون علامة؛ لايمكن الحُكْمُ عليها لابكفر ولا بإسلام. لايوجد قاضٍ يقول: "في قرارة نفسك أقررتَ هذا، أو بعتَ هكذا"، أو "تعال احلفْ إنك لم تفكّر في قرارة نفسك بهذه الفكرة؟" لاقاضي سيقول ذلك؛ لأنه لاحُكْمَ لأحدٍ على القلب. الفِكَرُ طيورٌ في الهواء. ومتى جاءت في العبارة أمكن الحُكْمُ عليها بالكفر والإسلام والخير والشرّ.

هناك عالَمٌ للأجسام، وعالَمٌ للتصوّرات، وعالم للتخيّلات، وعالم للتوهّمات. والحقّ تعالى وراء العوالم كلّها، ليس داخلَها وليس خارجها. تأمّل بعدئذٍ تصرّفات الحقّ في هذه التصوّرات، إذ يصوّرها من دون كَيْف، ومن دون

قلم، ومن دون آلة. وبعد ذلك، من شأن هذا الخيال أو التصوّر أنك لو شققتَ الصدر والتمست فيه ذرّةً ذرّةً تلك الفكرةَ لما ظفرتَ بها؛ لاتجدها في الدّم، ولا في العروق، ولا فوق ولا تحت، لاتجدها البتّة في جزء من الأجزاء؛ ليست مادّية وليست في الزمان أو المكان؛ ولن تظفر بها أيضًا خارج الصدر.

ولأنّ تصرّفاته في هذه التصوّرات بهذا اللّطف إلى حدّ أنه لاأثر لها، تأمّلْ أنتَ كم يكون دون أثرٍ وكم يكون لطيفًا خالقُ الأشياء كلّها ومبدعها! ومثلما أنّ هذه القوالب والأجساد لطيفةٌ نسبةً إلى معاني الأشخاص، تكون هذه المعاني اللطيفة وغير المحسوسة نسبةً إلى لطف الباريء أجسامًا وصُورًا كثيفة.

لو ظهر ذلك الرُّوحُ المقدّسُ من الحجب لغُدّت عقولُ البشر وأرواحُهم أبدانا*

بالفارسيّة:

زيردها أكّر آن روح قدس بنمودى عقول وجان بشررا بدن شمردندى

والحقّ تعالى لايتسع له عالَمُ التصوّرات هذا، ولا أيّ عالم آخر. لأنه لو تضمّنه عالَمُ التصوّرات لَلَزم من ذلك أنّ مصوِّر التصوّرات محيطٌ بالله، حيث لايكون الله عندئذٍ خالق التصورات. وهكذا نُستيقَن أنّ الله وراء العوالم جميعًا. [١٠٠]

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧/٤٨].

الناس جميعًا يقولون: "سندخلُ الكعبة". بعضهم يقول: "إن شاء الله، سندخل". هؤلاء الذين يستثنون هم عشّاقٌ للحقّ. ذلك لأنّ العاشق لايرى نفسه قادرًا ومختارًا؛ يعدّ القادرَ والمسؤول إنما هو المعشوق. ومن هنا يقول: "إن شاء المعشوق فسأدخل".

---

* هذا البيت من غزلٍ لمولانا. [المترجم].

والآن فإنّ المسجد الحرام عند أهل الظاهر هو تلك الكعبة التي يتجمع حولها الخلق. أمّا عند العاشقين والخاصّة فإنّ المسجد الحرام هو وصالُ الحقّ.

وهكذا يقولون: "إن شاء الحقُّ سنصل إليه ونتشرف برؤيته".

أمّا أن يقول المعشوق: "إن شاء الله" فنادرٌ. إنها حكاية ذلك الغريب، ويجب على الغريب أن يسمع، وأن يكون قادرًا على سماع، حكاية الغريب. إنّ لله عبادًا معشوقين ومحبوبين، والحقّ تعالى طالبٌ لهم، وكلّ وظيفة للعاشق يؤدّيها من أجلهم ويظهرها لهم. ومثلما أنّ العاشق سيقول: "إن شاء الله سأصل" يقول الحقُّ تعالى نيابةً عن ذلك الغريب: "إن شاء الله".

وإذا ماشغلتُ نفسي بشرح تلك الدّقيقة، فإنّه حتى الأولياء الواصلون سيفقدون رأس خيط الحديث. فكيف يمكن إذن التحدّث عن مثل هذه الأسرار والأحوال إلى الخَلْق؟ "وصل القلمُ إلى هذا الحدّ، فانكسر رأسُه". مَنْ لايرى الجملَ فوق المئذنة، كيف يرى خيط شعرٍ في فم الجمل؟

ولنعدْ إلى الحكاية الأولى: أولئك العشّاق الذين يقولون: "إن شاء الله"، يعني: المعشوق متصرّف، إن شاء المعشوق فستدخل الكعبة- مِثْلُ هؤلاء الناس مستغرقون في الحقّ. لامحلّ هناك للغَيْر، وتذكّر الغَيْر حرام. أيّ مكان هناك للغير؟- لأنه إذا لم يَمْحُ الإنسانُ نفسَه لايكون ثمّة مكانٌ للحقّ "ليس في الدّار غير اللهِ ديّار".

الرّؤيا التي صدّقها اللهُ لرسوله: الآن هذه الرؤيا هي منامات العاشقين والصّادقين؛ وتعبيرُ تلك الرؤيا يظهر في ذلك العالم الآخر. بل إنّ أحوال العالم كلّها منام يظهر تعبيرُه في تلك الدنيا. فعندما ترى في المنام أنك راكبٌ على فرَس، فستحقّق مرادَك؛ فما الصلة بين الفرس والمراد؟- وإذا رأيتَ في المنام أنك
[١٠١] قد أُعطيتَ دراهم صحيحة، فإنّ تعبير ذلك أنك ستسمع كلماتٍ صحيحة

وجميلة من أحدِ العلماء؛ فما وجه الشّبه بين التّرحم والكلام؟ وإذا رأيتَ في المنام أنك عُلّقتَ على مشنقة، فستغدو رئيسًا للقوم؛ فكيف تشبّه المشنقة بالرياسة والقيادة؟ وهكذا مثلما قلنا أحوالُ العالم منامٌ. "الدّنيا كحُلُم النائم": تعبيراتُها في ذلك العالم ستكون مختلفة، لاتشبه هذا. وإنما يعبّرها المعبِّر الإلهيّ؛ لأنها جميعًا مكشوفة لديه.

مثلما أنّ البستانيّ الذي يدخل البستان ينظر إلى الأشجار، ومن دون أن يرى ثمارًا على الأغصان يحكم بأنّ هذه شجرة تمر، وتلك شجرة تين، وهذه رمّان، وهذه إجّاص، وهذه تفاح. ولأنّ رجل الحقّ الصّادق يعرف علم الأشجار، لاحاجة به إلى أن ينتظر إلى يوم القيامة لكي يرى التعبيرات، ماذا حدث، وماذا أعطى ذلك المنامُ من نتيجة. مِثْلُ هذا الرّجل رأى سابقًا ماستكون الثمرة؛ مثلما يعرف البستانيّ قَبْلُ أيّ ثمرةٍ سيثمر هذا الفرع على نحو يقينيّ.

كلُّ أشياء العالم، من مالٍ ونساءٍ ولباس، مطلوبةٌ لغيرها، وليست مطلوبةً لذاتها، ألا ترى أنه حتى إذا كان لديك مئة ألف درهم وكنتَ جائعًا ولم يكن في مقدورك أن تحصل على كِسرة خبز، لن تكون قادرًا على الأكل وتغذية نفسك بتلك الدراهم؟- والمرأةُ من أجل الأطفال، وقضاء الشهوة. واللّباس لدفع أذيّة البرد. وهكذا، الأشياءُ كلّها مسلسلةٌ مع الحقّ جلّ جلالُه: هو المطلوبُ لذاته، يُراد لذاته لا لأيّ شيء آخر. ولأنه وراء كلّ شيء، وخيرٌ من كل شيء، وأشرف من كلّ شيء، وألطف من كلّ شيء، فكيف يُراد من أجل ماهو أقلّ منه؟- وهكذا "إليه المنتهى"؛ عندما يكونون قد وصلوا إليه يكونون قد وصلوا إلى مطلوبهم الكليّ، لامجاوزة لذلك.

نفسُ الإنسان محلُّ شُبهةٍ وإشكال. لايمكن بوجهٍ من الوجوه إزالةُ الشبهة والإشكال عنها إلاّ إذا عشقتْ؛ بعد ذلك لايبقى فيها شبهةٌ وإشكال؛ حيث "حبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِمّ".

عندما لم يسجد إبليس لآدم، وخالف الأمر، قال:

﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢/٧].

"ذاتي من نار، وذاتُه من طين. كيف يكون لائقًا أن يسجد الأعلى للأدنى؟"

(١٠٢) عندما لعن الله إبليسَ بسبب هذا الجرم والعناد والجدال مع الله وطرده، قال: "يارب، آه، انتَ فعلتَ كلّ شيء، وكانت هذه فتنتَك، ثم الآن تلعنني وتطردني". وعندما أذنب آدم، أخرج الحقّ تعالى آدمَ من الجنة. قال الحقّ تعالى لآدم: "ياآدم، عندما آخذتُك وزجرتُك على ذلك الذنب الذي اقترفتَه لماذا لم تناقشني"؟ ومهما يكن فإنّ لديك حجّة. لم تقل: "كلُّ الأشياء تأتي منكَ وأنت فعلتَ كلّ شيء. وكلُّ ماتشاؤه في الدنيا يكون، وكلّ مالا تشاؤه لايكون البتّة". لديك مِثْلُ هذه الحجة الصحيحة والبيّنة والمشروعة، فلِمَ لم تقلها؟- أجابَ آدم: "يارب، عرفتُ ذلك، إلاّ أنني لم اترك الأدب في حضرتك، ولم يدَع العشقُ مجالاً للمواخذة".

قال مولانا: هذا الشرعُ مَشْرَعةٌ؛ أيْ مكانٌ يمكن الورودُ منه [آبشخور - بالفارسية].

ويمكن أن يشبّه بديوان المِلِك؛ الذي فيه أحكامُ الملك، مِنْ أمرٍ ونهي، وسياسة وعدل، إزاء الخاصّة والعامّة. وأحكامُ الملك ديوانٌ لاحدّ له ولا يمكن إحصاء محتوياته ورائع جدًّا ومفيد جدًّا، وبها قوام العالم. أمّا أحوال الدّراويش والفقراء فمحادثة مع الملك، ومعرفةٌ لعِلْم الحاكم. فأين معرفةُ عِلْم الأحكام من معرفة علْم الحاكم ومحادثة الملك؟ بينهما فرقٌ عظيم.

أصحابي وأحوالُهم مِثْلُ مدرسةٍ فيها عدد كبير من الفقهاء. والمدرّس يدفع لكلّ فقيهٍ حسب استعداده، يعطي واحدًا عشرة، وواحدًا عشرين، وثالثًا ثلاثين. نحن أيضًا نقدّم كلامنا تبعًا لأقدار الأشخاص "كلّم النّاس على قدر عقولهم".

الفصل الرّابع والعشرون

الخَلْقُ يؤدّون عملَ الحقّ

كلُّ إنسانٍ يبني هذه العمارة بنيّةٍ ما: إمّا لإظهار كرمه، وإمّا لإحراز الشهرة، وإمّا لكسب المثوبة. والحقّ تعالى ينبغي أن يكون المقصودَ في رفع مراتب الأولياء وتعظيم تُرَبهم ومقابرهم.

هم أنفسُهم غير محتاجين إلى تعظيمهم؛ لأنهم في أنفسهم معظَّمون. فالسّراج إذا أراد أن يوضع في مكان عالٍ، فإنه يريد ذلك من أجل الآخرين، لايريد ذلك من أجل نفسه. وهل يهمّ السّراجَ أن يكون تحتُ أو فوق؟ أينما وُجد السّراج كان منوّرًا. لكنّه يريد أن يصل ضوءُه إلى الآخرين. الشمسُ التي في أعلى السماء لو كانت تحتُ لظلّت الشمسُ نفسَها، لكنّ العالم يبقى مظلمًا. وهكذا، الشمسُ فوقُ ليس من أجلها هي، بل من أجل الآخرين. والحاصلُ من هذا أنّ الأولياء منزّهون عن (فوق) و(تحت) وعن تعظيم الخلق، وغير منشغلين بأمثال هذه الأمور. مفاخرتهم لاتكون إلاّ بالحقّ، والحقّ مستغنٍ عن (تحت) و(فوق). (تحت) و(فوق) هاتان لنا نحن الذين لدينا قدمٌ ورأسٌ. المصطفى صلواتُ الله عليه قال: "لاتفضّلوني على يونُس بن متّى بأن كان عروجُه في بطن الحوت وعروجي كان في السّماء على العَرْش". يعني إذا فضّلتّموني عليه فلا تفضّلوني

من جهة أنّ عروجه كان في بطن الحوت وعروجي فوقُ في السّماء. فالحقّ تعالى ليس (فوق) ولا (تحت)؛ تجلّيه واحدٌ، فوقُ وتحتُ وفي بطن الحوت. وهو منزّهٌ عن فوق وتحت؛ الأشياء كلّها لديه واحدة.

هناك الكثير من الأشخاص الذين يؤدّون أعمالاً ويكون غرضهم مختلفًا عن مقصود الحقّ. أراد الحقُّ جلّ جلاله أن يكون دينُ محمّد ﷺ معظّمًا وظاهرًا أو منتشرًا وباقيًا إلى أبد الدهر. وهكذا انظر كيف أنّ كثيرًا من التفاسير قد أُعِدّت للقرآن، في مجلّدات عديدة. وغرض مؤلّفيها إظهارُ فضلهم. مثلاً الزمخشريّ [١٠٤] (الكشّاف)، بكثير من دقائق النحو واللغة والعبارات الفصيحة لإظهار فضله؛ ولكن أيضًا من أجل أن يحصل مقصودُ الحقّ، وهو تعظيمُ دين محمّد. وهكذا فالخلقُ جميعًا أيضًا يعملون عمل الحقّ، برغم أنّهم غافلون عن غَرض الحق. يريد لهم الحقّ مقصودًا آخر، يريد أن يبقى العالم. هم مشغولون بشهواتهم؛ يلبّون شهوتهم إلى المرأة من أجل لذّتهم، لكنّ النتيجة هي ولادةُ طفل.

وهكذا يعملون من أجل بهجتهم ولذّتهم، وذلك نفسُه سببٌ للحفاظ على نظام العالَم. فهم على الحقيقة يحقّقون عبوديّة الإنسان للحقّ، إلاّ أنّهم لا يفعلون ذلك بتلك النيّة. وكذلك يبنون المساجدَ وينفقون الكثير على الأبواب والجدران والسُّقوف، لكنّ الاعتبار للقبْلة. المقصودُ والمعظّم هو القِبْلة، وتعظيمُها يتعاظم بقدر مالم يكن ذلك هدفًا لهم.

وهذا التعظيمُ للأولياء ليس تعظيمًا من جهة الصورة. إي والله، إنّ لهم سموًّا وعظمة، لكنّها وراء المكان والزمان. هذا الدّرهم فوق قطعة النقد المصنوعة من النحاس: فما معنى "فوق قطعة النحاس"؟- من جهة الصورة ليس فوقها. هَبْ، مثلاً، أنك وضعتَ درهمًا فضيًّا على السطح وقصعةً من الذهب

تحت؛ قَطْعًا سيكون الذهب أعلى في الأحوال جميعًا. الذهب فوق الدرهم الفضيّ، والعقيق والدّر فوق الذهب، سواء أكانت تحت أم فوق.

وكذلك، النخالة تكون فوق الغربال والطحين يبقى تحت: كيف تكون النّخالة فوق؟ قَطْعًا الطحين (فوق) برغم أنه من جهة الصّورة (تحت). وهكذا تتكلّم على (علوّ) الطحين ليس من جهة الصورة؛ في عالم المعاني، مادام أنّ ذلك الجوهر موجود فيه، فهو (فوق) في الأحوال جميعًا.

الفصل الخامس والعشرون

لولاك ماخلقتُ الأفلاكَ

[١٠٥] دخل شخصٌ، فقال مولانا: إنه محبوبٌ ومتواضعٌ؛ وذلك بسبب جوهره. وهكذا، إذا كان فرعُ الشجرة محمّلاً بالثمار، فإنّ تلك الثمار ستحنيه؛ أمّا الفرع الذي لاثمر عليه فيظلّ رأسُه مرفوعًا، مثل الصيدار. وعندما تتجاوز الثمارُ الحدّ يضعون أعمدة تحت الأفرع، حتى لاتسقط تمامًا. كان الرسولُ ﷺ عظيم التواضع؛ لأنّ ثمار الدنيا والآخرة، وفواكههما كانت متجمّعةً عليه، ولذلك طبعًا كان أكثر تواضعًا من الخلق جميعًا، "ماسبقَ رسولَ الله أحدٌ بالسلام". لم يكن أحدٌ قادرًا على أن يسبق النبيّ ﷺ بالسّلام، لأنّ النبيّ كان يسبقه بسبب التواضع المتناهي ويسلّم عليه. وإذا حدث افتراضًا أنّه لم يسلّم أوّلاً، فقد كان أيضًا متواضعًا وكان يسبق الآخرَ في الحديث، لأنهم تعلّموا السلام منه والاستماع إليه. كلُّ ما يمتلكه الأوّلون والآخرون إنما يمتلكونه بوصفه انعكاسًا له وهم ظلّه. وبرغم أنّ ظِلّ الإنسان يدخل البيتَ قبْلَه، فإنّ الإنسان على الحقيقة هو الذي يسبق، برغم أنّ الظلّ في الصورة هو الذي يسبق. هَبْ أنّ الظلّ يسبق الإنسانَ، فإنّه يظلّ فرعَ الإنسان.

وهذه الأخلاق ليست نتاج المرحلة الراهنة؛ هذه الذرّات موجودة من ذلك الوقت الأزليّ في ذرّات آدم وفي أجزائه - بعضها مضيءٌ، وبعضها نصف

مضيء، وبعضها مظلم. في هذه الساعة تغدو واضحةً، لكنّ هذا الألَق والضياء سابق؛ وذرّته في آدم كانت أكثر صفاءً وإضاءةً وتواضعًا.

بعض الناس ينظر إلى البداية وبعضهم ينظر إلى النهاية. هؤلاء الذين ينظرون إلى النهاية أعزّاء وعظماء؛ لأنّ نظرهم إلى العاقبة والآخرة. وأولئك الذين ينظرون إلى البداية هم الأكثر خصوصية. يقولون: "ماحاجتنا إلى أن ننظر إلى النهاية؟- عندما يُزرع قمحٌ في البداية لن ينبت شعيرٌ في النهاية، وعندما يُزرع شعيرٌ لن ينبت قمح". وهكذا فإنّ نظرهم إلى البداية. وهناك أناسٌ آخرون أكثر خصوصية لاينظرون إلى البداية ولا إلى النهاية؛ البداية والنهاية لاتدخلان عقولهم، إنهم مستغرَقون في الحقّ. وهناك أناس آخرون مستغرَقون في الدنيا، لاينظرون إلى البداية ولا إلى النهاية، في غاية الغفلة؛ وهؤلاء علَفُ جهنّم.

وهكذا يغدو معلومًا أنّ الأصل إنما كان محمّدًا؛ "لولاك ماخلقتُ الأفلاك".

[١٠٦] وكلُّ ما هو موجودٌ، من الشرف والتواضع والحُكْم والمقامات العالية، هو كلّه عطاؤه وظلُّه؛ لأنها كلّها ظهرت منه. وكذلك، كلُّ ماتفعله هذه اليدُ إنما تفعله في ظلِّ العقل؛ لأنّ ظلّ العقل فوقها؛ وبرغم أنه لاظلّ للعقل على الحقيقة، فإن له ظلاً من دون ظلّ، مثلما أنّ للمعنى وجودًا من دون وجود. ولو لم يكن ظلُّ العَقْل فوق الإنسان، لتعطّلت أعضاؤه جميعًا؛ لن تمسك اليدُ على النحو الصحيح، ولن تستطيع القدَمُ أن تتقدّم على الطريق على النحو الصحيح، ولن ترى العينُ شيئًا، وكلّ ماتسمعه الأذن تسمعه على نحو معوَجّ. وهكذا فإنه في ظلّ العقل تؤدّي هذه الأعضاء وظائفها كلّها على نحو صحيح ورائع ولائق. وعلى الحقيقة، فإنّ تلك الأعمال كلّها إنما تجيء من العقل؛ والأعضاء هي الآلة.

وهكذا هناك إنسانٌ عظيم، هو خليفة وقته. وهو مِثْلُ العقل الكلّي، وعقول الناس أعضاؤه. وكلّ ماتفعله يكون في ظلّه.

وإذا ما صدر أيُّ شيء أعوج عنها، فمبعث ذلك أنّ العقل الكليّ قد رفع ظلّه عن رأس العضو. هكذا تكون الحال عندما يبدأ الإنسان بالجنون والقيام بأعمال غير لائقة؛ إذ يغدو معلومًا للجميع أنّ عقله قد ذهب من رأسه ولم يعد يُلقي ظلّه عليه؛ وأنه قد وقع بعيدًا عن ظلّ عقله وملاذ هذا العقل.

العقلُ من جنس المَلَك، وبرغم أنّ للملك صورةً وريشًا وجناحًا وليس للعقل شيءٌ من ذلك، فإنهما على الحقيقة شيء واحد ويفعلان فعلاً واحدًا ولهما طبع واحد. ولا ينبغي أن ينظر الإنسانُ إلى الصورة لأنها على الحقيقة تعمل عملاً واحدًا. فلو أنّك، مثلاً، أذبتَ صورتها لكانت كلُّها عقلاً؛ لايبقى شيءٌ من ريشها وجناحها خارجًا. وهكذا عرفنا أنها كانت كلُّها عقلاً؛ ولكنها جُسِّمت، تسمّى عقلاً مجسَّمًا. مثلما يُصنع طائرٌ من الشمع بريشٍ وجناحين، لكنّه يظلّ شمعًا. ألا ترى عندما تذيبه كيف يغدو ريشُ الطائر وجناحُه ورأسُه وقدمُه كلّها شمعًا؟- لا يبقى منه شيء يمكن عزلُه؛ يتحوّل تمامًا إلى شمع. وهكذا نستيقن أنّه شمع، وأنّ الطائر الذي صُنع من الشمع هو الشمعُ نفسُه، مجسَّمًا ومنقوشًا نقشًا خاصًّا لكنّه شمعٌ لامحالة. ومِثْلُ ذلك أيضًا أنّ الثلج هو
[١٠٧] الماءُ نفسه، ولهذا عندما تذيبه يغدو كلّه ماءً. أمّا قبل أن غدا ثلجًا وكان لايزال ماءً، فإنك لاتستطيع أن تمسكه بيدك ولن يدخل الكفّ؛ وأما عندما يتجمّد فإنك تستطيع أن تمسكه بيدك وأن تضعه في فَضْل ردائك. وهكذا لافرق أعظمُ من هذا؛ يظلّ الثلجُ ماءً، وهما شيء واحد.

وأحوال الإنسان هكذا. أخذوا ريشَ المَلَك، وربطوه بذيل حمار، لكي يتحوّل ذلك الحمارُ بفضل شُعاع المَلَك وصحبته إلى ملَك. لأنه يمكن أن يأخذ مظهرَ المَلَك نفسَه.

أعار العقلُ لعيسى أجنحةً فطار إلى مافوق الفلك،

ولو كان لحمارِهِ نِصْفُ جناحٍ لما بقي في الوَحْل*

فأيّ عجبٍ في أن يغدو حمارُه إنسانًا؟- فالله قدير على كلّ شيء. والطفلُ عندما يولد يكون أسوأ من الحمار؛ يضع يده في النجاسة ويحملها إلى فمه لكي يلعقها؛ والأمّ تضربه وتمنعه. الحمارُ على الأقلّ لديه نوعٌ من التمييز؛ عندما يبول يباعد مابين ساقيه حتى لاينصبّ البولُ عليهما. عندما يكون الحقُّ تعالى قادرًا على أن يجعل من ذلك الطفل الذي هو أسوأ من الحمار إنسانًا، أيُّ عجبٍ في أن يجعل الحمار إنسانًا؟ عند الله لاشيء يبعث على العجب.

يومَ القيامة، كلُّ أعضاء الإنسان، اليد والرجل وغيرهما منفصلاً كلّ منها عن الآخر تتكلّم، والفلاسفة يؤوّلون هذا. يقولون: عندما "تتكلّم" اليدُ، لعلّ علامةً أو أمارةً تظهر على اليد تكون في مكان الكلام مثل نَدْب أو طَفْح. فيمكن بهذا المعنى القولُ: إنّ اليد (تتكلّم)؛ تُخبر، "أكلتُ شيئًا ساخنًا ففعلت يدي هكذا". أو تكون اليدُ مجروحةً أو قد صارت سوداء؛ النّاسُ يقولون: إنّ اليد "تتكلّم" مخبرةً "إنّ سكّينًا جرحتني"، أو "حككتُ نفسي بقدرٍ سوداء". كلام اليد وباقي الأعضاء يكون على هذا النحو. يقول المتكلّمون السنّيّون: "حاشى لله، كلاّ! بل إنّ هذه اليد وهذه القدم المحسوستين ستتكلّمان، مثلما يتكلّم اللّسان. في يوم القيامة سينكر الإنسان، قائلاً: "لم أسرق". تقول اليدُ: "نعم، سرقتَ، أنا أخذتُ، بلسان فصيح".

ذلك الشخص سيلتفت إلى يده وقدمه، قائلاً: "أنتِ لم تكوني تتكلّمين قديمًا؛ فكيف تتكلّمين الآن؟" فتقول:

﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/٢١].

* بيتٌ للحكيم سَنائي الغزنويّ. [المترجم].

[١٠٨] "أنطقني ذلك الـذي أنطـق الأشياء كلّها. أنطـق البـاب والجـدار والحجـر والطّين. ذلك الخالق الذي منح النطق لكلّ إنسـان أنطقني أنا أيضًا". لسانك يجعلك تنطق؛ ولسانُك قطعةُ لحم، واليد قطعةُ لحـم، والكـلام قطعـةُ لحم. هـل أُعطي اللسان عقلاً؟ مما رأيتَه مرّاتٍ ومرّاتٍ، لايبدو ذلك لك مستحيلاً. اللّسان عند الحقّ مجرّد ذريعة؛ إذا أمره بأن يتكلّم تكلّم. وبكـلّ مايـأمره ويحكـم عليـه، يتكلّم.

يأتي الكلامُ تبعًا لمقدرة الإنسان. وكلامُنا شبيهٌ بالماء الذي يُجريه أميرُ المـاء. ماذا يعرف الماءُ عنِ الجهة التي أجراه إليها أميرُ المـاء، إلى مزرعـة الخيـار، أم إلى مزرعة الجزر، أم إلى مزرعة البصل، أم إلى مسكبة الـورد؟ أعـرفُ هـذا: عندمـا يأتي الماءُ غزيرًا، تكون هناك أراضٍ عطشى كثيرة، وإذا مـاأتى قليـلاً عرفـتُ أنّ الأرض قليلـة - بسـتان صغير، أو حـائط صغير: "يلقّـن الحكمـةَ علـى لسـان الواعظين بقدر هِمَمَ المستمعين". أنـا حـذّاء: الجِلْـدُ كثير ووافـر، لكنّـي أقطـع وأخيط بقدر القدم.

أنا ظِـلُّ الإنســان، أنــا مقياسُــه   على قَدْر طُوله يكـون امتـدادي*

في الأرض الكائنُ الحيُّ الصغير الذي يعيش تحت الأرض ويكون في الظـلام، وليس له عينٌ ولا أذن، لأنـه في ذلـك المقام الـذي هـو فيـه لاحاجـة إلى العين والأذن. وعندما لايكون في حاجة إلى العينين، فلِمَ يُعطَى هاتين العينين؟ لايعني هذا أنّ الأعين والآذان التي عند الله قليلة أو أنـه بخيـل، بـل إنّـه يعطي حسـب الحاجة. والشيءُ الذي يُعطى دون حاجةٍ إليه يغـدو عبئًا ثقيـلاً على صاحبـه. حكمةُ الحقّ ولطفُه وكرَمه تعمل على وضع الأوزار ورفع الأثقـال التـي تنقـض الظهور؛ كيف يمكن أن يحمِّل شخصًا حِمْلاً فـوق طاقتـه؟ فمثـلاً عندمـا تعطي الخيّاط آلةَ النّجار من مطرقة ومنشار ومبرد وسـوى ذلـك قـائلاً: "خـذ هـذه"،

---

* بيت من غَزَل لمولانا جلال الدّين. [المترجم].

يتحوّل ذلك إلى عبء ثقيل عليه؛ لأنه لايستطيع أن يعمل بها. وهكذا فإنّه يعطي الشيءَ تبعًا للحاجة إليه، وهذا كلُّ شيء.

ومثلما أنّ تلك الدّيدان تعيش في تلك الظلمة تحت الأرض، هناك أناسٌ قانعون وراضون بالإقامة في ظلمة هذا العالم، وغير محتاجين إلى ذلك العالم ولا
[١٠٩] مشتاقين إلى الكَشْف. وماذا تنفعهم عين البصيرة وأذن الإدراك؟- عملهم في هذا العالم الحسّيّ يزدهر بهذه العين الحسّيّة التي يمتلكونها؛ عندما لايكون لديهم عزم المضيّ إلى ذلك الطّرَف، لِمَ يُعطَون تلك البصيرة التي ستكون عديمة النفع لديهم؟

لاتظنّ أنْ ليس في الطريق سالكون،

كُمّل الصفات [من رجال الحقّ] لاأثرَ لهم أيضًا.

ولأنّك لست مَحْرَمًا لأسرار السّماء،

تخال الآخرين أيضًا مفلسين من ذلك العطاء.

والآن، فإنّ هذا العالم قائمٌ بالغفلة، ولو لم تكن هذه الغفلةُ لما بقي هذا العالم. والشوقُ إلى الحقّ وتذكّر الآخرة والسُّكْر والوجْد معمارُ ذلك العالم. ولو حدثت هذه كلّها لمضينا بكلّيّتنا إلى ذلك العالم، ولم نبقَ هنا.

يريدُ الحقّ تعالى أن نكون هنا؛ لكي يكون هناك عالَمان. وهكذا نَصَّب شريفين [عُمْدتين]، أحدُهما الغفلةُ والآخَرُ اليقظةُ ليبقى المنزلان معمورين.

الفصل السادس والعشرون

كيف يترُكك الشوقُ إلى الحق؟

قال مولانا: لو بدا أنّني مقصّرٌ في الشكر والتعظيم وتقديم الثناء إزاء الألطاف والمساعي والدّعم الذي أظهرتموه لي في الحضور والغياب، لما كان ذلك مبنيًّا على كِبْر أو لامبالاة، أو لأنّني لاأعرف ماينبغي أن يجازى به المنعِم من قول وفعل. لكنّني قد عرفتُ من إيمانكم الصّافي أنكم إنما تفعلون ذلك خالصًا لوجه الله؛ وأنا أيضًا أدَعُ لله أن يشكر سعيكم، مادمتم فعلتم هذه الأشياء من أجله. وإذا شغلتُ نفسي بشكركم وإكرامكم بالقول ومَدْحكم فكأنّ بعضًا من ذلك الأجر الذي سيعطيكم إيّاه الحقّ قد وصل إليكم، وتقدّم وصولُ بعض المكافأة. لأنّ هذه الضروب من التواضع وتقديم الشكر والمديح من حظوظ الدنيا. عندما تصيبك في هذه الدنيا آلامٌ، مثل بذل المال والجاه، فالأفضل أن يكون عِوَضُ ذلك كلّه من الحقّ. ولذلك لاأقدّم الشكر لأنّ تقديم الشكر أمر دنيويّ.

المال لايؤكل، وهو مطلوبٌ لغيره. فبالمال يُشترى الجوادُ والفتاة والغلام، ويُطْلَب المنصبُ، لكي يمدحهم الناس ويثنوا عليهم.

وهكذا الدنيا نفسُها هي التي تقدَّر وتحترم، ويثنى عليها وتُمدح.

كان الشيخ نسّاج البخاريُّ رجلاً عظيمًا وروحيًّا*. وكان العلماء والعظماء يأتون لزيارته، ويجثون على الرُكَب. كان الشيخ أمِّيًّا. كانوا يريدون أن يسمعوا من لسانه تفسير القرآن وأحاديث النبيّ. كان يقول: "أنا لاأعرف العربية. قولوا لي ترجمة الآية أو الحديث، حتى أقول لكم معناه". كانوا يترجمون الآية فيبدأ هو بتفسيرها والتحقيق فيها، وكان يقول: "كان المصطفى ﷺ في مقام كذا عندما قال هذه الآية. وأحوالُ ذلك المقام كانت هكذا". ثم كان يبيّن بالتفصيل مرتبة ذلك المقام والطّرق الموصلة إليه، وكيف عرج النبيُّ إليه.

في يومٍ من الأيام كان عَلَويٌّ يمدح في حضرته أحد القضاة، قائلاً: "ليس في العالم مِثْلُ هذا القاضي. لايأخذ الرشوة، ويعدل بين الخلق من دون مَيْلٍ ومن [١١١] دون محاباة، خالصًا مخلصًا للحقّ". فأجاب الشيخ نسّاج: "ماتقوله من أنه لايأخذ رشوةً كذِبٌ لامحالة. أنت امرؤ علويّ من نسل المصطفى ﷺ تمدحه وتُثني عليه بأنه لايأخذ الرشوة. أليست هذه رشوةً؟- وأيّةُ رشوةٍ ستكون خيرًا من هذه، أنّك أمامه تقدّم مِثْلَ هذا الشّرح له؟".

قال شيخ الإسلام الترمذيّ مرّة: "مبعث أنّ سيّد برهان الدّين قدّس الله سرُّه العظيم بشرح الحقائق جيّدًا أنّه يطالع كتب المشايخ وأسرارهم ومقالاتهم". فقال أحدُهم: "أنتَ أيضًا تطالعها فكيف لاتتكلّم مثلما يتكلّم؟". فأجاب الترمذيّ: "إنه صاحب كدّ ومجاهدة وعمل". فقال الرّجل: "لِمَ لاتقول هذا وتذكر هذا؟- تُعيد فقط ماطالعتَه. ذلك أصْلُ القضية، نحن نتحدّث عن ذلك؛ وأنتَ أيضًا تتحدّث عن ذلك".

---

* كان مولانا جلال الدّين شديدَ الإعجاب بهذا الشيخ، وفيه يقول في غزلٍ:

لو لم يكنْ عِلْمُ الحالِ فوق علم القال فكيف يصير

أعيانُ بخارى عبيدًا للسيّد نُسّاج؟ [المترجم]

لم يكن لهم اهتمامٌ بتلك الدنيا؛ وضعوا قلوبهم تمامًا في هذه الدنيا. جاء بعضهم لأكل الخبز، وبعضهم للتفرج على الخبز. يريدون أن يتعلموا هذه الكلمات ثم يبيعونها. هذه الكلمات مِثْلُ العروس الحسناء؛ لو أنّ عذراء فاتنة شُريت لتُباع ثانيةً، فكيف يمكن أن تحبّ شاريها وتربط قلبها به؟- لأنّ لذّة ذلك التاجر في البيع، إنه عِنّينٌ؛ يشتري الفتاةَ من أجل أن يبيعها، ليس لديه تلك الرّجولية والقوّة لكي يشتري الفتاة له هو.

لو وقع سيفٌ هنديّ جميل بيد مخنّث لأخذه من أجل أن يبيعه؛ ولو وقعت في يده قوسٌ بهلويّة، لكان ذلك أيضًا من أجل البيع؛ لأنه ليس لديه قوّة الذّراع التي تشدّ تلك القوس. يريد تلك القوس من أجل الوتر؛ وليس لديه الاستعداد للوتر. هو عاشق للوتر؛ وعندما يبيع المخنّثُ ذلك يعطي ثمنَه لحمرة الخدّ وزرقته. وماذا سيفعل غير هذا؟- عجيب! عندما يبيعه، ماذا سيشتري خيرًا منه؟

هذه الكلمات سُريانية! انتبه، لاتقل: "فهمتُ". كلّما أكثرتَ من فهمها وضبطها ابتعدتَ عن الفهم كثيرًا. فهْمُ هذا ليس فهمًا. كلُّ بلائك ومُصابك وحرمانك من ذلك الفهم. ذلك الفهمُ قيدٌ لك؛ ينبغي أن تتحرّر من ذلك الفهم حتى تغدو شيئًا.

[١١٢] أنت تقول: "ملأتُ مَشكًا [جِلْدًا] من البحر، البحر لايَخزن في مشكي".

هذا محال. نعم، لو قلتَ: "إنّ مَشكي ضاع في البحر، لكان ذلك ممتازًا؛ ذلك أصْلُ المسألة. العقل رائعٌ جدًّا ومطلوبٌ من أجل أن يأتي. فإذا وصلتَ إلى بابه فطلّق العقلَ؛ لأنّ العقل في هذه الساعة مضرٌّ بك، وهو قاطع طريق. إذا وصلتَ إلى الملِكَ فسلّم نفسك إليه؛ لاعمل لك عندئذٍ بكيف ولماذا.

أنت، مثلاً، لديك قماش غير مفصّل تريد أن تفصّله قَباءً أو جبّةً. العقل جاء بك إلى الخيّاط. حتى تلك اللحظة كان العقل رائعًا؛ لأنه جلب القماش إلى

الخيّاط. الآن، في هذه اللحظة ينبغي أن يطلّق العقلُ، وأنت ينبغي أن تترك تصرّفك أمام الخياط. وعلى النحو نفسه، العقلُ جميلٌ جدًّا للمريض؛ لأنه يأتي به إلى الطبيب، فإذا ماأتى به إلى الطبيب، بعدئذ لايكون لعقله عمل، وينبغي أن يُسلِّم نفسه إلى الطبيب.

يسمع أصحابُك صيحاتِك الخفيّة، ويظهر مَنْ لديه منهم شيءٌ، من لديه جوهر حقيقيٌّ، من لديه روح حسّاس. فوسط قطار الجِمال يظهر ذلك الجمَلُ الثَّمِلُ من عينيه وطريقته في السّير وزَبَده، وغير ذلك.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩].

كلُّ مايشربه جذرُ الشجرة يظهر في رأس الشجرة من فروع وأوراق وثمار. أمّا تلك الشجرة التي لم تشرب وهي ذابلة، فكيف تبقى خفيّة؟ هذه الأصوات العالية التي يُصدرونها- سِرُّ هذا أنّهم يفهمون كلماتٍ كثيرة من كلمة واحدة، ومن حرفٍ واحد يدركون كلّ الإشارات.

مثل شخصٍ قرأ كتابَي (الوسيط) و(المطوّل)، بمجرّد أن يسمع كلمة واحدة من كتاب (التنبيه)، عندما يكون قد قرأ شرحها، يفهم من مسألة واحدةٍ كلَّ المبادئ والمسائل الأصلية. يقدّم ملاحظات على ذلك الحرْف الواحد، أي: "تحتَ هذا أفهم أشياء كثيرة وأرى أشياء كثيرة. وذلك لأنّني عانيتُ في هذا الموضوع، وحوّلتُ اللّيل نهارًا، وقد وجدتُ الكنوز".

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ٩٤/١].

[١١٣] شَرْحُ الصّدر لانهاية له. وعندما يُقرأ ذلك الشّرحُ، يفهم الإنسانُ من الرمز الكثيرَ. ومَنْ لايزال مبتدئًا لايفهم من ذلك اللفظ إلا معنى ذلك اللفظ؛ فأيّ معرفة داخلية ونشوة تكون له؟ يأتي الكلام على قدر المستمع. وإذا لم يَسحب الإنسانُ فإنّ الحكمة أيضًا لاتخرج. وكلّما سحب وامتصّ نزلت الحكمةُ. وإلاّ

فإنه يقول: "عجبًا! لِمَ لايأتي الكلامُ؟" - فتأتي الإجابة: "عجبًا! ولِمَ لاتسحبُ؟"- من لم يُعطِك قوّة الاستماع لم يعط القائلَ أيضًا الدّافعَ إلى الكلام.

في زمان المصطفى ﷺ كان لأحد الكفّار غلامٌ مسلمٌ، صاحبُ جوهر. في السَّحَر أمره سيّدُه: "أحضر الطّاسات، فسأذهب إلى الحمّام". في الطريق الذي مَضَيا فيه كان المصطفى صلواتُ الله عليه وسلامه يصلّي في المسجد مع الصحابة رضوانُ الله عليهم. قال الغلامُ: "سيّدي، لِلّه تعالى خذْ هذه الطّاس لحظةً لكي أصلّي ركعتين، وبعدئذ سأكون في الخدمة". وعندما دخل المسجدَ صلّى.

خرج المصطفى ﷺ وخرج الصحابةُ أيضًا. بقي الغلامُ وحده في المسجد. انتظره سيّدُه حتى منتصف الصباح، وصاح بعدئذٍ: "أيها الغلامُ، اخرجْ!". فأجاب الغلام: "لايتركونني". وعندما تجاوز الأمرُ الحدودَ أدخل السيّدُ رأسَه في المسجد لكي يرى مَنْ ذلك الذي لايأذن للغلام بالذهاب. لم يرَ سوى حذاء وظلّ شخص، لاأحد يتحرّك. فقال: "وبعد ذلك، مَن الذي لايتركك تخرج إليّ؟" أجاب الغلامُ: "الذي لايدَعُك تدخلُ، هو نفسُه الشخصُ الذي لاتراه".

الإنسانُ دائمًا عاشقٌ للشيء الذي لم يرَه ولم يسمع به ولم يفهمه؛ يظلّ يطلبه ليلاً ونهارًا. أنا عبدٌ لذلك الذي لاأراه. ويملّ الإنسان من الشيء الذي فهمه ورآه، ويفرّ منه. ومن هذه الوجهة ينكِر الفلاسفةُ الرّؤيةَ، قائلين: "عندما ترى يمكن أن تشبع وتملّ وهذا غير جائز". ويقول متكلّمو السُّنّة: "إنما يكون ذلك عندما يظهر بلونٍ واحد. إنّه يظهر في كلّ لحظةٍ بمئة لون:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾" [الرحمن: ٥٥/٢٩].

ولو تجلّى معة ألف مرّة لما أشبه تجلٍّ منهـا تجليًـا آخـر. أنـت أيضًـا في هـذه اللحظة ترى الله؛ كلّ لحظةٍ تراه في آثاره وأفعاله متعدّد الألوان. لايشبه فعلٌ من [١١٤] أفعاله الفعلَ الآخر. في وقت السّرور تجلٍّ، وفي وقت البكاء تجلٍّ آخر، وفي وقت الخوف تجلٍّ ثالث، وفي وقت الرّجاء تجلٍّ رابع. ولأنّ أفعال الحقّ وتجلّي أفعاله وآثاره مختلفٌ غاية الاختلاف، ولا يشبه واحدٌ منها الآخر. فإنّ تجلّي ذاته أيضًـا مختلفٌ غاية الاختلاف مثل تجلّي أفعاله: قِسْ ذلك على هذا. أنت أيضًـا، لأنـك جزءٌ من قدرة الحقّ، كلّ لحظةٍ ترتدي ألفَ لونٍ، ولا تستقرّ على واحدٍ منها.

هناك بعضُ العباد الذين ينطلقون من القرآن إلى الحق، وهناك بعـض الخاصّـة الذين يأتون من الحقّ، ويجدون القرآن هنا، ويعرفون أنّ الحقّ أرسله إلى هنا:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩/١٥].

يقول المفسّرون إنّ هذا إنما هو في حقّ القرآن. وهذا أيضًا حسن؛ لكنّه يمكن أيضًا أن يعني: "وضَعْنـا فيـك جوهرًا وطلبًـا وشـوقًا. وإنّـا حافظون لذلك، لانتركه يضيع. بل نأتي به إلى مكان محدد".

قل أنتَ مرّةً: (الله)، ثمّ اثبت حيث تنهلّ عليك كلّ ضروب البلاء.

جاء أحدُهم إلى المصطفى ﷺ فقال: "إنّـي أحبُّـك". فقـال النبيّ: "انتبـه إلى ماتقوله". فأعاد الرّجل: "إنّي أحبُّك". فقـال النبيّ: "انتبـه إلى ماتقولـه". فقـال الرّجل: "إنّي أحبُّك". فقال النبيّ: "الآنَ، اثبتْ، فسأقتلُك بيدي، واوِ عليك"*.

في زمان المصطفى ﷺ، قال أحدُهم: "لاأريد هذا الدّين. واللهِ إنّـي لاأريـد هذا الدّيـن، فأرجعْه. منـذ أن دخلـتُ في دينـك لـم أرتـح يومًـا. ذهـب المالُ،

---

* يبدو مصدر هذه الرّواية ماجاء في إحياء علوم الدّين، ٢٠٩/٤، من قوله: "يروى أنّ رجلاً قال: يارسول الله، إنّي أحبُّك، فقال ﷺ: استعدّ للفقر. فقال: إنّي أحبُّ الله تعالى. فقال: استعدّ للبلاء". [المترجم].

وذهبت الزوجة، وذهب الولدُ، وذهب الاحترامُ، وذهبت الشهرة، فأجاب النبيّ: "حاشى لله! أينما ذهب دينُنا، فإنه لايعود حتى يجتثّ جذورَ الإنسان وينظّف ويطهّر بيتَه.

﴿لا يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩/٥٦].

لأنّه مثل المعشوق. مادام فيك شعرةٌ من حبّ نفسك، لن يظهر لك وجهه، [١١٥] ولن تكون أهلاً لوَصْله، ولن يعطيك إذنًا إليه. ينبغي أن تغدو مهيلاً تمامًا لنفسك وللعالَم، أن تغدو عدوًّا لنفسك؛ لكي يُظهر الحبيبُ وجهه. وهكذا فإنّ ديننا، في أيّ قلب استقرّ، لا يسحب يده من ذلك القلب حتى يأتي بذلك القلب إلى الله ويفصله عن كلّ ماهو غير لائق.

قال الرسولُ ﷺ لذلك الرجل: "لهذا السبب لم تهدأ، ونال منك الغمُّ، لأنّ الاغتمام استفراغٌ وتخلّص من تلك الأفراح الأولى".

مادام ذلك الشيء باقيًا في معدتك، لاتُعطى شيئًا لتأكل. وفي وقت الاستفراغ لايأكل الإنسان شيئًا؛ وعندما ينتهي من الاستفراغ يأكل الطعام. أنت أيضًا اصبر واغتمّ؛ لأنّ الاغتمام استفراغٌ. وبعد الاستفراغ يتقدّم السّرور، السرور الذي لاغمّ فيه، الورد الذي لاشوكَ له، الخمرة التي لاخُمار لها.

وهكذا أنت في هذه الدنيا تطلب ليلاً ونهارًا الهدوءَ والرّاحة. الحصول على ذلك في هذه الدنيا غيرُ ممكن؛ وبرغم ذلك لاتبقى لحظةً واحدة من دون طلب.

ومِثْلُ هذه الرّاحة حتى عندما تجدها في هذه الدنيا كالبرق الذي يمضي ولا يستقرّ. وعندئذٍ، أيّ برق يكون؟ برق مملوء بالبَرَد، مملوء بالمطر، مملوء بالثلج، مملوء بالمِحَن.

مثلاً، عزم شخصٌ على الذهاب إلى أنطالية. يمضي إلى قيصرية مؤمّلاً أن يصل إلى أنطالية، ولا يدَع مساعيه برغم أنه غير ممكن له أن يصل إلى أنطالية

من هذا الطريق. أمّا الرجل الذي يمضي في طريق أنطالية، فبرغم أنه أعرج وضعيف، سيصل إلى هدفه لأنّ تلك هي نهاية الطريق. ولأنّ أعمال الدنيا لاتتيسّر من دون ألم، وأعمالَ الآخرة كذلك، ففي كلّ الأحداث اصرفْ هذا الألم نحو الآخرة حتى لايضيع! أنتَ تقول: "يامحمّد، أبعد التّمنَ عنّي لأنني لاأستطيع أن أجد الرّاحة". كيف يمكن دينَنا أن يدع أيّ إنسانٍ يمضي، قبْلَ أن يوصله إلى الهدف؟.

يُحكى أنّ معلّمًا، بسبب الفقر، كان يرتدي في فصل الشتاء درّاعة كتّان واحدة. وعلى نحو مفاجئ، اختطف السيلُ دبًّا من الجبال، حاملاً إيّاه ورأسُه غاطسٌ في الماء. وإذ رأى الأطفالُ ظهره صاحوا: "ياأستاذ، انظر! - فإنّ جبّة صوفية قد وقعت في الماء، وأنتَ تعاني من البرد. خُذْها".

وبسبب الفاقة الشديدة والبرد وثب الأستاذُ للإمساك بالجبّة، فغرز الدّبّ مخالبه القويّة فيه. وهكذا غدا الأستاذ أسير الدبّ داخل الماء. صرخ الأطفالُ: ياأستاذ، هاتِ الجبّة، وإذا لم تستطع ذلك فدعْها، وتعالَ أنت!. [١١٦]

أجاب الأستاذُ: "أنا أترك الجبة، لكنّ الجبّة لاتتركني. فما الحلُّ؟".

كيف يتركُك الشوقُ إلى الحقّ؟- هاهنا سببٌ للشكر، وهو أننا لسنا بأيدينا نحن، بل نحن بيد الحقّ. مثل الطفل، عندما يكون صغيرًا لايعرف سوى اللّبن وأمّه. الحقّ تعالى لم يتركه أبدًا هناك؛ تقدّم به نحو أكل الخبز واللّعب، وهكذا أيضًا سحبه من هناك حتى أوصله إلى مقام العقل. وهكذا أيضًا في هذه الحال الدنيويّة، التي هي طفولة قياسًا إلى ذلك العالم ونوعٌ آخر من الثّدي- لايتركك الحقّ هناك، بل يوصلك إلى حيث تعلم أنّ هذه كانت طفولةً وليست شيئًا البتّة. "فعجبتُ من قوم يُجرُّون إلى الجنّة بالسلاسل والأغلال"- "خذوه فغلّوه" ثم النعيمَ صلّوه، ثم الوصال صلّوه، ثم الجمَال صلّوه، ثم الكمالَ صلّوه.

الصيّادون لايسحبون السَّمك كلّه دفعة واحدة. عندما تكون الشوكةُ قد دخلت في حلق السّـمكة يسحبونها قليلاً، حتى ينضب دمُها وتغدو هزيلة وضعيفة؛ يتركونها ثانية، ثم يسحبونها ثانية، حتى تغدو ضعيفةً تمامًا. عندما يقع مخلبُ العشق في حلق الإنسان يسحبه الحقّ تعالى بالتدريج حتّى تخرج منه تلك القوى والدماء الفاسدة شيئًا فشيئًا؛ إنّ الله يقبض ويبسط.

"لاإلهَ إلاّ الله" إيمان العامّة. أمّا إيمان الخاصّة فهذا: "لاهو إلا هو". مثلما يرى شخصٌ في المنام أنه صار مَلِكًا، وأنه جالسٌ على العرش، والغلمانُ والحجّاب والأمراء واقفون حوله فيقول: ينبغي أن أكون المَلِكَ، ولا مَلِكَ غيري". يقول هذا في المنام؛ عندما يصحو ولا يرى في البيت أحدًا إلا نفسه، عندئذٍ يقول: "أنا، ولا أحدَ غيري". من أجل هذا تكون العينُ اليقظة ضرورية؛ العينُ النائمة لاتستطيع أن ترى هذا؛ وليست هذه وظيفتها.

كلُّ طائفةٍ تنفي كلّ طائفة أخرى. هؤلاء الناس يقولون: "نحن على حقّ والوَحْيُ لنا نحن، وهم على باطل". وأولئك الناس يقولون عن هؤلاء الشيءَ نفسَه. وهكذا فإنّ الاثنتين والسبعين مِلّةً تنفي كلٌّ منها المِلَلَ الأخرى، وبعدئذٍ تقول متفقةً إنّ الجميع ليس لها وَحْي. [١١٧]

وهكذا فإنها كلّها متفقةٌ على أن لاوَحْيَ لأيٍّ من الملل الأخرى، وهي متفقةٌ أيضًا على أنّ واحدةً فقط من هذه الملل جميعًا لها وحْيٌ. وهكذا فإنّه لابدّ من وجود المؤمن المميّز الكيّس الذي يعرف مَنْ تلك الواحدة.

"المؤمنُ كيّسٌ مميّزٌ فَطِنٌ عاقل". والإيمانُ هو التمييز والإدراك نفسه.

سأل أحدُهم: هؤلاء الذين لايعرفون كثيرون، وأولئك الذين يعرفون قليلون. وإذا ماشغلنا أنفسنا بالتمييز بين أولئك الذين لايعرفون وليس لديهم جوهر، وأولئك الذين يمتلكون ذلك الجوهر فإنّ ذلك سيشغلنا إلى أمد بعيد.

أجاب مولانا: برغم أنّ هؤلاء الذين لايعرفون كثيرون، إذا عرفتَ القليلَ تكون قد عرفتها كلّها. مثلما أنك إذا عرفتَ حفنةَ القمح عرفتَ مخازن العالم. وإذا ذُقتَ قطعة سكّر، وقُدّمت لك مئاتُ الأنواع من الحلوى، عرفتَ من السّكّر الذي ذُقته أنّ السّكر موجودٌ في الحلوى؛ لأنك قد عرفتَ السُّكّر. إذا كان الإنسانُ الذي أكلَ السّكّر من قصَب السّكر (شاخ-بالفارسية) لايعرف السّكّرَ، فقد يكون له قَرْنانِ (دوشاخ-بالفارسيّة).

إذا بدا لكم هذا الكلام مكرّرًا، فإنّ مبعث ذلك أنكم لم تفهموا الدّرْس الأوّل، وهكذا كان لزامًا عليّ أن أقول هذا كلّ يوم. مثلما يُقال من أنّه كان هناك معلّم، وقد حضر ولدٌ لديه لمدّة ثلاثة أشهر ولكنه لم يتجاوز "ألف لاشيء عليه".

جاء والدُ الولد وقال: "أنا لاأقصّر في تقديم الأجر. وإذا كان قد حدث أيّ تقصير فأخبرْني، لكي أزيد الأجر". قال المعلّم: "التقصير ليس من جانبك أنت، لكنّ الطفل لايتجاوز هذه النقطة". دعا الطفلَ ليتقدّم وقال: "قُل: ألف لاشيء عليه". فقال الطفل: "لاشيء عليه"؛ لم يستطع أن يقول: "ألف". قال المعلّم: "الحال ماتراها، فإذا كان لم يتجاوز هذه النقطة، ولم يتعلّم هذا، فكيف أستطيع أن أعطيه دَرْسًا جديدًا؟" قال الأبُ: "الحمدُ لله ربّ العالمين!".

نحن لانقول: "الحمدُ لله ربّ العالمين" لأنّ هناك نقْصًا في الخبز والنعمة. فالخبزُ والنعمةُ لانهاية لهما؛ لكنه لم يبقَ اشتهاء والضيوف شبعون. وبسبب ذلك يُقال: "الحمدُ لله". وهذا الخبزُ وهذه النعمة لايُشبهان خبز الدنيا ونعمتها؛ لأنك حتى من دون اشتهاء تستطيع أن تحمل نفسَك على أكل خبز الدنيا ونعمتها بقدر ماتريد. لأنه جمادٌ، يأتي معك حيثما سحبتَه؛ ليس له روح، ليمنع نفسَه من عدم اللياقة. بخلاف هذه النعمة الإلهيّة التي هي حكمةٌ. إنها نعمةٌ حيّة. وهكذا مادام لديك اشتهاء وتُظهر الرّغبة التامّة، فإنها تأتي إليك وتغدو [١١٨]

غذاء لك. وعندما لايبقى لديك اشتهاء وميل لاتستطيع أن تأكلها وأن تتمثلها بالقوّة. تُخفي وجهها بالحجاب ولا تُظهر لك وجهها.

كان مولانا يحكي قِصص كرامات الأولياء، قال: ليس عجيبًا أو ضربًا من الكرامة أن يذهب الإنسانُ من هنا إلى الكعبة في يوم أو لحظةٍ. مثل هذه الكرامة تحدث أيضًا لريح السَّموم: في يوم أو في لحظة تذهب إلى المكان الذي تشاء. الكرامةُ أن يأتي بك الحقّ من حالٍ دنيا إلى حال عليا، وأن تسافر من هناك إلى هنا، ومن الجهل إلى العقل، ومن الجماد إلى الحياة. مثلما في البدء كنتَ ترابًا، كنتَ جمادًا، فأتى بك إلى عالم النبات؛ ثم سافرتَ من عالم النبات إلى عالم العلَقة والمضغة، ومن العلقة والمضغة إلى عالم الحيوانية، ومن الحيوانية سافرتَ إلى عالم الإنسان. هذه هي الكرامات. الحقّ تعالى قرّب عليك هذا السَّفَر. في هذه المنازل والطُّرق التي مررتَ بها لم يقع في خاطرك ووهمك أنك ستأتي، ومن أيّ طريق جئتَ، وكيف جئتَ وجيء بك؛ وبرغم ذلك ترى على نحو أكثر تحديدًا أنك جئتَ. وهكذا سيؤتى بك إلى مئة عالَم آخر مختلف، فلا تُنكِر، وإذا ماأُخبرتَ عن قصص من ذلك فصدّق.

جيء إلى عمر رضي الله عنه بكأسٍ مملوءة بالسّمّ على سبيل الهديّة. فقال: مافائدةُ هذه؟- فقالوا: فائدتها هي هذه: أنّ الشخص الذي لايُرى مصلحةً في قتله جهارًا يُعطى أثارةً من هذا السّمّ فيموتُ في الخفاء. وإذا كان هناك عدوّ لايمكن قتلُه بالسّيف فبإعطائه شيئًا قليلاً منه يُقتل غيلةً. فقال عمر: "أتيتَ لي بشيءٍ رائع جدًّا. أعطِني إياها لأشرب؛ لأنّ فيّ عدوًّا عظيمًا لايصل إليه السّيف. وليس في العالم من هو أعدى منه لي". فقالوا له: "لاحاجة إلى أن تشرب هذا كلّه دفعةً واحدة. ذرّة واحدة منه كافية. هذه الكأسُ تكفي لمئة ألف شخص". قال عمر: "ذلك العدوّ أيضًا ليس شخصًا واحدًا. إنّه عدوّ بقوّة ألف رجل، وقد صرع مئة ألف شخص". وعند ذلك أخذ تلك الكأس رغبتها

بشربة واحدة. حالاً أسلمتْ تلك الجماعة التي كانت موجودةً هناك كلّها وقالت: "إن دينك حقّ". قال عمر: "أصبحتم كلّكم مسلمين، ولَمّا يُسْلم هذا الكافرُ". [١١٩]

إنّ غرض عمر من ذلك هو الإيمان. وليس إيمان العامّة. وقد كان لديه ذلك الإيمانُ وزيادة؛ كان لديه إيمانُ الصدّيقين. وقد كان يشير إلى إيمان الأنبياء والخاصّة وعين اليقين. وذلك ماكان يؤمّل. مثلما شاع خبرُ الأسد في كلّ أنحاء الدنيا، فقصد رجلٌ مندهشٌ بهذا الخبر ذلك الغِيلَ الذي فيه الأسدُ من مسافة بعيدة لكي يرى ذلك الأسد. وعلى امتداد عام تحمّل مشقّة الطريق متنقلاً من منزلة إلى منزلة. وعندما وصل إلى ذلك الغِيل وشاهد الأسد من بعيد وقف مكانه ولم يستطع الاقتراب. فقالوا له: "إنك تقدّمتَ على هذا الطريق الطويل بسبب عشق هذا الأسد. ولهذا الأسد خاصيّة: أيّ إنسانٍ يقترب منه بشجاعة ويمسحه بيده بحبّ، لايصيبه أيّ أذى من الأسد؛ أمّا إذا كان الشخص خائفًا وهَلِعًا منه فإنّ الأسد يغضب عليه. بل إنه يهاجم بعضهم قائلاً: "ما الظن السيّئ الذي تحمله عنّي؟". من أجل مخلوقٍ كهذا مشيتَ مُجتهدًا لعامٍ كامل. والآن اقتربتَ من الأسد، فما هذا الوقوف؟- تقدّم خطوة!".

ليس لأحدٍ الشجاعةُ لكي يتقدّم خطوةً. الجميع قالوا: "الخطوات التي مشيناها حتى الآن كانت كلّها سهلة. لانستطيع أن نتقدّم خطوة واحدة هنا".

كان مقصودُ عمر من ذلك الإيمان تلك القَدَم، أن تتقدّم خطوةً واحدة في حضور الأسد نحو الأسد. وتلك الخطوةُ شيءٌ عظيم ونادر، وهي من شأن الخاصة والمقرّبين فقط. وهذه هي الخطوة نفسها؛ أمّا الباقي فهو آثارُها. وذلك الإيمان لايصل إلاّ إلى الأنبياء، الذين غسلوا أيديهم من حيواتهم.

الحبيب شيء رائع. لأنّ الحبيب يستمدّ قوّةً وحياةً وزيادةً حتى من خيال حبيبه. فيا للعجب! كان خيالُ ليلى يعطي قوّةً للمجنون وصار غذاءً له. عندما

يكون لخيال المعشوق المجازيّ هـذه القـوة وهـذا التـأثير اللـذان يمكّنانـه مـن أن
[١٢٠] يعطي قوّةً لحبيبه، فلِمَ تستغرب أنّ خيال الحبيب الحقيقي يمنحه القوّة في الحضور والغياب على السّواء؟ أيّ مكانٍ هذا الذي للخيال؟. ذلـك روح كـلّ الحقـائق؛ ذلك لايُدعى خيالاً.

العالَمُ قائمٌ على الخيال. وأنت تسمّي هـذا العـالم حقيقـةً؛ لأنـه يبـدو للنظـر ويُشْعَر به، بينما تسمّي خيالاً تلك المعاني التي ليس هذا العالم سوى فرع لهـا. الأمرُ بالعكس. هذا العالم هو الخيال؛ لأنّ ذلك المعنى يُظهر معهُ مـن مثـل تلـك العوالم، ثم تتلاشـى وتخرب وتتحول إلى عـدم، ثـم يُظْهِـر ثانيـةً عالَمًا جديـدًا أحسن. وذلك العالم لايتقدّم، إذ هو منزّه عـن التجـدّد والقِـدَم. فروعـه متّصفـةٌ بـالقِدَم والجِدّة، أمّـا مُحْـدِثُ هـذه فمنزّهٌ عـن الاثنين كليهمـا، ووراء الاثنـين كليهما.

خطّط المهندسُ بيتًا في عقله، متخيّلاً أنّ عَرْضه سيكون كـذا، وطولـه كـذا، وأرضيّته كذا، وصحنه كذا. لايسمّي النـاسُ ذلـك (خيـالاً)؛ لأنّ تلـك الحقيقـة تتولّد من هذا (الخيال)، وهي فرعٌ له. أمّا إذا تخيّـل إنسـانٌ مـن غير المهندسـين مثلَ هذه الصّورة وتصوّرها في عقلـه، فـإنّ النـاس يسـمّون ذلـك (خيـالاً). وفي العُرْف يقول الناسُ عن مثل هذا الشخص الذي ليس هو بنّاءً وليس لديه علمٌ بذلك: "إنّ لك خيالاً".

الفصل السابع والعشرون

عدم سؤال الفقير

[١٢١] من الخير عدمُ سؤال الفقير؛ لأنّك بذلك تحرّضه وتضطرّه إلى أن يخترع الكذب. لأنّه عندما يسأله جسمانيّ، يكونُ عليه أن يجيب. وهو لايستطيع أن يجيبه إجابةً حقيقيّة، لأنه ليس قابلاً أو لائقًا لمثل هذا الجواب، وفمه وشفتاه غير لائقة لأخذ مثل هذه اللقمة.

وهكذا، على الفقير أن يجيبه على نحو يلائم قدرته وطاقته، وذلك باختراع كِذْبة لكي يتخلّص منه، ورغم أنّ كلّ مايقوله الفقيرُ هو حقّ، ولا يمكن أن يكون كذبًا، فإنه مقارنةً بجوابه السّابق وبيانه وحقيقته كَذِبٌ؛ إلاّ أنه لدى المستمع صحيح نسبيًّا، وأكثر من صحيح.

كان لأحد الدّراويش مُريدٌ، وكان يستجدي له. وفي يوم من الأيام أتى له بطعام من حصيلة الاستجداء. فأكل الدّرويشُ الطعام. وفي الليل احتلم. فسأل المريدَ: "من أين أتيتَ لي بهذا الطعام؟". أجاب المريدُ: "أعطتني إياه فتاةٌ حسناء". ردّ الدّرويش: "والله، لم أحتلم منذ عشرين سنةً. وكان هذا بتأثير لقمتها".

وهكذا ينبغي أن يحترز الدّرويشُ، ولا يأكل لقمةَ أيّ إنسان. ولأنّ الدّرويش لطيفٌ، فإنّ الأشياء تؤثّر فيه وتظهر عليه، مثلما يظهر القليل من السّواد في

الثوب النظيف الأبيض. أمّا الثوبُ الأسود الذي اسودّ من الوسخ لسنواتٍ عديدة وافتقد كلّ بياضه فلو انصبّ عليه ألفُ نوع من الوسخ والنّتن لما ظهر ذلك عليه أمام الناس.

ولأنّ الأمر كذلك، فإنّ الدّرويش لاينبغي أن يَطْعَم لقمة الظالمين وأَكَلَةِ السُّحْت والجسمانيين. لأنّ لقمة مثل هذا الشخص تؤثّر في الدّرويش، والفِكَرُ الفاسدة تظهر بتأثير تلك اللقمة الغريبة- مثلما احتلم الدّرويش من طعام تلك الفتاة. والله أعلم.

الفصل الثامن والعشرون

تخلقوا بأخلاق الله

[١٢٢] تمثّل أورادُ الطالبين والسّالكين في أنهم يُشغلون بالاجتهاد والتعبّد، وقد وزّعوا أوقاتهم على نحو يكون فيه لكلّ عمل وقتُه الخاصّ. وكأنّ لهم رقيبًا يسحبهم إلى ذلك العمل المحدّد بحُكْم العادة. فمثلاً، عندما ينهض مِثْلُ هذا الرّجل في الصباح، تلك الساعةُ تكون أكثر ملاءمةً للعبادة لأنّ النفس تكون أكثر سكونًا وصفاءً؛ وكلّ إنسانٍ عندئذٍ يؤدّي نوعَ العبادة الذي يليق به ويدخل في مجال نفسه الشريفة.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/١٦٥-١٦٦].

هناك مئة ألف صفّ. وكلّما طهُرَ الإنسانُ، ارتقى؛ وكلّما قلّت طهارته تراجع صفّه، "أخّروهنّ من حيث أخّرهنّ الله".

وهذه القصة طويلةٌ، ولا مفرّ من هذا الطّول. وكلُّ من قصّر هذه القصّة قصّر عُمْرَه ونفسَه، إلا مَنْ عصم الله.

وأمّا أورادُ الواصلين فأتكلّم عليها بقدر فهمي. وذلك أنه في الصّباح تأتي الأرواحُ المقدّسة والملائكة المطهّرون وأولئك الخلق الذين "لايعلمهم إلاّ الله" الذين أُخفيت أسماؤهم عن الخلق بسبب الغيرة الشديدة، لزيارتهم.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ [النصر: ١١٠/٢].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ١٣/٢٣].

أنت تُجلَسُ بجانبهم، ولا تَرى، ولا تسمع كلامَهم وتحياتهم وضَحِكَهم، وأيّ عَجَبٍ في هذا؟

عندما يكون الإنسان مريضًا ومشرفًا على الموت، يرى خيالاتٍ لايكون لمن يجلس بجانبه خبرٌ عنها، ولا يسمع ماتقول.

تلك الحقائقُ ألطفُ ألفَ مرّة من هذه الخيالات؛ وهذه الخيالاتُ لايراها الإنسانُ أو يسمعها حتى يكون مريضًا، أما تلك الحقائق فلن يراها قبل موته. مثل هؤلاء الزائرين، الذين يعرفون الأحوال الطاهرة للأولياء وعظمتهم، ويعرفون أنه من أوّل الصباح جاء كثيرٌ من الملائكة والأرواح الطاهرة ليخدموا
[١٢٣] الشيخ، يتردّدون على نحو لاحدود له ؛ لأنهم لاينبغي أن يدخلوا وسط مثل هذه الأوراد، خشية أن يتضايق الشيخ.

مثلما أنّ الغلمان يكونون حاضرين كلَّ صباح عند باب قصر الملِك، ويتمثّل وِرْدُهم في أنّ لكلّ منهم مقامًا معلومًا، وخدمةً معلومةً، وعبادة معلومة.

بعضهم يخدم من بعيد، ولا ينظر الملك إليهم ولا ينتبه إليهم. لكنّ عبيد الملك يرون أنّ فلانًا خدم؛ فإذا مارحل الملِك، فإنّ وِرده يتمثّل في أنّ العبيد يأتون لخدمته من كلّ طرفٍ؛ لأنه لم تبق هناك عبوديّة. تحقّقْ: "تخلّقوا بأخلاق الله". تحقّق: "كنتُ له سَمْعًا وبَصَرًا".

وهذا مقامٌ عظيمٌ جدًّا، لايمكن وصفُه على الحقيقة؛ لأنّ عظمته لايمكن فهمها بالعين والظاء والميم والتاء. ولو أنّ أثارةً من عظمته نفذت، لما بقي حرف (العَين) ولا نخرجُ حرف العين، لما بقيت يدٌ ولا همّةٌ. بسبب جيوش الأنوار تخرب مدينةُ الوجود.

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٢٧/٣٤].

يدخل جملٌ بيتًا صغيرًا، فيخرب، لكنّه في ذلك الخراب ألفُ كنزٍ.

يكون الكنزُ في الموضع الخرب

وفي مواطن العمران يظلّ الكلبُ كلبا*

وإذا كنتُ قد شرحتُ بمثل هذا الطّول مقامَ السالكين، فكيف أشرح أحوال الواصلين؟- وليس لهذه نهاية؛ أمّا مقام السالكين فله نهاية.

نهاية السالكين هي الوصال، فما ينبغي أن تكون نهاية الواصلين، ذلك الوصال الذي لايمكن أن يكون له فِراق؟ لم يحدث البتّة أن عاد عنبٌ ناضجٌ حِصْرِمًا، ولم يحدث البتّة أن عادت فاكهةٌ ناضجة فجّةً.

أحرّمُ الكلامَ على هذه الأشياء مع الناس،

وعندما يُذْكَر اسمُك، أطيل الكلام

والله، لاأطيل، بل أقصّر.

أتجرّعُ الدّمَ وتخاله أنتَ خمرةً

وتأخذ روحي، وتخال أنك أعطيتَ

كلُّ من قصّر هذه القصّة، كان كمن ترك الطريق المستقيم، ولزم طريق البيداء المهلك، قائلاً: "شجرةٌ كذا قريبةٌ".

---

* بيت للحكيم سنائي. [المترجم].

الفصل التاسع والعشرون

التّرابُ إلى التّراب

والرّوحُ إلى الرّوح*

[١٢٤] قال الجرّاحُ المسيحيّ: شرب عندي طائفةٌ من أصحاب الشيخ صدر الدّين، وقالوا لي: كان عيسى هو الله، كما تزعمون، ونحن نعرف أنّ ذاك حقّ، لكن نكتم وننكر قصدًا إلى المحافظة على المِلّة.

قال مولانا رضي الله عنه: كذب عدوّ الله، وحاشى لله؛ هذا كلامُ من سَكِرَ من نبيذ الشيطان الضالّ الذليل المذَلّ المطرود من جناب الحقّ، وكيف يجوز أن يكون شخص ضعيف يهرب من مكر اليهود من بقعة إلى بقعة وصورتُه أقلّ من ذراعين حافظًا لسبع سماوات ثخانةُ كلّ سماء خمس مئة عام وبين كلّ سماء وسماء خمس مئة عام، ثخانة كلّ أرض خمس مئة عام، وبين كلّ أرض وأرض خمس مئة عام، وتحت العرش بحرٌ عمقُه هكذا. ولله مُلْك ذاك البحر إلى كعبه وأضعاف هذا. فكيف يعترف عقلك بأن يكون مصرّفها ومدبّرها أضعف الصّوَر. ثم قَبْل عيسى، من كان خالق السماوات والأرض سبحانه عمّا يقول الظالمون.

---

* هذا الفصل بالعربية في الأصل. [المترجم].

قال المسيحيّ: التراب مضى إلى التراب، والرّوح الطاهر إلى الـرّوح الطـاهر. قال: إذا كان روح عيسى هو الله فـأين راحَ روحُـه؟- وإنما يـروح الرّوح إلى أصله وخالقه، فإذا كان الأصلُ هو والخالق فأين يروح؟

قال المسيحيّ: نحن وجدنا هكذا فاتّخذناه مِلّةً.

قلتُ: أنت إذا وجدتَ وورثتَ من تَرِكة أبيك ذهبًـا قلبًـا [زائفًـا] أي أسـود فاسـدًا لاتبدّله بذهب صحيح المعيار صافٍ من الغـلّ والغشّ، بـل تـأخذ القلب وتقول: وجدنا هذا. أو بقيت من أبيك يدٌ شلاّء، ووجدتَ دواء وطبيبًـا يصلـح يدَك الشلاّء، ماتقبل وتقول وجدتُ يدي هكذا شلاّء، فـلا أرغـب في تبديلهـا، أو وجدتَ ماءً مالحًا في ضيعةٍ مات فيهـا أبـوك، وتربّيـتَ فيهـا، ثـم هُديـتَ إلى ضيعة أخرى ماؤها عذبٌ ونباتُها حلوٌ وأهلها أصحّاء، مـاترغب في النّقْـل إليهـا
(١٢٥) والشّرب من الماء العذب الذي يذهب عنـك الأمـراض والعِلـل، بـل تقـول: إنـا وجدنا تلك الضيعة وماءها المالح المورث للعِلـل فنتمسّـك بمـا وجدنـا. حاشى، لايفعل هذا ولا يقول هذا مـن كـان عـاقلاً أو ذا حـسٍّ صحيـح. إنّ الله تعـالى أعطاك عقلاً على حِدَةٍ غير عقل أبيك، ونظرًا على حدةٍ غير نظر أبيك، وتمييزًا على حدةٍ، فلِمَ تعطّل نظرك وعقلك وتتبع عقلاً يرديك ولا يهديك؟

يورتاش كان أبوه إسكافًا، فلما وصل إلى حضرة السلطان وعُلّم آدابَ الملـوك والسـلاح داريّة، وأعطاه أعلى المناصب، ماقال: إنّا وجدنـا آباءنـا أسـاكفة، فـلا نريد هذه المرتبة. بل: أعطِني، أيها السـلطانُ، دكّانًا في السّوق أتعاني الإسكافيّة.

بل الكلبُ مع كمال خسّـته إذا عُلّـم الصّيـدَ وصـار صيّـادًا للسـلطان نسـي ماوجد من أبيه وأمّه، وهو السُّكنى في المتبن والخربات والحرص على الجِيَف بـل يتبع خيل السلطان ويتابع الصّيود. وكـذا البـازُ إذا أدّبه السـلطانُ لايقـول: إنّـا وجدنا من آبائنا قفار الجبال وأكْل الميتات، فلا نلتفـت إلى طبـل السـلطان، ولا

إلى صيده. فإذا كان عقلُ الحيوان يتشبّث بما وجده أحسنَ ممّا ورث من أبويه فمن السّمج الفاحش أن يكون الإنسان، الذي فُضّل على أهل الأرض بالعقل والتمييز، أقلَّ من الحيوان. نعوذ بالله من ذلك.

نعم، يصحُّ أن يقول: إنّ ربّ عيسى عليه السلام أعزّ عيسى وقرّبه؛ فمن خدَمَه فقد خدم الرّب، ومن أطاعه فقد أطاع الرّبّ. فإذا بعث الله نبيًّا أفضل من عيسى وأظهر على يده ماأظهر على يد عيسى وزيادة، فيجب متابعةُ ذلك النبيّ، لله تعالى، لا لعَيْنِه. ولا يُعبد لعينه إلاّ الله، ولا يُحَبّ إلا الله. وإنّما يُحَبّ غيرُ الله لله تعالى:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/٤٢].

يعني منتهى أن تُحبّ الشيءَ لغيره وتطلبه لغيره حتى ينتهي إلى الله فتحبّه لعينه. [شعر]:

إلبسُ الكعبة كِساءً من الهوس،

ياءُ بيتي كافيةٌ لتزيين الكعبة*

[وكما قيل]:

ليس التكحّلُ في العينَيْنِ كالكَحَلِ**

كما أنّ خلاقة الثياب ورثاثتها تكتم لطف الغناء والاحتشام، فكذلك جودة الثياب وحسن الكسوة تكتم سيماء الفقراء وجمالَهم وكمالهم. إذا تخرّق ثوبُ الفقير انفتح قلبه.

---

* هذا البيت من ((سَيْر العباد)) للحكيم سَنائي. [المترجم].

** عجز بيت لأبي الطيّب المتنبي، وتمام البيت هكذا:

لأنّ حِلمَكَ حِلْمٌ لا تكلّفُه ليسَ التكحّلُ في العينينِ كالكَحَلِ

الفصل الثلاثون

أنا الضّحوكُ القتول

[١٢٦] هناك رأسٌ يزيَّن بقبّعة ذهبيّة، وهناك رأس يغطّي جمالُ ضفائره بقبعةٍ وتاجٍ مرصّع. ذلك لأنّ ضفائر الحِسان تجذب العشق، والعشق هو محلّ جلوس القلوب؛ والتّاج الذهبيّ جماد، ولابِسُه هو معشوق الفؤاد. بحثْنا في كلّ مكانٍ عن خاتم سليمان، عليه السلام، فوجدناه في الفقر. وفي هذه الفاتنة أيضًا جعلنا مساكنتنا؛ ولم تُسرَّ بشيءٍ بقدر مارضيتْ بهذا.

وأخيرًا، أنا إِلْفُ البقايا، منذ الصِّغر كان هذا عملي. أعرف أنّ هذا يُزيل الموانع، ويحرق الحجب، وهذا أصلُ كلّ الطاعات، والباقي فروع. إذا لم تقطع حَلْق الخروف، فماذا ينفع أن تنفخ في كُراعه؟

يقود الصّوم نحو العدم، حيث هناك كلُّ الطيّبات.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٩].

كلّ ما في السّوق دكّانٌ أو مشربٌ أو متاع، أو حِرْفة، ورأسُ الخيط لكلٍّ منها حاجةٌ في نفس الإنسان، ورأسُ الخيط ذلك خفيٌّ، وإذا لم تظهر الحاجة إلى ذلك الشيء، فإنّ رأس الخيط لايتحرّك ولا يظهر. وكذا الحال مع كلّ ملّة، وكلّ دين،

وكلّ كرامة ومعجزة، وكلّ أحوال الأنبياء، رأسُ خيط كلٍّ من هذه موجودٌ في روح الإنسان، إذا لم تظهر الحاجةُ، فلن يتحرّك رأس الخيط ولن يظهر.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢/٣٦].

قال مولانا: هل فاعلُ الخير والشرّ واحدٌ أو اثنان؟- الجواب، من وجهة أنّهما أثناء التردّد يكونان في مناظرة هما اثنان قَطْعًا؛ لأنّ الشخص الواحد لايختلف مع نفسه. ومن وجهة أنّ الشرّ لاينفك عن الخير - لأنّ الخير هو تَرْكُ الشرّ، وتركُ الشرّ محالٌ دون شرّ، والدليل على أنّ الخير هو تَرْكُ الشرّ أنّه إذا لم يكن هناك داعٍ إلى الشرّ فلن يكون هناك تركٌ للخير - من هذه الوجهة ليسا اثنين، مثلما قال المجوس من أنّ (يَزْدان) خالقُ الخير و(أهْرِمَنْ) خالقُ الشرّ والأشياء المكروهة. ونقول في الردّ على ذلك: إنّ المحبوبات غير منفصلة عن
(١٢٧) المكروهات؛ لأنّ المحبوب دون وجود المكروه مُحالٌ لأنّ المحبوب هو زوال المكروه، وزوال المكروه دون وجود المكروه محال؛ فالسّرور هو زوال الغمّ، وزوالُ الغمّ دون غمّ محال. وهكذا فهما شيء واحد لايتجزّأ.

قلتُ: إذا لم يفنَ الشيءُ لم تظهر فائدتُه للعيان، مِثل الكلام الذي إذا لم تفنَ حروفُه في النطق فلن تصل فائدتُه إلى المستمع. كلُّ من يقول شرًّا في العارف يقول عنه خيرًا على الحقيقة؛ لأنّ العارف يفرّ من الصفة التي من أجلها يقع عليه اللّومُ. العارف عدوّ تلك الصفة؛ وهكذا فإنّ ذامّ تلك الصفة ذامٌّ لعدوّ العارف ومادحٌ للعارف؛ لأنّ العارف يفرّ من مثل هذا الشيء المذموم، والفارُّ من المذموم محمودٌ "وبضدّها تتبيّن الأشياءُ". وهكذا فإنّ العارف يعرف أنّ العائب ليس عدوّه وذامَّه على الحقيقة.

أنا مِثْلُ حديقةٍ نضرةٍ بجدار، وفوق ذلك الجدار كلُّ أنواع الحَدَث والأشواك. كلُّ مارٍّ لايرى الحديقة، يرى ذلك الجدار وقذارته، فيذمّها، فلِمَ إذن تغضبُ الحديقةُ منه؟ إلاّ أنّ ذمّه عملٌ ضارٌّ به؛ لأنه ينبغي أن يتحمّل الجدار لكي يصل إلى الحديقة. وهكذا فإنّه بذمّ هذا الجدار يظلّ بعيدًا عن الحديقة؛ ومن ثم يكون قد أهلك نفسَه. ولذلك قال المصطفى صلواتُ الله عليه: "أنا الضّحوكُ القتولُ"، يعني: "ليس لي عدوّ"- حتى يكون غاضبًا في قهره. يقتل الكافرَ بطريقةٍ واحدةٍ، حتى لايقتل الكافرُ نفسَه بمئة طريقة. وهكذا يكون ضحوكًا في هذا القتل.

الفصل الحادي والثلاثون

أريدُ أن لا أريد

[١٢٨] دائمًا يكون الشّحْنة طالبًا للّصوص لكي يمسك بهم، ويكون اللّصوص فارّين منه، وقد وقعت هذه الطُّرفة عندما حدث أن يكون اللّصّ طالبًا للشّحنة وعازمًا على الإمساك به ووضْعه بين يديه.

قال الحقُّ تعالى لأبي يزيد: "ياأبا يزيد، ماذا تريد؟"- فقال: "أريدُ أن لاأريد".

والآن فإنّ الإنسان له حالان لاأكثر: يريد أو لايريد. وعدمُ الإرادة البتّة ليس صفةً إنسانيةً؛ لأنّ الإنسان يغدو عندئذٍ فارغًا من نفسه، ومنعدِمًا تمامًا؛ لأنـه إذا كان موجودًا كانت تلك الصفة الإنسانية موجودةً فيه: يريد أو لايريـد. ولكن الحقّ تعالى أراد أن يكمّل أبا يزيد ويجعله شيخًا كاملاً حتى تحصل له بعد ذلك تلك الحالُ التي لامجال فيها للثنائية والفِراق، ويكون وصْلٌ كلّـي واتحاد. ذلك أنّ الآلام كلّها تنبعث من أنك تريد شيئًا ثـم لايتيسّر ذلك الشيءُ. وعندما لاتريد لايبقى هناك ألم.

الناسُ منقسمون على أصناف مختلفة، ولهـم في هـذا الطريق مراتب مختلفة أيضًا. بعضهم يصلون بالجهد والسعي إلى أنّ الذي يريدونه في قلوبهم وفكرهم لايأتون به إلى الفعل. وهذا في نطاق مقدور البشر.

أمّا أن لاتدخل في القلب دغدغةٌ للإرادةِ والفكر فليس في مقدور الإنسان. وذلك لاتقتلعُه إلا جذبةٌ من جذبات الحقّ.

﴿وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١/١٧].

"ادخلْ يامؤمنُ فإنّ نُـورَك أطفأ ناري". وعندما يكون إيمان المؤمن تامًّا وحقيقيًّا فإنّه يفعل مايفعله الحقُّ سواءٌ أكان ذلك جذبَه هو أم جَذْب الحقّ.

وما يُقال من أنّه بعد المصطفى ﷺ والرّسل عليهم السّلام لاينزل وَحْيٌ على غيرهم، لِمَ لاينزل؟- الحقيقة أنه ينزل، إلاّ أنّه لايسمّى وحيًا. وهذا ماعناه النبيّ عندما قال: "المؤمن ينظر بنور الله". وعندما ينظر بنور الله يرى الأشياء كلّها؛ الأوّل والآخر، الغائب والحاضر؛ لأنّه كيف يخفى شيءٌ عن نور الله؟ وإذا خفي شيءٌ فليس ذلك بنور الله. وهكذا فالمعنى الحقيقيّ هو وحْيٌ، برغم أنه لايسمّى وحيًا.

عندما أصبح عثمانُ رضي الله عنه خليفةً ذهب إلى المنبر. كان الناس
[١٢٩] ينتظرون ماذا سيقول. صمتَ ولم يقل شيئًا؛ وكان ينظر إلى الناس، فاستبدّت بهم حالٌ من الوَجْد أفقدتْهم القدرة على الخروج، ولم يعرف الواحد منهم أين يجلس الآخر. حتّى إنّ مئة تذكِرة ووعْظٍ وخطبة ليس في مقدورها أن تولّد في أنفسهم مِثْلَ هذه الحال الرائعة؛ وحصلت لهم الفوائدُ وكُشفت لهم الأسرارُ التي لاتحصل بكثير من العمل والوعظ. ظلّ ينظر إليهم هذه النظرة حتى آخر المجلس دون أن ينبس ببنت شفة. وعندما همّ بالنزول قال: "إنّكم إلى إمامٍ فعّال أحوجُ منكم إلى إمام قوّال". وقد قال حقًّا. إذا كان المرادُ من القول هو الفائدة والرّقّة وتبديل الأخلاق، فإنّ ذلك قد حصل دون قول أضعافَ ماحصل بالقول. وهكذا فإنّ ماقاله عثمان هو عين الصّواب. لنعدْ: قال عن نفسه إنّه فعّال، وعندما كان على المنبر لم يفعل فعلاً ظاهرًا يمكن رؤيته بالعين، لم يصلِّ،

لم يحجّ، لم يتصدّق، لم يذكر الله، حتى الخطبة لم يخطب. وهكذا نستخلص أنّ "العمل" و"الفعل" ليسا مقصورين على هذه الصورة؛ بل إنّ هذه الصُّوَر هي صورة ذلك "العمل" وذلك العمل هو الرّوح.

قال المصطفى ﷺ: "أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم". عندما ينظر إنسانٌ إلى النجم ويجد طريقه به، لايتكلّم النجمُ أيّة كلمة مع ذلك الإنسان؛ لكنه بمجرّد أن ينظر إلى النجم يعرف الطريق من عدم الطريق ويصل إلى منزله. وعلى النحو نفسه، يكون ممكنًا أن تنظر إلى أولياء الحقّ، فيتصرّفون فيك؛ من دون قول، ومن دون سؤال، ومن دون قيلٍ وقالٍ يحصل المقصود وتُوصَل إلى منزل الوصل.

فمنْ شاء فلينظرْ إليّ فمنظري   نذيرٌ إلى مَنْ ظنّ أنّ الهوى سَهْلٌ*

في عالم الحقّ لاشيء أصعب من تحمّل المُحال. هَبْ أنك مثلاً قرأت كتابًا نصحّحتَه وضبطتَه وأعربتَه. وكان أحدهم جالسًا بجانبك فقرأ ذلك الكتاب
(١٣٠) قراءة خاطئة. أتستطيعُ أن تتحمّل ذلك منه؟ غير ممكن. وإذا لم تقرأه فلن يختلف عليك الأمرُ، سواءٌ لديك أقرأه قراءةً خاطئة أم قراءة صحيحة؛ لأنك لاتستطيع التمييز بين الخاطئ والصحيح. وهكذا فإنّ تحمّل المُحال مجاهدة عظيمة.

الأنبياءُ والأولياء لايُعفون أنفسهم من المجاهدة. المجاهدة الأولى في طلبهم تمثّلت في قتل النفس وترك الرّغائب والشهوات. وذلك هو الجهادُ الأكبر. وعندما تحقّقوا ووصلوا وأقاموا في مقام الأمن انكشف لهم الخاطئ والصحيح. يعرفون ويرون الصحيح من الخاطئ، ويظلّون في مجاهدة عظيمة؛ لأنّ هؤلاء الخلق يفعلون الأشياء كلّها على نحو خاطئ، وهم يرون هذا ويتحمّلون. لأنّهم إذا لم يفعلوا هكذا، وصرّحوا وبيّنوا خطأ الخلق، فلن يقف أمامهم أحدٌ ولن

* لأبي الطيّب المتنبّي. [المترجم].

يعلّم أحدٌ عليهم. لكنّ الحقّ تعالى منحهم قدرةً عظيمةً وصبرًا على التحمّل؛ من مئة خطأ يذكرون خطأ واحدًا، لكي لايشقّ ذلك على الإنسان. ويخفون بقيّة أخطائه؛ بل يمدحونه قائلين: "إنّ خطأك صحيح"، حتى يدفعوا عنه هذه الأخطاء بالتدريج، واحدًا إثر الآخر. وهكذا يعلّم المعلّمُ الطفلَ الخطّ. عندما ينتهي من كتابة سطر يكتب الطفلُ سطرًا، ويعرضه على المعلّم. في نظر المعلّم السّطرُ الذي كتبه الطفلُ كلّه خطأ وسيّئ. فيقول له بطريق المصانعة والمداراة: "إنّ ماكتبته كلّه رائع جدًّا، وقد جوّدت الكتابة. أحسنتَ، أحسنتَ. لكنّك لم تكتب هذا الحرف جيّدًا، هكذا ينبغي أن يكون، وذلك الحرف أيضًا كتبتَه كتابةً سيّئةً". يسمّي المعلّمُ عددًا من الأحرف في ذلك السطر لم يُحسن الطفل كتابتها، ويبيّن له كيف ينبغي أن تُكتب، ويُثني على الباقي، حتى لاينفر قلبُه، ويقوى ماعنده من ضعف بذلك الاستحسان. وهكذا يعلّم بالتدريج، ويحصل على العون.

إن شاء الله تعالى، لدينا أملٌ في أن ييسّر الحقّ تعالى للأمير مقاصده وكلّ مافي قلبه. وتلك الحظوظ الطيّبة التي لم تخطر له على بال ولا يعرف ماهي لكي تتوق إليها نفسُه- نأمل أيضًا أن تتحقّق. لأنه عندما يراها وتصل إليه تلك العطايا سيخجل من هذه الرّغائب والأمنيات الأولى. "مثل هذا الشيء متاحٌ لي. وبوجود مثل هذه الحظوة والنّعمة كيف كنتُ أتمنّى تلك الأشياء؟- وهكذا سيخجل. يسمّى ذلك (عطاءً) وهو لايقع في وَهْم الإنسان ولا يمرّ في خاطره. لأنّ كلّ مايمرّ في وهم الإنسان يكون على قدر همّته وعلى قدر استطاعته. أمّا عطاء الحقّ فعلى قدر قدرة الحقّ. وهكذا يكون (العطاء) لائقًا بالحقّ، وليس بوَهْم العبد وهِمّته؛ ومن هنا الحديثُ: "فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر": ماتتوقعه من عطائي رأته الأعينُ وسمعت به الآذانُ، وتُصوّر مثلُه في القلوب. أمّا عطائي فيتجاوز ذلك كلّه.

الفصل الثاني والثلاثون

شيخُ اليقين

صفةُ اليقين هي الشيخُ الكامل، والظّنون الحسنة والصحيحة هي مريدوه تبعًا لدرجاتها المختلفة: الظنّ وأغلب الظنّ وأغلب أغلب الظنّ، وهلمّ جرًّا. وكلُّ ظنّ عندما يزداد ويقوى يقترب من اليقين ويبتعد عن الإنكار. "لو وُزِن إيمانُ أبي بكر..". كلّ الظنون الصحيحة ترضع الحليب من صدر اليقين، وتتزايد. وذلك الشُّرْبُ للحليب والتزايد علامةٌ على حصول زيادةٍ في الظنّ من خلال العِلْم والعمل، حتى يغدو كلُّ ظنّ يقينًا ويفنى تمامًا في اليقين. لأنها عندما تغدو يقينًا، لايبقى ثمّة ظنّ.

وهذا الشيخُ ومريدوه الظاهرون في عالم الأجسام صُوَرٌ لشيخ اليقين، ومريدوه دليلٌ على أنّ هذه الصّور تتبدّل دورًا بعد دور وقرنًا بعد قرن؛ أمّا شيخ اليقين وأبناؤه، التي هي الظنون الصحيحة، فقائمون في العالم على مرّ الأدوار والقرون من غير تبدّل.

كذلك، فإنّ الظنون الخاطئة الضّالّة المنكيرة هي طريدةُ شيخ اليقين ومرفوضة لديه. وكلَّ يومٍ تبتعد عنه، وينحطّ قدرُها لديه؛ لأنّها كلَّ يوم تزداد إدراكًا لذلك الذي يضاعف الظنّ السيّئ ويزيده.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ [البقرة: ٢/١٠].

السّادةُ يأكلون الرُّطبَ والأسرى يأكلون الشّوك. قال الله تعالى:

﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧/٨٨].

[وقال]:

﴿إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ [مريم: ٦٠/١٩].

﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠/٢٥].

كلُّ تحصيلٍ فعَلَه مثلُ ذلك الإنسان في إفساد الظنّ يغدو في هذه الساعة قوّةً في إصلاح الظنّ. وهكذا تاب اللصّ الماكر وصار شِحْنةً. كلّ خُدَع اللصّ التي مارسها تغدو في هذه الساعة قوّة في الإحسان والعدل. ويكون أفضل من كلّ الشّحَن الآخرين الذين لم يسرقوا في البدء؛ لأنّ الشّحنة الذي اقترف أعمال اللصوصية يعرف طرائق اللصوص وأساليبهم؛ أحوال اللصوص غير خفيّة عنه. ومِثْلُ هذا الشخص لو صار شيخًا، لكان كاملاً، رئيس العالم ومهديّ الزمان.

الفصل الثالث والثلاثون

لايكون طالبُ الخلاصِ طالبًا للقيد*

وقــــالوا تجنّبنـــا ولا تقربنّـــا   فكيف وأنتـمْ حـاجتي أتجنّـبُ

ينبغي معرفةُ أنّ كل إنسانٍ، أينما كان، يكون ملتصقًا بحاجته، لاينفكّ عنها. وكلُّ حيوانٍ ملتصقٌ بحاجته، ملازمٌ لها، وهي "أقرب إليه من أبيه وأمّه". وتلـك الحاجةُ قيدٌ للإنسان يجرّه إلى هذه الناحية وإلى تلك مثل المِهار** .

ومحال أن يقيّد الإنسانُ نفسَه؛ لأنه يكون طالبًا للخلاص من القيـد، ومُحـالٌ أن يكون طالبُ الخلاص طالبًا لقيد. ولذلك يكون لزامًا أن يكون شخصٌ آخر قد قيّده. فهو، مثلاً، طالبٌ للصحّة؛ ولذلك لايمكن أن يكون قد أمرض نفسـه؛ لأنه مُحالٌ أن يكون في الوقت نفسه طالبًا للمرض وطالبًا لصحّته.

وإذا ماكان الإنسانُ ملتصقًا بحاجتـه، فإنـه سيلتصق أيضًـا بمن يعطيه تلـك الحاجة؛ عندما يكون ملازمًا دائمًا مِهارَه يكون ملازمًا دائمًا من يجذب مِهـاره. لكنّ نظره إلى المِهارِ؛ ولذلك يكون مجرّدًا من العِزّ والقوّة؛ ولو أنـه وضـع نظره

---

* هذا الفصل بالعربية في الأصل [المترجم].

** المِهار: هو العودُ يجعل في أنف البُختيّ (الجمل) ويربط بالحبل؛ لجرّ الجمل بسهولة. [المترجم].

على حاذب المِهار لتخلّص من المِهار؛ وهكذا يكون مِهارُه حاذبَ مِهاره. لأنّه وُضع له المِهار لكي لايلحق حاذب المِهار دون مِهار. نظره ليس إلى حاذب المِهار، وهكذا قطعًا.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ٦٨/١٦].

"سنضع مِهارًا في أنفه ونجذبه إلى غير مايريد، إذا كان لايتابعنا دون مِهار".

يقولون هل بعدَ الثمانين ملعبٌ فقلتُ وهَلْ قَبْلَ الثمانينَ ملعبُ

يعطي الحقُّ تعالى من فضله الشيوخَ صبوةً لايعرف عنها الصِّبيان شيئًا. ذلك لأنّ الصّبوة تجلب النّضارة وتجعل الإنسانَ يقفز ويضحك وتعطيه الرّغبةَ في اللّعب؛ لأنّه يرى الدنيا جديدةً ولا يملّ من الدنيا. وعندما يرى مِثْلُ هذا الشيخ الدنيا جديدةً أيضًا، يُعطى الرّغبة في اللّعب فيقفز، وينمو جِلْدُه ولحمُه.

لقد حلّ حطبُ الشّيب إن كان كلّما بدتْ شَيْبةٌ يعدو من اللّهو مركبُ

وهكذا فإنّ حلال الشيخوخة يزيد على حلال الحقّ؛ لأنّه في الرّبيع يظهر حلالُ الحقّ، وفي الخريف تتغلّب عليه الشيخوخةُ غير تاركة طبيعتها الخريفية. وهكذا فإنّ ضعْف الرّبيع فضلٌ من الحقّ؛ لأنه مع كلّ سقوط للأسنان تتضاءل ابتسامةُ ربيع الحق، ومع كلّ شعرةٍ بيضاء تضيع نضارةُ فضل الحقّ، ومع كلّ بكاء من مطر الخريف ينقص بستان الحقائق. تعالى الله عما يقول الظالمون.

الفصل الرّابع والثلاثون

أرض الله واسعةٌ*

رأيتُه في صورة حيوان وحشيّ، وعليه جلدُ الثعلب. فقصدتُ أخْذَه وهو على غرفة صغيرة ينظر من الدّرج. فرفع يده، وقفز كذا وكذا. ثم رأيتُ جلال التبريزيّ عنده على صورة دابّة. فنفر، فأخذتُه، وهو يقصد أن يعضّني. فوضعتُ رأسَه تحت قدمي وعصرتُه عَصْرًا كثيرًا، حتى خرج كلُّ ما كان فيه. ثم نظرتُ إلى حسْن جلده فقلت: "هذا يليق أن يُملأ ذهبًا وجوهرًا ودرًّا وياقوتًا وأفضل من ذلك". ثم قلت: "أخذتُ ما أردتُ. فانفر بانافر حيث شئتَ واقفز إلى أيّ جانب رأيت".

وإنّما قَفَزَانه خوفًا من أن يُغلب، وفي المغلوبية سعادته. لاشك أنّه يصوّر من دقائق الشهابيّة وغيرها، وأُشرب في قلبه، وهو يريد أن يدرك كلّ شيء. أخذ من ذلك الطريق الذي اجتهد في حفظه والتذّ به، ولا يمكنه ذلك. ذلك لأنّ للعارف حالة لايصطاد فيها بتلك الشبكات، ولا يليق إدراك هذا الصّيد بتلك الشبكات. وإن كان صحيحًا مستقيمًا فالعارف مختارٌ في أن يدركه مدركٌ؛ ولا يمكن لأحد أن يدركه إلاّ باختياره.

---

* هذا الفصل بالعربيّة في الأصل. [المترجم].

أنت قعدتَ مرصادًا لأجل الصّيد، الصّيدُ يراك ويرى بيتك وحيلتك، وهو مختار. ولا تنحصر طُرُقُ عبوره، ولا يعبُر من مرصدك، إنما يعبر من طُرق طرَقَها هو، وأرضُ الله واسعةٌ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥].

ثمّ إنّ تلك الرّقائق لَمّا وقعت في لسانك وإدراكك مابقيت رقائقَ، بل فسدت بسبب الاتصال بك، كما أنّ كلّ فاسد أو صالحٍ وقع في فم العارف ومدركه لايبقى على ماهو، بل يصير شيئًا آخر متدثّرًا متزمّلاً بالعنايات والكرامات. ألا ترى العصا كيف تدثّرت في يد موسى ولم تبق على ماكانت عليه من ماهيّة العصا، وكذا الأسطوانة الحنّانة والقضيب في يد الرسول ﷺ،
[١٣٦] والدّعاءَ في فم موسى، والحديدَ في يد داود والجبال معه، مابقيت على ماهيّتها، بل صارت شيئًا آخر غير ماكانت [عليه] فكذا الرّقائق والدّعوات إذا وقعت في يد الظلماني الجسمانيّ لاتبقى على ماكانت [عليه].

الكعبةُ مع طاعتك حانةٌ

وطالما أنها لك، فإنها معك في الذّات.

الكافرُ يأكل في سبعة أمعاء، وذلك الجحش الذي اختاره الفرّاش الجاهل يأكل في سبعين مِعاء، ولو أكل في مِعاء واحد لكان آكلاً في سبعين مِعاء؛ لأنّ كلّ شيء من المبغوض مبغوض، كما أنّ كلّ شيء من المحبوب محبوب. ولو كان الفرّاشُ هاهنا لدخلتُ عليه ونصحته، ولم أخرج من عنده حتى يطرده ويبعده؛ لأنه مفسدٌ لدينه وقلبه وروحه وعقله. وليتَ مايحمله على ضروب الفساد غير هذا مثل شرب الخمر والقيان، فكان يصلح ذلك إذا اتصل بعنايات صاحب العناية. ولكنّه ملأ البيتَ بالسّجادات لعلّه يُلَفّ فيها ويُحرق، حتى يتخلّص الفرّاش منه ومن شرّه؛ لأنه يفسد اعتقاده في صاحب العناية ويهمزه

قدّامه، وهو يسكت ويهلك نفسه. وقد اصطاده بالتسبيحات والأوراد والمصلّيات لعلّ الله يومًا يفتح عين الفرّاش فيرى ماخسره وبعّده عن رحمة صاحب العناية، فيضرب عنقه بيده ويقول أهلكتني حتى احتمع عليّ أوزاري وصُوَر أفعالي، كما رأوا في المكاشفات قبائح أعمالي والعقائد الفاسدة الطاغية خلف ظهري في زاوية البيت مجموعةً، وأنا أكتمها عن صاحب العناية بنفسي، وأحملها خلف ظهري، وهو يطّلع على ماأخفيه عنه، ويقول: ماذا تخفي؟- فوالذي نفسي بيده لو دعوتُ تلك الصّور الخبيثة لتقدّمت إليّ واحدةً واحدةً رأيَ العين، وكشفتْ عن نفسها، وأخبرت عن حالها، وعمّا تُكتم فيها.

خلّص الله المظلومين من مثل هؤلاء القاطعين الصّادّين عن سبيل الله بطريق التعبّد.

الملوكُ يلعبون بالصولجان في الميدان؛ ليرى أهلُ المدينة، الذين لايقدرون على أن يحضروا الملحمة والقتال، تمثيلاً لمبارزةِ المبارِزين وقطْعِ رؤوس الأعداء
[١٣٧] ودحرجتِها تدحرجَ الأُكَر في الميدان، وطرادِهم وكرّهم وفرّهم. فهذا اللّعبُ في الميدان كالأسطرلاب للجِدّ الذي هو في القتال. وكذلك الصلاةُ والسّماع لأهل الله إراءة للناظرين مايفعلون في السّر من موافقةٍ لأوامر الله ونواهيه المختصّة بهم. والمغنّي في السّماع كالإمام في الصلاة. والقوم يتبعونه؛ إن غنّى ثقيلاً رقصوا ثقيلاً، وإن غنّى خفيفًا رقصوا خفيفًا؛ تمثيلاً لمتابعتهم في الباطن لمنادي الأمر والنهي.

الفصل الخامس والثلاثون

القرآنُ.. السَّاحرُ العجيبُ

[١٣٨] يثير عجبي كيف أنّ هؤلاء الحافظين للقرآن لايفهمون شيئًا من أحوال العارفين. كما يقول القرآن:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ٦٨/١٠].

"الغمّاز هو تمامًا الشخص الذي يقول: لاتستمع إلى فلان، مهما يمكن أن يقول؛ لأنه مِثْلُ هذا تمامًا معك".

﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ٦٨/١١-١٢].

والقرآن، على الحقيقة، ساحرٌ عجيب وغيور، ويصرّ على أن يرنّ واضحًا في أذن الخصم على نحوٍ يحصل له فيه الفهمُ، من دون أن يكون له علمٌ بذلك، ويكون غافلاً عن اللّذة التي يبعثها، أو يصرفها عن نفسه.

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/٧].

له لطفٌ عجيب!- يختم على الإنسان الذي يسمع ولا يفهم، ويبحث ولا يفهم. الله لطيفٌ، وقهرُه لطيفٌ، وقَفْله لطيفٌ، ولكن ليس مِثْلَ قَفْلِه فتحُه؛ لأنّ

لُطف ذلك لايأتي في الصّفة. لو قسّمتُ نفسي على أجزاء لكان ذلك من اللطف الذي لانهاية له لإزالة قَفْله وفتحه الذي لانظير له، وإرادة ذلك.

حذارِ، لاتتّهم المرضَ والموت بقتلي؛ فإنّ ذلك حجابٌ فقط. سيكون قاتلي لُطْفُه، وانعدامُ مِثْلِيّته. ذلك الخنجرُ أو السّيف الذي يلمع إنما هو لدفع أعين الأغيار، حتى لاتدرك أعيُن النحس الغريبةُ الجُنبُ هذا المقتل.

الفصل السادس والثلاثون

لا يكون نقشٌ من دون نقّاش

[١٣٩] جاءت الصورةُ فرعًا للعشق؛ فإنه دون العشق لايكون لهذه الصورة أيّةُ قيمة. والفرعُ هو الذي لايمكن أن يوجد دون الأصل. ولذلك لايُدعى الحقُّ صورةً؛ لأنّ الصورة فرعٌ فلا يمكن تسميةُ الحقّ فرعًا.

قال أحدهم: إنّ العشق أيضًا لايُتصوَّر دون صورة، ولا ينعقد دون صورة. وهكذا فإنّه فرعُ الصورة.

نقول: لماذا لايُتصوَّر العِشقُ دون صورة؟ بل إنّ العشق مثيرُ الصورة وباعثها. مئة ألفِ صورة آثارها العشقُ ممثّلةً ومحقّقةً. وبرغم أنّ النقش لايكون دون نقّاش، والنقّاش لايكون دون نقش، فإنّ النقش فرعٌ والنقّاش هو الأصل، "كحركة الإصبع مع حركة الخاتم".

وإذا لم يكن ثمّة عشقٌ للمنزل فلن يُعِدّ أيّ مهندس صورةً وتصوّرًا للمنزل. وعلى النحو نفسه يكون القمح في سَنةٍ بقيمة الذهب، وفي سنةٍ أخرى بقيمة التراب. وصورةُ القمح هكذا تمامًا؛ ولذلك فإنّ قدْرَ صورة القمح وقيمتها إنّما جاء من العِشق. أيضًا، ذلك العِلْمُ الذي تكون طالبًا له وعاشقًا يكون ذا تقدير لديك، أمّا عندما لايكون هناك طالبٌ للعِلْم فلن يتعلّم أحدٌ ذلك العِلْمَ ولن يمارسه.

يقولون: إنّ العشق في المحصّلة هو افتقارٌ واحتياجٌ إلى شيء؛ وهكذا فإنّ الاحتياج هو الأصلُ، والشيء المحتاج إليه هو الفرع. أقول: في المحصّلة هذا الكلام الذي تقوله، تقوله بسبب الحاجة. وهكذا فإنّ هذا الكلام جاء إلى الوجود بسبب حاجتك. وعندما توافر لديك الميلُ إلى هذا وُلِدَ هذا الكلام. وهكذا كان الاحتياجُ مقدَّمًا؛ وهكذا الكلامُ وُلِد منه. ولذلك وُجد الاحتياج دون الكلام. وهكذا، العِشقُ والاحتياج ليسا فرعَ الكلام.

قال أحدُهم: إذن المقصودُ من ذلك الاحتياج إنما هو هذا الكلام، فكيف يكون المقصودُ فرعًا؟

قلتُ: المقصود دائمًا هو الفرع. لأنّ المقصودَ من جذر الشجرة فرعُ الشجرة.

الفصل السابع والثلاثون

هذه القطرةُ من ذلك اليمّ

[١٤٠] قال مولانا: الادّعاءُ الذي ادّعوه على هذه الفتاة كـذبٌ، ولـن يتقـدّم أكثر. لكنّ شيئًا قرّ في وَهْم هذه الجماعة. وإنّ وَهْم الإنسان وباطنه مِثْـلُ الدّهـليز- في البدء يدخل الناسُ الدّهليزَ، وبعدئذ يدخلون البيت. هذه الدنيا كلّها مِثْـلُ مـنزلٍ واحدٍ. كلّ مايدخل مَدْخَلَه، الذي هـو الدّهـليز، لابـدّ مـن أن يظهـر في المنزل ويغدو مرئيًّا. مثلاً، هذا المنزل الذي قـد جلسـنا فيـه، ظهـرت صورتُـه في قلـب المهندس، وعندئذٍ جاء هذا المنزلُ إلى الوجود. ومن هنا قلنا: إنّ هذه الدنيا كلّها منزلٌ واحد. والوَهْمُ والتصوّر والفكر هي دهليز هذا المنزل. كلّ مارأيتَه ظـاهرًا في الدّهليز، اعلمْ حقيقةً أنه يُرى في المـنزل. وكـلُّ هـذه الأشـياء التي تظهـر في الدنيا، من خير وشرّ، ظهرت أولاً في الدّهليز، وبعدئذٍ هنا.

عندما يشاء الحقُّ تعالى أن يُظهِر في هذا العالم الأشياءَ المختلفـة مـن غرائـب وعجائب وحدائق وبساتين ومروج وعلوم وتصنيفات مختلفـة يضـع أولاً الرّغبـة في ذلك والتوق إلى ذلك في أعماق القلوب حتى تظهر هذه الأشياء بسبب تلك الرّغبة. وعلى النحو نفسه، كلُّ ماتراه أنت في هذا العالم، اعلم أنّـه سيكون في ذلك العالم. فكلُّ ماتراه في القَطْرة، مثلاً، اعلم أنـه سيوجد في اليـمّ؛ لأنّ هـذه القطرة من ذلك اليم [اين نَمْ از آن يم-بالفارسية]، وكذلك، هذا الخَلْقُ للسّماء

والأرض والعرش والكرسيّ والمطالب الأخرى، وضع الحقُّ تعالى طلَبَه في أرواح السابقين، وهكذا طبعًا ظهر العالم من أجل ذلك.

الناسُ الذين يقولون: إنّ العالم قديم، كيف يُسْمَع كلامهم؟ بعضهم يقول: إنّه حادثٌ، وأولئك هم الأولياءُ والأنبياء الذين هم أقدم من العالم.

وقد وضع الحقّ تعالى طلَبَ خلْق العالم في أرواحهم، وعندئذ ظهر العالم. وهكذا فإنهم يعرفون على الحقيقة، وهم يخبرون عن مقامهم أنّ العالم حادث. فعلى سبيل المثال، نحن الذين قد أقمنا في هذا المنزل عمرُنا ستّون سنةً، أو سبعون. وقد رأينا أنّ هذا المنزل لم يكن موجودًا، وقد مضت الآن سنواتٌ عديدة على إقامته. فإذا ماوُلدت في هذا المنزل أحياءٌ فنمت في باب هذا المنزل وجدرانه، كالعقارب والفئران والحيّات والحيوانات الحقيرة التي تعيش في هذا
[١٤١] المنزل، فإنها تكون قد وُلدت في المنزل ورأته وهو مبنيّ. ولو أنها قالت: "إنّ هذا المنزل قديم" لما كان ذلك حجّةً علينا؛ لأنّنا كنّا قد رأينا أنّ هذا المنزل حادث. ومِثْلُ تلك الأحياء التي نمت في باب هذا المنزل وجدرانه ولا تعرف ولا ترى شيئًا غير هذا المنزل، هناك خلْقٌ نَمَوْا في منزل هذه الدنيا. ليس فيهم جوهرٌ؛ منبتُهم في هذا المكان، وعلى النحو نفسه ينزلون في هذه الدنيا. ولو أنهم قالوا: إنّ العالم قديم لما كان ذلك القولُ حجّةً على الأنبياء والأولياء الذين كان لهم وجودٌ قبل العالم بعدّة ألف ألف ألف سنة؛ ولِمَ الحديثُ عن السنين وعن أعداد السنين، في الوقت الذي ليس لهؤلاء الأنبياء والأولياء حدٌّ ولا عدد؟- فقد رأوا حدوث العالم، مثلما رأيتَ أنت حدوثَ هذا المنزل.

وبعد ذلك، يقول ذلك المتفلسفُ للسُّنّي: "كيف عرفتَ حدوثَ العالم؟"- أنت أيّها الحمار، كيف عرفتَ قِدَم العالم؟- بعد كلّ شيء، قولُك: إن العالم قديمٌ، معناه أنه غيرُ حادث، وهذه شهادةٌ مبنيّة على نفي.

ومهما يكن، فإنّ الشهادة المبنيّة على إثباتٍ أسهلُ من الشهادة المبنية على النفي. لأنّ الشهادة المبنيّة على النفي معناها أنّ هذا الإنسان لم يفعل الفعلَ الفلانيّ. والاطّلاعُ على هذا مشكل؛ إذ ينبغي أن يكون هذا الشخصُ من أوّل عمره حتى آخره قد لازم ذلك الشخصَ ليلاً ونهارًا في المنام واليقظة حتى يقول على نحو قاطع: "إنه لم يفعل هذا الفعل". وحتى ذلك ربما لايكون حقيقةً: إذ يُحتمل أنّ الشخص الذي يقدّم مثلَ هذا البيان قد غلبه النّعاس مرّة، أو أنّ ذلك الشخص قد ذهب لقضاء الحاجة، على نحو يمكن معه ألا يكون هذا الشاهدُ ملازمًا لمن يقدّم عنه الشهادة. ولهذا السبب تكون الشهادةُ المبنيّة على النفي غير مشروعة؛ لأنّ الشاهد يقول: "كنتُ معه لحظةً، فقال كذا، وفعل كذا".

لاشكّ في أنّ مثل هذه الشهادة مقبولة؛ لأنها في طَوْق البشر. والآن، أيّها الكلبُ، أن يشهد الإنسانُ بالحدوث أسهلُ من أن تشهد أنت بقِدَم العالم؛ لأنّ محصّلة شهادتك أنّ العالم ليس حادثًا؛ ولذلك تكون قد قدّمت شهادةً مبنيّةً على النفي. وهكذا، لأنّه ليس ثمّة دليلٌ على الاثنين كليهما، ولم تر أنت نفسُك أنّ العالم حديث أو قديم، تقول له: "كيف عرفتَ أنّه حادث؟"- فيجيب أيضًا: "أيها الدّيّوث، كيف عرفتَ أنت أنه قديم؟- وإذن دعواك أمرٌ مُشكِل ومحال".

الفصل الثامن والثلاثون

صلاةُ الرّوحِ وصلاةُ الصّورة

[١٤٢] كان المصطفى ﷺ جالسًا مع الصحابة. بدأ الكفّارُ بالاعتراض. فقال: "نعم، أنتم جميعًا متّفقون على أنّه يوجد في العالم شخصٌ واحد هو صاحبُ الوَحْي ومتلقّيه. الوحي ينزل عليه، لا على أيّ شخص آخر. ولذلك الشخص علاماتٌ وإشارات في فعله وفي قوله وفي سيمائه، في كلّ أجزائه يمكن أن تُرى الإشارة والعلامة. والآن إذْ رأيتم تلك الإشارات وجّهوا وجوهكم إليه، وتمسّكوا به بقوّة لكي يكون منقذكم".

غدوا جميعًا محجوجين بحجّته ولم يبق لهم أكثرُ من الكلام. وضعوا أيديهم على السّيوف واستمرّوا في المجيء وفي إيذاء الصحابة وإغاظتهم والاستخفاف بهم. فقال المصطفى ﷺ: "اصبروا لكي لايقولوا إنّهم تغلّبوا علينا. يريدون بالقوّة أن يظهروا هذا الدّين. وسيُظهر الله هذا الدّين". ظلّ الصحابةُ مدّةً يؤدّون الصّلاة سرًّا، ويذكرون اسم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في الخفاء. إلى أن جاء الوحيُ بعد مدّة: "أنتم أيضًا امتشقوا السّيف وقاتلوا".

المصطفى عليه السلام الذي يدعونه أمّيًا، لايدعونه بذلك لأنّه لم يكن قادرًا على الكتابة والعلوم. دَعوه أمّيًا لأنّ الكتابة والعلوم والحكمة كانت فِطْريّة لديه [أي وُلِدت معه يومَ ولدته أمّه- مادرزاد، بالفارسية]، وليست مكتسبة.

الإنسانُ الذي يرقم على وجه القمر يمكن أن يكون عاجزًا عن الكتابة؟ وأيّ شيء في الدنيا لايعرفه، عندما يتعلّم الناسُ كلّهم منه؟- وأيّ شيء للعقل الجزئيّ لايمتلكه العقلُ الكلّيّ؟- العقلُ الجزئيّ غيرُ قابلٍ لأن يخترع شيئًا من عنده لم يكن قد رآه. وما صنّفه الناسُ من التصانيف وما ابتدعوه من هندسات ومبانٍ ليس تصنيفًا حديثًا. فقد رأوا مِثْلَه وهم يضيفون إليه إضافات ليس غير. أولئك الذين يخترعون شيئًا جديدًا من عندهم هم (العقل الكلّيّ). العقلُ الجزئيّ قابلٌ للتعلّم وهو محتاج إلى التعليم؛ العقلُ الكلّيّ هو المعلّم، وغير محتاج إلى التعلّم. وهكذا، كلُّ الحِرَف عندما تُحيل فيها عين البحث والتأمّل، تجد أنّ الأصل والبداية فيها إنّما كان الوحي؛ فقد تعلّم الناسُ من الأنبياء، وهم العقلُ الكلّي.

[١٤٣] هناك حكاية الغراب؛ عندما قتل قابيلُ هابيلَ ولم يعرف ماذا يفعل، إذ قتل غرابٌ غرابًا فحفر في الأرض ودفن ذلك الغرابَ، وهال التراب على رأسه. تعلّم قابيل منه صُنْعَ القبر والدَّفْن. وهذه هي الحال مع الحِرَف كلّها. وكلّ من لديه عقلٌ جزئيٌ محتاجٌ إلى التعليم، والعقلُ الكلّي هو الواضع للأشياء جميعًا. والأنبياء والأولياء هم الذين وصلوا العقلَ الجزئيّ بالعقل الكلّي وجعلوهما شيئًا واحدًا.

فمثلاً، اليدُ والقدَمُ والعينُ والأذن وجملة حواسّ الإنسان قابلةٌ لأن تتعلّم من القلب والعقل. القدم تتعلّم من العقل كيف تمشي، واليد تتعلّم من القلب والعقل كيف تُمسك، والعيْن والأذن تتعلّمان الرّؤية والسّمع.

ولو أنّ القلب والعقل ليسا موجودين لما أمكن هذه الحواسّ أن تعمل أو تكون قادرة على العمل.

ومثلما أنّ هذا الجسم، نسبةً إلى العقل والقلب، كثيفٌ وغليظٌ، وهما لطيفان، وهذا الكثيف قائمٌ بذلك اللطيف، وإذا كان له من لطفٍ ورونق فإنّما

يستمدّه من ذلك اللطيف، ومن دون اللطيف يكون معطّلاً وفاسدًا وكثيفًا وقبيحًا؛ هكذا أيضًا العقلُ الجزئيّ نسبةً إلى العقل الكلّي آلةً، يتعلّم منه، ويستفيد، وهو كثيفٌ وغليظٌ أمام العقل الكلّي.

قال أحدُهم: ذكّرنا بهمّتك. فالهمّةُ هي الأصل. وإذا لم يكن هناك كلامٌ، فليكن الأمرُ كذلك؛ الكلام هو الفرعُ.

قال مولانا: نعم، هذه الهمّةُ كانت في عالم الأرواح قبل عالم الأجسام، وهكذا جيء بنا إلى عالم الأجسام دون مصلحة! وهذا حتمًا محالٌ؛ ومن هنا فإنّ الكلام له عمله وهو مليءٌ بالفائدة.

فلو أنّك زرعتَ لبَّ بذرة المشمش فقط لما نما منها شيءٌ، أما عندما تزرعها مع قشرها فإنها تنمو. ومن هذا نعرف أنّ الصّورة أيضًا لها وظيفتُها. الصلاةُ أيضًا شأن باطنيّ. "لاصلاةَ إلاّ بحضور القلب". ولكن لابدّ من أن تأتي بصورتها، فتركع وتسجد، وعندئذ تستفيد وتصل إلى المقصود.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٧٠/٢٣].

وهذه صلاةُ الرّوح. أمّا صلاةُ الصورة فموقّتة، وليست دائمة. لأنّ روح العالم محيطٌ مترامي الأطراف ليس له نهاية، والجسمُ هو الساحلُ، أرض يابسة محدودة ومقدّرة. وهكذا فإنّ الصلاة الدّائمة لاتكون إلاّ للروح. ومن ثمّ، فللرّوح أيضًا ركوع وسجود، لكنّ الرّكوع والسّجود ينبغي أن يُظْهَرا في الصورة. لأنّ للمعنى اتصالاً بالصورة؛ وإذا لم يكن الاثنانِ معًا فليس لهما فائدة. [١٤٤]

عندما تقول: إنّ الصّورة فرعٌ للمعنى، والصّورة هي الرّعية والقلب هو الملك، فإنّ هذه مجرّد أسماء نسبية إضافية. عندما تقول: إنّ هذا فرع لذلك، ثم

لايكون هذا الفرعُ موجودًا فكيف ينطبق اسم (الأصْل) على الآخر؟ ذلك أنه صار أصلاً بسبب هذا الفرع، وإذا لم يكن ذلك الفرعُ موجودًا فإنه لايكون له حتى اسم. فإذا ماقلت: (امرأة)، فلابدّ من أن يكون هناك (رجل). وعندما تقول: (رَبّ)، ينبغي أن يكون هناك (مربوب)، وعندما تقول: (حاكم) ينبغي أن يكون هناك (محكوم).

الفصل التاسع والثلاثون

طريق الفَقْر

[١٤٥] كان حسامُ الدّين أرزنجاني قبل أن يصل إلى خدمة الفقراء ويصحبهم مناظرًا عظيمًا. أينما ذهب وحلس انشغل بقوّة بالبحث والمناظرة، وكان يحسنها في الفعل والقول. ولكن عندما جالس الدّراويش لم يعد يقيم وزنًا لذلك.

لايقطعُ العِشْقَ إلاّ عِشقٌ آخر

فلِمَ لاتتخذ رفيقًا أفضل؟

"مَنْ أراد أن يجلس مع الله تعالى فليجلس مع أهل التصوّف...". هذه العلوم العقليّة مقارنةً بأحوال الفقراء لَعِبٌ وتضييع للعمر.

﴿إنّما الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ﴾ [محمد: ٣٦/٤٧].

عندما يصل الإنسانُ إلى سنّ البلوغ ويغدو عاقلاً وكاملاً، لايعود يلعب؛ وإن لَعب فإنّه يتوارى عن الأنظار بسبب الخجل الشديد، حتى لايراه أحد. وهذا العِلْمُ والقيل والقال والهوس الدّنيويّ كالرّيح، والإنسان ترابٌ، وعندما تختلط الرّيح بالتراب فإنها حيثما وصلت أمرضت الأعين، ولم يحصل من وجودها إلاّ التشويش والاعتراض. ولكن برغم أنّ الإنسان ترابٌ فإنه يبكي مع كلّ كلمةٍ يسمعها، ودمعُه منهمرٌ كالماء الجاري.

﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٥/٨٣].

والآن فإنه عندما ينزل الماءُ على التراب، بدلاً من الرّيح، سيكون الأمرُ عكسَ ذلك. فلاشكّ في أنّ التراب عندما يظفر بالماء تنمو فيه الثمارُ والخضرةُ والرّيحان والبنفسج والورد.

وطريقُ الفَقْر هذا هو الطريق الذي تصل به إلى كلّ آمالك. كلّ شيءٍ تمنّيتَه سيصل إليك بهذا الطريق لامحالة، من هزيمة الجيوش والانتصار على الأعداء، والظفر بالممالك، وتسخير الخَلْق، والتفوّق على الأقران والفصاحة والبلاغة، وكلّ ماكان من هذا القبيل. فإذا ماآثرتَ طريقَ الفقر وصلتْ إليك هذه كلّها. لم يسلك أحدٌ هذا الطريق وشكا. خلافًا للطرق الأخرى، التي كلُّ من سلكها وكدّ فيها لم يظفر بأكثر من مقصدٍ واحدٍ من كلّ مئة ألف مقصد، وذلك أيضًا لايكون بطريقة يسعدُ فيها قلبُه ويسْكن. لأنّ كلّ طريق من هذا القبيل له أسبابه وطرقه الثانوية للحصول على ذلك المقصد، ولا يُحصّل على المقصد إلاّ بتلك الأسباب الثانوية. وذلك الطريق طويلٌ ومملوء بالآفات والموانع، فربّما تتخلّف تلك الأسباب عن المقصد.

[١٤٦] والآن عندما دخلتَ عالم الفقر وجرّبتَه، يعطيك الحقّ تعالى الممالك والعوالم التي لاتأتي في ساحة وَهْمك؛ وغدوتَ خجلاً من ذلك الذي كنتَ تتمنّاه في البدء وتطلبه قائلاً: "آه، بوجود مثل هذا الشيء كيف كنتُ أطلب ذلك الشيء الحقير؟". ولكن الحقّ تعالى يقول: "لو أنك فقط ترفّعت عن ذلك الشيء وعافته نفسُك وازدريته لكان كلُّ شيء على مايرام. ولكن عندما مرَّ في خاطرك تركتَه من أجلي. إنّ كرمي لانهايةَ له، فسأجعل ذلك الشيء أيضًا في متناولك".

هذا ماحدث للمصطفى ﷺ. قبل وصوله إلى مراده وظفره بالشّهرة كان يرى فصاحة العرب وبلاغتَهم، فكان يتمنّى أن يكون له أيضًا مثلُ هذه

الفصاحة والبلاغة. وعندما انكشف له عالمُ الغيب وغدا ثملاً بالحقّ تحوّل قلبه تمامًا عن ذلك الطلب وتلك الأمنيّة.

قال الحقُّ تعالى: "ماقد أعطيتُك تلك الفصاحة والبلاغة التي كنت تطلبها". فقال: "يارب وماذا تنفعني هذه؟- أنا لاأهتمّ بها ولا أريدها".

فأجابه الحقّ تعالى: "لاتحزن. ذلك أيضًا سيكون، وعدمُ اهتمامك سيظلّ قائمًا، ولن يؤذيك البتّة". أعطاه الحقّ تعالى كلامًا ظلَّ العالَمُ كلّه منذ عهده إلى هذا العهد يؤلّف المجلّدات الكثيرة في شرحه وسيظلّ؛ ولا يزال الناس قاصرين عن إدراكه. وقال الحقّ تعالى أيضًا: "إنّ أصحابك بسبب الضعف والخوف على حياتهم وبسبب الحسّاد يهمسون باسمك خفيةً في الآذان. سأعلن تعظيمك إلى الحدّ الذي يستطيع فيه الناسُ أن يجهروا به بأصوات عالية وألحان لطيفة خمس مرّات في اليوم فوق المآذن العالية في كلّ بلدان العالم؛ حتى يغدو مشهورًا في المشرق والمغرب". والآن فإنّ كلّ من غامر بنفسه في هذا الطريق ستتيسّر كلّ مقاصده الدّينيّة والدّنيوية، ولم يشكُ أحدٌ من هذا الطريق.

كلامُنا كلُّه نَقْدٌ، وكلامُ الآخرين نَقْلٌ. وهذا النَّقْلُ فرعٌ للنقد. النقد مِثْلُ قَدَم الإنسان الحقيقية، والنَّقلُ مثلُ قالب الخشب الذي أُعطي صورةَ قدم الإنسان؛ وتلك القدم الخشبيّة سُرِقت من هذه القدم الأصلية وأخذت قياسها من هذه. فلو لَمْ تكن في العالم قدَم فأنّى لهم أن يعرفوا هذا القالب؟- ومن هنا فإنّ بعض الكلام نقدٌ وبعضه نقلٌ. وكلّ منهما يشبه الآخر. وينبغي أن يكون هناك مميِّز ليعرف النقدَ من النقل. وذلك التمييزُ هو الإيمان، والكفرُ عَدَمُ التمييز.
[١٤٧] ألا ترى كيف أنّه في زمان فرعون، عندما صارت عصا موسى حيّةً وصارت عِصيُّ السَّحَرة وحبالُهم حيّاتٍ أيضًا، رأى كلُّ مَنْ لاتمييز لديه هذه الأشياء نوعًا واحدًا ولم يفرّق بينها؛ وأمّا من امتلك التمييز فقد عرف السّحر من الحقّ، فآمن بفعل التمييز؟ وهكذا نستيقن أنّ الإيمان هو التمييز.

ومهما يكن، فإنّ أصْلَ الفِقْه هو الوحْيُ. ولكن عندما امتزج بالأفكار والحواسّ وتصرّفات الخلق زال ذلك اللّطفُ. وفي هذه اللحظة، كيف يُشبه لطافةَ الوَحْي؟

تأمّل كذلك هذا الماءَ الذي يجري في تُروت نحو المدينة. وهناك، حيث رأسُ نَبْعِهِ، انظرْ كم هو صافٍ ولطيفٌ! وعندما يدخل المدينة ويمرّ بالبساتين والمحالّ ومنازل أهل المدينة، فإنّ كثيرًا من الناس يغسلون به أيديهم ووجوههم وأرجلهم وأعضاء أجسامهم وألبستهم وبُسُطهم، وأبوال المحالّ وأرواث الخيل والبغال تصبّ فيه وتختلط به. انظر إليه عندما يمرّ بالجانب الآخر. وبرغم أنّه يظلّ الماءَ نفسَه، الذي يحوّل التراب إلى طين ويروي العطشان ويحوّل الصحراء إلى أرض خضراء، فإنه لابدّ من مُمَيِّز يدرك أنّ ذلك اللّطف الذي كان لهذا الماء لم يعد موجودًا، وأنّ أشياء غير طيّبة قد اختلطت به. "المؤمنُ كيّسٌ مُميِّزٌ فَطِنٌ عاقلٌ".

الشيخُ لايكون عاقلاً عندما يكون مشغولاً باللّعب؛ وبرغم أنّه في سن المئة، مايزال خامًا وطفلاً. والطفل، عندما لاينشغل باللّعب، يكون على الحقيقة شيخًا. هاهنا السّنّ غير معتبرة.

﴿ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ٤٧/١٥].

هو المطلوب. فالماءُ غيرُ الآسن هو الذي ينظّف كلَّ أوساخ العالم، وهي لاتؤثّر فيه. يظل صافيًا ولطيفًا مثلما كان، ولا يضمحلّ في المعدة ولا يتعكّر ولا يأسن. وذلك هو ماءُ الحياة.

"أحدُهم صاح وهو في الصّلاة وبكى. أتكون صلاتُه باطلة أم لا؟". إجابة هذا السؤال تحتاج إلى قدر من التفصيل. إذا كان ذلك البكاءُ ناشئًا عن أنه أُشهِد عالمًا آخر خارج المحسوسات فإنّ ذلك يسمّى في النهاية (ماء العين)؛

وعندما يكون قد رأى شيئًا من جنس الصلاة ومكمّلاً للصلاة فذلك هو المقصود من الصلاة، وصلاته صحيحة وأكثر كمالاً. والأمر على العكس، إذا مابكى من أجل الدنيا، أو بسبب عداوة عدوّ غلبه، أو حسدًا لشخص آتاه الله
[١٤٨] وفرةً في المال بينما هو لايمتلك شيئًا، فإنّ صلاته بتراء وناقصة وباطلة.

وهكذا تبيّنا أنّ الإيمانَ تمييزٌ، يفرّق بين الحقّ والباطل، وبين النقد والنّقل. وكلُّ من لاتمييز لديه يظلّ محرومًا. وهذا الكلام الذي تقوله يستمتع به كلُّ من لديه تمييز، ولكنه ضائع لدى من لاتمييز لديه. وهذا مثلُ أنّ مدنيّين عاقلَيْن كافيين تدفعهما الشفقةُ إلى أن يذهبا ويشهدا لمصلحة شخص ريفيّ. لكنّ الرّيفيّ بسبب جهله يقول شيئًا مخالفًا للاثنين فلا تأتي تلك الشهادة بطائل، ويضيع سعيهما. ومن هذه الوجهة يُقال: إنّ الرّيفي شهادتُه معه، ولكن عندما تستولي عليه حالُ السّكْر ويغدو ثَمِلاً لاينظر فيما إذا كان هاهنا مميِّز أم لم يكن، مستحقّ لهذا الكلام أم غير مستحق، فيصبّ كلامه جزافًا. مثل امرأة يمتلئ ثدياها بالحليب فتتألّم وتجمع جراء كلاب المحلّة وتصبّ لها حليبها.

والآن فإنّ هذا الكلام قد وقع في يد شخصٍ غير مميّز، مثلما تضع درًّا ثمينًا في يد طفلٍ لايعرف قدره. وعندما يمضي أبعد، توضع تفّاحةٌ في يده، ويُؤخذ منه ذلك الدّرّ لأنه لاتمييز لديه. وهكذا فإنّ التمييز نعمةٌ عظيمة.

عندما كان أبو يزيد [البِسْطاميّ] في مرحلة الطفولة أخذه أبوه إلى المدرسة؛ ليتعلّم الفقه. فلمّا أتى به إلى المدرّس قال: "هذا فِقْهُ الله". فقالوا: "هذا فقهُ أبي حنيفة". فقال: "أنا أريدُ فقهَ الله". ولما أتى به إلى مدرّس النحو: قال: "هذا نَحْوُ الله". فقال المدرّس: "هذا نَحْوُ سيبويه". فقال أبو يزيد: "لاأريده". هكذا كلّما أخذه إلى مكان قال مثل هذا. عجز عنه والدُه فتركه لشأنه. بعد ذلك وفد إلى بغداد من أجل هذا المطلب. وعندما رأى الجُنَيْد صاح: "هذا فِقْهُ الله".

وكيف لايعرف الحمَلُ أمّه وهو راضعٌ لبنها؟ وذلك مولودٌ من العقل والتمييز، فدَعِ الصّورة.

كان هناك شيخٌ اعتاد أن يترك مريديه واقفين وأيديهم مقيّدة في الخدمة. فقالوا له: "أيها الشيخ، لِمَ لاتدعُ هذه الجماعة تجلس؟- فليست هذه عادة الدّراويش، بل عادة الأمراء والملوك". فأجاب: "لا، اسكتوا. أريد أن أجعلهم يعظّمون هذا الطريق، لكي يستمتعوا بذلك. وبرغم أنّ التعظيم هو في القلب، ولكنْ الظاهرُ عنوانُ الباطن". فما معنى العنوان؟ يعني أنّه من العنوان يمكن أن تُعْرَف الرسالة؛ لأجل مَنْ تُكتب الرسالة وإلى من. من عنوان الكتاب يُعْرَف مافيه من الأبواب والفصول. ومن تعظيم الظاهر، وإمالة الرأس والوقوف على القدمين، يُعْلَم أيّ تعظيم لديهم في الباطن، وكيف يعظّمون الحقّ. وإذا هم لم يُظهروا تعظيمًا في الظاهر غدا معلومًا أنهم وقحون في باطنهم ولا يقدّرون رجال الحقّ.

الفصل الأربعون

تَرْكُ الجوابِ جواب

[١٥٠] جوهرُ خادمُ السلطان سأل: في أثناء حياة الإنسان يلقّنونه خمس مرّات. وهو لايفهم الكلام ولا يضبطه. بعد الموت عمَّ يُسأل، وهو بعد الموت ينسى حتى الأسئلة التي تعلّمها؟

قلتُ: إذا نسي ماتعلّمه فسيغدو حقًّا صافيًا ومهيأً للأسئلة التي لم يتعلّمها. في هذه الساعة التي تسمع فيها أنت كلماتي من تلك الساعة حتى الآن، تقبل بعضها، مما سمعتَ مثله وقَبِلتَه قبْلُ؛ وتقبل بعضها نصفَ قبول؛ وتتردّد إزاء بعضها الآخر. ولا أحد يسمع هذا الرّد والقبول والبحث الباطن من جانبك؛ لأنّه لاتوجد آلةٌ لذلك. وبرغم أنك تصغي، فإنّه لايأتي صوتٌ إلى أذنك من داخلك. ولو فتّشت داخلك لما وجدتَ قائلاً. وبمجيئك هنا لزيارتي هو عين السؤال دون حنجرة ولسان: "بيِّن لي الطريق، وذلك الذي بيّنتَه اجعلْه أكثر بيانًا". وجلوسي هذا معك، سواء أكنتُ صامتًا أم متكلّمًا، إجابةٌ لأسئلتك الخفية. وعندما ترجع من هنا إلى خدمة المليك، يكون ذلك سؤالاً موجّهًا إلى الملك وجوابًا. وكلّ يوم يسأل الملك عبيده دون لسان: "كيف تقفون؟- وكيف تأكلون؟ وكيف تنظرون؟" وإذا كان لأحد منهم نظرٌ أعوج في داخله فلابدّ أن يأتي جوابُه أعوجَ، ولن يكون في مقدوره السيطرةُ على نفسه لكي

يقدّم جوابًا صحيحًا. مثل الشخص الذي يتمتم، كلّما أراد أن يتكلّم كلامًا صحيحًا عجز عن ذلك. الصائغ الذي يحكّ الذهب بالحجر يسأل الذهبَ، فيجيب الذهبُ: "هذا أنا. خالصٌ أو مخلوط".

تُخبرك البوتقة نفسُها عندما تكون ملطّخًا

بأنك ذهبٌ خالصٌ، أو نحاسٌ مطليٌّ بالذهب

الجوعُ سؤالٌ من طبيعة: "إنّ في بيت الجسم خللاً. هات قرميدة. هات طينًا". الأكْلُ جوابٌ: "خُذْ". وعدمُ الأكل جوابٌ أيضًا: "الآن، لاحاجة. تلك القرميدةُ لَمّا تجفّ حتى الآن، لايحسن الضربُ على تلك القرميدة". يأتي الطبيبُ فيأخذ النّبض. ذلك سؤالٌ؛ نَبْضُ العِرْق جوابٌ. فحْصُ البول سؤالٌ
[١٥١] وجواب دون تفاخر وتباهٍ. وضْعُ البذرة في الأرض سؤالٌ: "أريد كذا ثمرة". ونموُّ الشجرة جوابٌ دون تفاخر باللسان. ولأنّ الجواب دون حرفٍ، ينبغي أن يكون السؤالُ دون حرفٍ، وبرغم أنّ البذرة كانت قد تعفّنت، لم تطلع الشجرة: ذلك أيضًا سؤالٌ وجواب "أما علمتَ أنّ ترْك الجوابِ جواب".

قرأ مِلِكٌ رقعةً ثلاث مرّات، ولم يكتب جوابًا. فكتب المتظلّم شكوى يقول فيها: "ثلاثَ مرّات عرضتُ الأمر على مقامكم. فليتّني أعلَم ماإذا كان طلبي يُقبَل أو يُرَدّ". فكتب المِلِك على ظهر الرّقعة: "أما عَلِمتَ أنّ ترك الجواب جوابٌ، وجوابُ الأحمق سكوتٌ".

عدمُ نموّ الشجرة تركٌ للجواب، ولذلك فهو جواب. كلُّ حركةٍ يقوم بها الإنسان سؤالٌ؛ وكلّ مايحدث له من غمٍّ وسرور جوابٌ. إذا سمع جوابًا سارًّا فعليه أن يشكر. ويعبّر عن الشكر بإعادة نوع السؤال نفسه على من تلقّى هذا

الجواب لذلك السؤال. وإذا سمع جوابًا غير سارّ استغفر حالاً، ولم يسأل مِثْلَ ذلك السؤال مرّة أخرى،

﴿فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٦/٤٣].

يعني أنهم لم يفهموا أنّ الجواب مطابقٌ لسؤالهم،

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٤٣]،

أي: إنهم رأوا الجوابَ لسؤالهم فقالوا: "هذا الجوابُ القبيح غيرُ لائق بذلك السؤال". لم يعرفوا أنّ الدّخان من الحطب وليس من النار. وكلّما جفّ الحطبُ قلّ دخانُه. أسلمتَ حديقةً إلى بستانيّ، فإذا جاءت من تلك الناحية رائحةٌ غير طيّبة، فاتّهم البستانيَّ لا الحديقة. قال رجلٌ: "لِمَ قتلتَ أمّك؟"- فأجابه الآخر: "رأيتُ شيئًا غير لائق". فقال الرجل الأوّل: "ينبغي أن تقتل ذلك الغريب". فقال الرّجل الثاني: "عندئذ أقتلُ كلّ يومٍ شخصًا". ولذلك الآن، في كلّ مايعرض لك، أدّب نفسك، حتى لاتقتل كلّ يوم مع شخص. إذا قالوا: "كلٌّ من عند الله"، قلنا: "حقًّا إنّ لَوْمَ الإنسان نفسَه والتخلّص من إسار الدّنيا هو من عند الله أيضًا".

[١٥٢] وهذا مثل ذلك الشخص الذي أنزل المشمش من الشجرة، فأكله. فطالبه صاحبُ البستان قائلاً: "ألا تخشى الله؟" فقال الرجل: "ولماذا أخشى؟- الشجرةُ لله وأنا عبدُ اللهِ. آكل عبدُ الله من مال الله". فقال المالِكُ: "تمهّلْ وانظر أيَّ جواب سأقدّم لك. هاتوا حبلاً، واربطوه على هذه الشجرة واضربوه، حتى يظهر الجواب!"، فصاح: "ألا تخشى الله؟"- فقال المالك: "ولماذا أخشى؟- أنتَ عبدُ الله، وهذه عصا الله. أضربُ عبدَ الله بعصا الله".

والحاصلُ أنّ العالَم مِثْلُ الجبل؛ كلُّ ماتقوله، من خير وشرّ، تسمعه من الجبل. وإذا حملتَ فكرة "تكلّمتُ حَسَنًا فرجّعه الجبلُ قبيحًا"، فإنّ هذا محال. عندما يغنّي البلبل في الجبل، أيمكن أن يعودَ غناؤه من الجبل صوتَ غرابٍ أو صوتَ إنسانٍ أو صوت حمار؟. استيقنْ عندئذٍ أنك أتيتَ بصوت كصوت الحمار.

حسِّن الصّوتَ عندما تمرّ بالجبل،

فلِمَ تتكلّم أمام الجبل بصوتٍ كصوت الحمار؟

السماءُ الزرقاء ترجّع دائمًا صدى صوتك العذب.

الفصل الحادي والأربعون

عِلْمُ النظرِ وعلمُ المناظرة

[١٥٣] نحن مِثْلُ القصعة فوق سطح الماء. وحركة القصعة فوق سطح الماء لاتتحكّم بها القصعة بل الماء.

قال أحدهم: هذا البيان عامّ. لكنّ بعض الناس يعرفون أنهم فوق سطح الماء وبعضهم لايعرفون ذلك.

فقال مولانا: إذا كان البيانُ عامًّا فإنّ تخصيص "قَلْبُ المؤمن بين إصبعين مِنْ أصابع الرّحمن" ليس صحيحًا. وقال الحقّ: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٥٥/١-٢]؛ ولا يمكن أن يُقال: إنّ هذا عامّ. علّم الحقّ العلومَ كلّها، فما هذا التخصيص للقرآن؟- وكذلك ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٦/١]؛ فما هذا التخصيص للسّماء والأرض، وقد خلق الأشياء كلّها على العموم؟- لاشكّ في أنّ القِصاع كلّها تجري على سطح ماء القدرة والمشيئة، ولكن من غير اللائق أن يضاف إلى الحقّ الشيءُ المنحطّ مثل أن يقال: "ياخالق السّرْقين والضّراط والفُساء"؛ بل "ياخالقَ السماوات وياخالق العقول". وهكذا فإنّ لهذا التّخصيص فائدةً؛ وبرغم أنّ البيان عامّ، فإنّ تخصيص الشيء دليلٌ على اختيار ذلك الشيء. والحاصل أنّ القصعة تجري فوق سطح الماء. والماء يحمل القصعة على نحو تكون فيه كلّ قصعة ناظرةً إلى تلك القصعة، ويحمل قصعة أخرى على

نحو تهرب فيه كلّ قصبةٍ من تلك القصبة طبعًا وتخجل منها. الماءُ يلهمها أن تهرب ويعطيها القدرة على الهرب، فتقول: "اللهمَّ زِدْنا منه بُعْدًا"؛ بينما تقول في الحال الأولى: "اللهمّ زِدْنا منه قُرْبًا".

هذا الشخص الذي يرى الأمر عامًّا يقول: "من وجهة التّسخير، كلا النوعين من القِصاع مسخَّرٌ للماء". وفي الإجابة يمكن أن يقول الإنسان: "إذا لم تَرَ سوى لُطْفِ انسياب هذه القصعة فوق الماء وروعتِه وحسنِه، فلن يكون لديكَ مِثْلُ هذا الاهتمام بتلك الصفة العامّة. مثلما يكون الشخصُ المعشوق مشتركًا مع ضروب الأرواث والقذرات من ناحية الوجود. ولكن لايمكن أن

[١٥٤] يقع في رُوعِ العاشق أن يقول: "إنّ معشوقي مشتركٌ مع القذرات في ذلك الوصف العامّ من جهة أنّ كليهما جسمٌ ومتحيّزٌ ومحاطٌ بالجهات السّتّ وحادثٌ وقابلٌ للفناء"،وغير ذلك من الأوصاف العامّة. ولن يستخدم هذه المصطلحات في المعشوق؛ وكلّ مَنْ يذكر المعشوق بهذه الصفة العامّة يتّخذه عدوًّا ويعدّه شيطانه. ولكن لأنّ لديك اهتمامًا بتلك الأوصاف العامّة، ولم تكن من أهل الاهتمام بحُسننا الخاصّ، لايحسُن أن أناظرك؛ لأنّ مناظراتنا مختلطةٌ بالحُسْن، وإظهارُ الحُسْن لغير أهله ظلمٌ، فلا ينبغي إظهارُه إلاّ لأهله. "لاتُعطوا الحكمةَ غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم".

هذا عِلْمُ نَظَرٍ، لاعلمُ مناظرة. الورود والبراعم لاتتفتح في الخريف، لأنّ ذلك سيكون مناظرةً؛ أي سيكون مخالفةً ومقاومةً مع الخريف.

وليس من طَبْعِ الوَرْد أن يواجه الخريف. إذا عملت عنايةُ الشمس عملَها فإنّ الورد سيتفتّح في الهواء المعتدل العادل؛ وإلاّ فإنه يخفي رأسه ويتراجع إلى جذره. يقول له الخريفُ:

"إذا لم تكن غصنًا يابسًا فواجهني إذا كنتَ رجلاً"؛

فيقول الوردُ:

"أمامك أنا عودٌ يابسٌ، ولستُ رجلاً، فقل ماتشاء".

يامليكَ الصادقين، كيف رأيتني منافقًا؟

مع الأحياء حيٌّ، ومع الأموات ميّت!

أنتَ، الذي هو بهاءُ الدّين، لو أنّ عجوزًا مولّية لا أسنان لها ووجهُها متغضّن كظهر السّحلية، جاءت وقالت: "إذا كنتَ رجلاً وفتىً، فانظر، هاقد جئتُ أمامك، انظر الفَرَس والحسناء، انظر الميدان، أظهر الرّجولة إذا كنت رجلاً"، لقلتَ: "معاذَ الله، واللهِ ماأنا برجل، وما أخبروكِ به عنّي محضُ افتراء. إذا كنتِ أنت شريكةَ الحياة فعدَمُ الرّجولة خيرٌ". تأتي عقرب وترفع شَباتها [إبرتها] أمام أحد أعضائكَ قائلةً: "سمعتُ بأنك رجلٌ يضحكُ وهو مبتهج. اضحكْ، لكي أسمع ضحِكَك". في مثل هذه الحال سيقول الإنسان: "الآن وقد جئتِ، ليس لديّ ضحكٌ وليس لديّ مزاج سرور. ماقالوه عنّي كذبٌ محضٌ. كل دواعي الضّحك عندي منشغلةٌ بأمل أن تنصرفي وتبتعدي عنّي". [١٥٥]

قال أحدُهم: "تأوّهتَ، فذهبَ الذوق [الوَجْد]. لاتتأوّه، حتى لايذهب الذّوقُ".

فقال مولانا: يحدث أحيانًا أن يذهب الذّوق إذا لم تتأوّه، تبعًا لاختلاف الحال. ولو لم يكن الأمرُ كذلك لما قال الحقّ:

﴿إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حَليمٌ﴾ [التوبة: ٩/١١٤].

ولما كان واجبًا إظهار الطاعة لله؛ لأنّ كلّ إظهار هو مجرّد ذوق.

وهذا الكلامُ الذي تقوله إنما تقوله من أجل أن يحصل الذوق. وهكذا إذا استحثّ أحدٌ الذوق فإنك ترعى مستحثّ الذوق لكي يحصل الذوقُ. وهذا

نظيرُ أن ينادى النائمُ: "انهـضْ، هـاقد أتـى النهـارُ، وانطلقـت القافلـة". فيقـول آخرون: "لاتَصِحْ؛ فإنّه في حال مـن الـذّوق. سيذهب ذوقُه". فيقـول الرّجـل: "ذلك الذوق هَلاك. وهذا الذوق خَلاصٌ مـن الهـلاك". فيقولـون: "لاتشـوّش، فإنّ هذا الصّياح يمنع التفكير". فيقـول الرّجـل: "هـذا الصّيـاح سـيجعل النـائم يفكّر. وإلاّ فبماذا سيفكّر وهو في هذا النوم؟- بعد أن يستيقظ سيبدأ التفكير".

الصّياحُ نوعان: إذا كان الصائحُ فوق الآخر في العِلْم، فـإنّ صياحـه سـيكون باعثًا للزيادة في الفكر. لأنه مادام أنّ منبِّهه صاحبُ عِلْم ويقظة، فإنّـه إذا أيقظـه من نوم الغفلة عرّفه بعالمه وجرّه إليه. وهكذا يرتقي فِكْرُه؛ لأنّه نُودي مـن مقـام عالٍ. أمّا حين يكون الأمرُ عكسَ ذلك، أي إنّ المنبِّه أدنى من الآخـر في العقـل، فإنّه حين يوقظه يقع نظره أسفل. عندما يكون منبّهُه أسفلَ لابـدّ أن يقـع نظـرُه أسفل، ويمضي تفكيره إلى العالم السّفليّ.

الفصل الثاني والأربعون

ضيوفُ العِشْق

هؤلاء الأشخاص الذين درسوا ويدرسون يظنون أنّهم عندما يداومون على المجيء إلى هنا ينسَون كلّ ماتعلّموه ويتركونه. والأمر عكس ذلك؛ فإنّهم عندما يأتون إلى هنا تكتسب علومُهم روحًا. ذلك لأنّ العلوم كلّها كالصُّوَر؛ عندما تكتسب روحًا تكون مثل الجسد الذي لاروحَ فيه، ثم يُبَثّ فيه الرّوحُ.

أصْلُ هذه العلوم جميعًا من هناك، وقد انتقلت من عالم اللاّحرف واللاّصوت إلى عالم الحرف والصّوت. في ذلك العالم يكون القولُ من دون حرفٍ ومن دون صوت.

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ٤/١٦٤].

تكلّم الحقّ تعالى مع موسى عليه السلام. ومهما يكن، فإنّه لم يتكلّم بالحروف والأصوات، ولا بالحنجرة واللسان. لأنّ الأحرف لابدّ لها من حنجرة وشفة لكي تظهر؛ تعالى الحقّ وتقدّس، وهو منزّه عن الشّفة والفم والحنجرة. وهكذا فإنّ للأنبياء في عالم اللاّحرف واللاّصوت حديثًا واستماعًا مع الحقّ مما لاتصل إليه أوهامُ هذه العقول الجزئية ولا تستطيع إدراكه. لكنّ الأنبياء ينزلون من عالم اللاّحرف إلى عالم الأحرف ويغدون أطفالاً من أجل هؤلاء الأطفال؛ فقد "بُعِثْتُ معلّمًا". والآن، رغم أنّ هذه الجماعة التي بقيت دائمًا في الحرف

والصوت لم تصل إلى أحوال النبيّ، تظلّ تستمدّ منه القوّة فتكبر وتنمو وترتاح إليه. مثل الطفل، برغم أنه لايعرف أمّه ولا يدركها على جهة التفصيل، يأنس بها ويقوى. ومثل الفاكهة، ترتاح على الغصن وتحلو وتنضج، برغم أنها لاتعرف شيئًا عن الشجرة. وهكذا الحالُ بشأن ذلك الوليّ العظيم وأحرفه وأصواته، برغم أنّ جمهرة الناس لايعرفونه ولا يصلون إليه، يستمدّون منه القوّة ويتغذون من مائدته.

ثابتٌ لدى كلّ نفس أنّ وراء العقل والحرف والصّوت شيئًا، وعالَمًا عظيمًا. ألا ترى كيف أنّ الخلق جميعًا يميلون إلى المجانين ويذهبون لزيارتهم؟ ويقولون: "لعلّ هذا يكون ذلك، وهو صحيح. مِثْلُ هذا الشيء موجود؛ ولكنهم أخطؤوا المحلّ. ذلك الشيءُ غير موجود في العقل". ولكن ليس كلّ شيءٍ غير موجود في العقل هو موجود.

والقولُ: "كلُّ جَوْزٍ مدوّرٌ، وليس كلُّ مدوّرٍ جوزًا" دليل على ذلك.

[١٥٧] نقول: "برغم أنّ لمثل هذا الإنسان حالاً لايمكن التعبير عنها بالقول والكتابة، فإنّ العقل والرّوح يستمدّان منه القوّة وينمّيان. وهذا غير موجود في هؤلاء المجانين الذين يدورون حولهم؛ وأولئك الذين يزورونهم ولا يتحوّلون عن الحال التي هم عليها ولا يجدون راحةً لدى مثل هذا الإنسان؛ وبرغم أنهم يظنون أنهم قد وجدوا الرّاحة، فليس ذلك مانسمّيه راحةً. مثلما أنّ الطفل الذي يُفصل عن أمّه يجد راحةً للحظةٍ لدى أخرى؛ ولا نسمّي ذلك راحةً، لأنّ الطفل قد أخطأ.

ويقول الأطبّاء: إنّ كلّ مايوافق المزاج ويشتهيه المزاج يعطي الإنسانَ قوّةً ويصفّي دمَه. وهذا صحيحٌ فقط مادام الإنسان صحيحًا لايعاني من عِلّة. وعلى سبيل المثال، إذا وافق الطّينُ آكلَ الطّين، فإننا لانسمّي ذلك الطّينَ مُصلِحًا

للمزاج برغم أنه يوافقه. وكذلك، توافق الأشياءُ الحامضةُ المصابَ بالصفراء ولا يوافقه السُكّرُ، ولا قيمة لتلك الموافقة؛ لأنّها مبنيّة على مَرَض. الشيءُ الموافق حقيقةً هو مايكون موافقًا للإنسان في المنزلة الأولى قبل أن يمرض. فلو أنّ يد أحد الناس مثلاً قُطعت أو كُسرت ثم رُبطت مُعوجّةً، فجاء الجرّاحُ فأقام اعوجاجها وأعادها إلى وضعها الأول، لما وافق ذلك هذا الإنسانَ ولآلمه؛ بقدْر ماوافقه الاعوجاجُ. يقول الجرّاح: "وافقك ذلك في الأوّل لأنّ يدك كانت مستقيمة، ووجدتَ راحةً في ذلك. وعندما جُعِلتْ معوجّةً تألّمتَ وتأذّيتَ. وفي هذه الساعة، إذا وافقك الاعوجاجُ فإنّ هذه الموافقة كاذبة، وليس لها أيّ اعتبار".

وعلى النحو نفسه وجدت الأرواحُ في عالم القدس بهجةً بسبب ذكر الحقّ والاستغراق في الحقّ، مثل الملائكة. فإذا مامرضتْ وسقمت بسبب اتصالها بالأجسام واستطابت أكْلَ الطّين، فإنّ النبّي والوليّ، اللّذين هما طبيبان، يقولان: "لايوافقك هذا على جهة الحقيقة. وهذه الموافقة والاستطابة كاذبة. يوافقك شيءٌ آخر كنتَ قد نسيتَه. ماهو موافقٌ لمزاجك الأصليّ والصحيح هو ماكان منذ البدء موافقًا لك. هذه العِلّةُ توافقك الآن؛ وتخال أنتَ أنّ هذا موافقٌ، ولا تؤمن بالحقيقة".

[١٥٨] كان أحدُ العارفين جالسًا عند نحويّ. فقال النحويّ: "الكلمةُ لاتخرج عن هذه الثلاثة: اسم، أو فعلٌ، أو حرف" فمزّق العارفُ ثيابه وصاح: "واويلتاه، عشرون سنةً من عمري وسعيي وطلبي ذهبت أدراج الرّياح. لأنني بذلت المجاهدات الكثيرة على أمل أنّ ثمة كلمةً أخرى غير هذه والآن أضعتَ أملي.

وبرغم أنّ العارف قد ظفر على الحقيقة بتلك الكلمة التي كانت مقصودة، تكلّم على هذا النحو ابتغاء أن ينبّه النحويّ.

يُحكى أنّ الحسن والحسين رضي الله عنهما عندما كانا طفلين رأيا شخصًا يتوضّأ على نحو غير صحيح ومخالف للشرع. فأرادا أن يعلّماه الوضوء على النحو الصحيح. جاءا إليه فقال أحدهما: "هذا يقول لي: إنك تتوضّأ على نحو غير صحيح. ونحن الاثنين نتوضّأ الآن أمامك، فانظر وضوء أيٍّ منّا هو الصحيح والمشروع". توضّأ الاثنان أمامه. فقال: "أيها الولدان، وضوءُكما مشروعٌ وصحيح ورائع. أمّا وضوئي، أنا المسكين، فقد كان خاطئًا".

كلّما كثر الضيوف وُسّع المنزل، وكثر الأثاث، وأُكثر الطعام. ألا ترى أنه عندما تكون قامةُ الطفل الصغير قصيرةً تكون فِكَره أيضًا، وهي الضيوف، مناسبةً لمنزل جسمه؟- لايعرف غير الحليب والمرضعة. وعندما يكبر فإنّ الضيوف، وهي فِكَرُه، تتزايد أيضًا، ويتسع منزلُ عقله وإدراكه وتمييزه. وعندما يفد ضيوفُ العشق لايتسع لهم المنزلُ ويخرّبون المنزل، ويعمّر من جديد.

إنّ سُتُر المِلِك وخدَم الملك وجيشه وحشمه لايتسع لهم منزلُه. وتلك السُّتُر غير لائقةٍ بهذا الباب؛ ولابدّ لأولئك الحشم الذين لانهاية لهم من مقام لا حدّ له. وعندما تُرفع سُتُر المِلِك تقدّم كل سطوع وتزيل الحجب وتظهر الخفايا؛ بخلاف سُتُر هذا العالَم التي تزيد الحجاب. هذه السُّتُر على عكس تلك السُّتُر.

إنّـي لأشـكو خطوبًـا لاأُعيِّنُهـا ليجهلَ الناسُ عن عذري وعن عَذَلي
كالشّمع يبكي ولا يُدرى أعبرتُه مِنْ صحبةِ النّارِ أم من فُرقة العَسَلِ

قال أحدهم: هذان البيتان قالهما القاضي أبو منصور الهرويّ.

فقال مولانا: إنّ القاضي منصور يتكلّم على نحو غامض ومتردّد ومتلوّن. أمّا منصور فلم يمتلك نفسَه، وتكلّم بصراحة. العالم كلّه أسيُر القضاء، والقضاء أسيُر الجَمال؛ والجمال يظهر ولا يختفي.

قال أحدُهم: اقرأ صفحةً من كلام القاضي.

فقرأ مولانا، وبعد ذلك قال: إنّ لله عبادًا كلّما رأوا امرأةً في خيمةٍ أمروها: "ارفعي النّقاب، لكي نرى وجهك، فأيّ شخص وأيّ شيء أنت؟ لأنكِ عندما تمرّين محجّبةً ولا نراك سيئناً لدينا ضربٌ من التشويش: مَنْ كانت هذه، وأيّ شخص هي. ولستُ بذلك الشخص الذي إذا رأيتُ وجوهَكم فُتنتُ بكم وصرتُ عبدًا لكم. ومنذ وقتٍ طويل خلّصني الله منكم ولم يشغلني بكم. فأنا آمنٌ من ذلك إذا رأيتكم، فلن تشوّشوني وتفتنوني. لكنّني عندما لاأراكم أكون مشوّشًا متعجّبًا أيّ ضربٍ من الأشخاص كان". هـؤلاء الرّجالُ مختلفون جدًّا عن تلك الطائفة الأخرى، أهل النفس. إذا رأوا وجوهَ الحِسان فُتِنوا بهنّ وشُوّشوا.

وهكذا فإنّه بشأن هؤلاء، من الخير لهم ألا يُظهروا وجوهَهم حتى لايغدوا فتنةً لهم. أمّا بشأن أهل القلوب فإنّه من الخير أن يُظهروا وجوههم، لكي يتخلّصوا من الفتنة.

قال أحدهم: ليس في خوارزم عاشقٌ؛ لأنّ الحِسان في خوارزم كثيراتٌ.

عندما يرون حسناء وتتعلّق قلوبُهم بها يرون بعدها واحدة أخرى أجمل منها، فتهون تلك لدى قلوبهم.

فقال مولانا: إذا لم يكن هناك عشّاق لِحِسان خوارزم، فإنّ خوارزم ينبغي أن يكون لها عشّاقها، فإنّ فيها من الحِسان مالا يحصى. وخوارزم تلك هي الفَقْر، الذي فيه مالا يُحصى من الحِسان المعنويّات والصّور الرّوحانيات. إذْ كلّما حططتَ عند واحدة وأقمتَ عندها أظهرتْ واحدةٌ أخرى وجهها، فنسيتَ الأولى، وهكذا إلى مالا نهاية. وهكذا فلنكنْ عُشّاقًا للفقر نفسه، فإنّ فيه مثل هذه الحِسان.

الفصل الثالث والأربعون

لابدّ للرؤية من مرئيّ وراءٍ*

[١٦٠] سيف البخاريّ راح إلى مصر. كلُّ أحدٍ يحسبُ المرآةَ، ويعشق مرآةَ صفاته وفوائده، وهو لايعرف حقيقةَ وجهه. وإنما يحسب البرقعَ وجهًا، ومرآة البرقع مرآةَ وجهه. أنت اكشف وجهك حتى تجدني مرآةً لوجهك، واثبت عندك أني مرآة.

قوله: تحقّق عندي أنّ الأنبياء والأولياء على ظنّ باطل. ماثمّ شيءٌ سوى الدّعوى.

قال [مولانا]: أتقولُ هذا جزافًا أم ترى وتقول؟- إن كنتَ ترى وتقول فقد تحقّقت الرؤيةُ في الوجود. وهي أعزُّ الأشياء في الوجود وأشرفها. وتصديق الأنبياء لأنهم مادّعوا إلاّ الرؤية؛ وأنت أقررتَ به. ثمّ الرؤية لاتظهر إلاّ بالمرئيّ. لأنّ الرؤية من الأفعال المتعدّية؛ لابدّ للرؤية من مرئيّ وراء. فأمّا المرئيّ فمطلوب، وأمّا الرّائي فطالب؛ أو على العكس. فقد ثبت بإنكارك الطالبُ والمطلوبُ والرؤية، في الوجود. فتكون الألوهيّةُ والعبوديةُ قضيّةً في نفيها إثباتُها، فكانت واجبةَ الثبوت البتّة.

---

* هذا الفصل بالعربيّة في الأصل. [المترجم].

قيل: "أولئك الجماعةُ مريدون لذلك المغفّل ويعظّمونه". قلتُ: لايكون ذلك الشيخُ المغفّل أدنى من الحجر والوثن. ولعبّادها تعظيمٌ وتفخيم ورجاء وشوق وسؤال وحاجات وبكاء. وما عند الحجر شيءٌ من هذا ولا خبر ولا حسّ. فالله تعالى جعلها سببًا لهذا الصّدق فيهم، وما عندها خبر.

ذلك الفقيهُ كان يضرب صبيًّا. فقيل له: لماذا تضربُه وما ذنبُه؟- قال: أنتم ماتعرفون هذا ولد الزنا فاعل صانع. قال: ماذا عمل، ماذا جنى؟- قال: "وقت الإنزال، يعني عند التحميش [المغازلة والملاعبة] يهرب خيالُه، فيبطل عليّ الإنزال". ولاشكّ أنّ عشقه كان مع خياله. وما كان للصّبيّ خبرٌ من ذلك. فكذلك عشقُ هؤلاء مع خيال هذا الشيخ البطّال، وهو غافلٌ عن هجرهم ووصلهم وحالهم. ولكن، وإن كان العشقُ مع الخيال الغالط المخطئ موجبًا للوجد فإنّه لايكون مثل المعاشقة مع معشوق حقيقيّ خبير بصير بحال عاشقه؛ كالذي يعانق في ظلمةٍ أسطوانةً على حسبان أنها معشوق، ويبكي ويشكو؛ لايكون في اللّذاذة شبيهًا بمن يعانق حبيبه الحيّ الخبير.

الفصل الرّابع والأربعون

القرآنُ ديباجٌ ذو وجهين

[١٦١] كلّ شخصٍ عندما يعزم على السّفر إلى مكان ثم يسافر تظهر له فكرةٌ عقلية: "إذا ماذهبتُ إلى هناك تيسّرت لي مصالحُ وأعمالٌ كثيرة، ونُظمت أحوالي وسُرّ أحبّتي وانتصرتُ على أعدائي". مِثْلُ هذه هي الفكرة التي تعنّ له لكنّ مقصوده الحقيقيّ شيء آخر. وقد دبّر تدبيرات كثيرة وفكّر بِفكَر كثيرة، لكنّ أيًا منها لم يحصل وفق مراده. وبرغم ذلك يعتمد على تدبيره واختياره.

يدبّر العبدُ، وهو يجهل التقدير

ولا يبقى التدبيرُ مع تقدير الحقّ

وهذا مِثْلُ أن يرى شخصٌ في المنام أنه حلّ في مدينة غريبة، وليس لديه هناك من يعرفه؛ لايعرفه أحدٌ ولا يعرف هو أحدًا. فتدركه الحيْرة، ويندم ويتجرّع الغصص والحسرات قائلاً في نفسه: "لِمَ جئتُ إلى هذه المدينة حيث لامعرفةَ ولا حبيب؟" ويغدو معلومًا لديه أنّ تلك الغُصص والتأسّفات والحسرات كانت من دون فائدة. فيندم على تلك الحال التي وجد نفسه فيها، ويرى ذلك شيئًا مُضاعًا. ومرّة أخرى عندما ينام يرى نفسَه مصادفة في مثل تلك المدينة ويبدأ بتجرّع الغمّ والغصص والحسرات. ويدركه الندم لمجيئه إلى هذه المدينة، ولا

يفكّر ولا يتذكّر: "إنّني في اليقظة كنتُ قد ندمتُ على هذا الاغتمام وأدركتُ أنّ ذلك كان ضائعًا وكان حلُمًا، ولم تكن له أية فائدة".

ومثل هذا تمامًا ماعليه حال الناس. فقد رأى الناسُ مئة ألف مرّة أنّ عزمهم وتدبيرهم باطلٌ وأنْ لاشيء تقدّم وفق مرادهم. لكنّ الحقّ تعالى يسلّط عليهم النسيان فينسَون كلّ ماحدث، ويتابعون فِكَرهم واختياراتهم.

﴿أنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٨/٢٤].

خرج إبراهيمُ بن أدهم، رحمةُ الله عليه، إلى الصّيد، عندما كان مِلِكًا. فظلّ
[١٦٦] يعدو وراء غزالٍ حتى انفصل تمامًا عن جنده وابتعد عنهم كثيرًا. وقد غرق جوادُه بالعرق من كثرة التّعب، لكنّه ظلّ يعدو. وعندما تجاوز الحدّ في تلك البريّة، بدأ الغزالُ بالكلام مديرًا وجهه إليه: "ماخُلِقتَ لهذا. وهذا الوجود لم يشكّل من العدَم لكي تصطادني. وحتى على افتراض أنّك تمسك بي، ماذا ستكون نتيجة ذلك؟".

وعندما سمع إبراهيمُ هذا الكلام صرخ، وألقى بنفسه من ظهر الفرس. لم يكن في تلك الصحراء أحدٌ سوى راعٍ. فتضرّع إليه إبراهيم قائلاً: "خُذْ منّي البستي الملكيّة المرصّعة بالجواهر، وسلاحي، وجوادي، وأعطني ثيابك الخشنة، ولا تخبر أحدًا بذلك، ولا تعطِ أحدًا أيّة علامة على ماجرى لي". ارتدى ذلك اللّباسَ الخشن ومضى في طريقه.

والآن انظر ماذا كان غرضُه، وماذا كان مقصوده الحقيقيّ. اراد أن يصطاد الغزال فاصطاده الحقّ بالغزال، لكي تدرك أنّه في هذه الدنيا إنّما يحصل مايريده الحقُّ، وأنّ المراد مُلْكُه، وأنّ المقصود تابعٌ له.

دخل عمر، رضي الله عنه، قبل إسلامه بيتَ أخته. كانت أختُه تقرأ من القرآن قوله تعالى: ﴿طه، ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢٠/١-٢] بصوت

مرتفع. عندما رأت أخاها أخفت القرآن والتزمت الصمت. امتشق عمر حسامه وقال: "لابدّ من أن تقولي ماذا كنت تقرئين ولِـمَ أخفيتِه، وإلاّ قطعتُ رأسَكِ بالسَّيف في هذه اللحظة من دون شفقة".

فخافت أختُه خوفًا عظيمًا. وإذْ كانت تعرف غضبَه وهيبته أقرّت بسبب الخوف على روحها قائلةً: "كنتُ أقرأ من هذا الكلام الذي أرسله الحقّ تعالى في هذا الزمان إلى محمّد ﷺ". فقال: "اقرئي، لكي أسمع". فقرأت سورة "طه". غضب عمر غضبًا شديدًا وقال: "إذا قتلتُك في هذه اللحظة فسيكون ذلك قتلاً لعاجز، فسأذهب أولاً فأقطع رأسه، وبعدئذ أنشغل بأمرك". وهكذا اتجه إلى مسجد المصطفى ممتشقًا سيفه يلفّه غضبٌ شديد. وفي الطريق عندما رآه صناديدُ قريش قالوا: "ها، يريد عمرُ محمّدًا. قطعًا إن كان شيءٌ سيحصل فسيحصل بهذه الطريقة". لأنّ عمر كان على قدر كبير من القوّة والرّجولة؛ وكلُّ جيشٍ غالبه عمر كان الغالبَ لامحالة وكان يعرض رؤوسهم المقطوعة [١٦٣] علامةً على غلبته؛ إلى حدّ أنّ المصطفى ﷺ كان يقول دائمًا: "اللهمّ، انصر الإسلام بأحد العُمَرَيْن؛ عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام المعروف بأبي جهل"، لأنّ هذين الاثنين كانا في زمانه مشهورين بالبأس والرّجولة.

وفي النهاية عندما أسلم عمر كان كثيرًا مايبكي ويقول: "يارسولَ الله، ويلٌ عَلَيّ، لو أنّك كنتَ قدّمتَ أبا جهل وقلت: "اللهمّ، انصر الإسلامَ بأبي جهل أو بعمر!" فماذا كنتُ ساكون! ساكون قد بقيتُ في الضلال".

وعلى الجملة، توجّه عمر ممتشقًا سيفه نحو مسجد الرسول ﷺ. وفي هذه الأثناء أتى جبريل عليه السلام بوحي إلى المصطفى ﷺ: "يارسول الله، عمر يأتي لكي يتحوّل إلى الإسلام. خذه في حضنك". وعندما دخل عمر من باب المسجد رأى على نحو واضح تمامًا أنّ سهمًا من النور طار من المصطفى عليه السلام واستقرّ في قلبه. فصاح ووقع مغشيًّا عليه. ظهرت المحبةُ والعشق في

روحه، وتمنّى لو أنّه يذوب في المصطفى عليه السلام بسبب فرْط المحبّة، ولم يبقَ له وجود. ثم قال: "الآن، يانبيَّ الله، اعرِض عليّ الإيمان وقل تلك الكلمة المباركة لكي أسمع". وعندما أسلم قال: "الآن، مقابلَ ماكان من مجيئي ممتشقَ السّيف قاصدًا قتلك وكفّارةً لذلك، كلّ من أسمع منه انتقاصًا لك بعد الآن لن أعطيه الأمان. وبهذا السيف سأفصل رأسه عن جسده".

وعندما كان خارجًا من المسجد، لقي أباه على حين غِرّة. قال أبوه: "أصبأتَ؟" وفي الحال فصل رأسه عن جسده، ومضى حاملاً سيفه الملطّخ بالدّماء. وإذ رأى صناديدُ قريش السّيف الملطّخ بالدم قالوا: "كنتَ قد وعدتَ بأن تأتي برأسه. فأين رأسُه؟"- قال: "هذا هو". فقال أحدهم: "أتيتَ برأسه من هنا؟" فأجاب: "لا. هذا ليس ذلك الرأس. هذا لشخص آخر".

والآن، انظر ماذا كان قصدُ عمر، وماذا كان مراد الحقّ تعالى منه، لكي تعلم أنّ الأمور كلّها تكون وفق مايريد.

يأتي عمر قاصدًا الرّسولَ والسّيفُ في يده،

فيقع في شَرَك الحقّ، وبسبب الحظّ السعيد يظفر بالنظر الصحيح*.

والآن، إذا قالوا لكم أيضًا: "بماذا أتيتم؟". فقولوا: "جئنا بالرأس". فإذا قالوا: "كنّا قد رأينا هذا الرأس"، فقولوا: "لا، هذا ليس ذلك الرأس، هذا رأسٌ آخر". الرأسُ هو الذي فيه سِرٌّ، وإلاّ فإنّ ألفَ رأسٍ لاتساوي درهمًا. فتلوا هذه الآية:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

---

* بيت من غزَلٍ لمولانا جلال الدّين. [المترجم].

قال إبراهيمُ: "يارب، مثلما شرّفتني بخلعة رضاكَ واخترتني، امنح ذرّيتي أيضًا هذه الكرامة". فقال الحقّ تعالى:

﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٢٤].

أي "إنّ أولئك الظالمين ليسوا أهلاً لخِلعتي وكرامتي". عندما عرف إبراهيم أنّ الحقّ تعالى ليس له عناية بالظالمين والطّاغين قيّد، فقال: "يارب، أولئك الذين آمنوا ولم يظلموا، اجعلْ لهم نصيبًا من رزقك ولا تمنعه عنهم". فقال الحقّ تعالى: "إنّ الرّزق عامٌّ، ولكلّ الناس نصيبٌ منه. والخلق كلّهم ينتفعون ويكون لهم نصيب من دار الضّيفان هذه. أمّا خِلعةُ الرّضا والقبول وتشريف الإكرام فمن نصيب الخاصّة والمصطفَين".

يقول أهلُ الظاهر: "إنّ المراد من هذا (البيت) هو الكعبة، التي كلّ من يأوي إليها يظفر بالأمان من الآفات، ويُحرَّم فيها الصّيد، ولا يجوز فيها إلحاقُ الأذى بأيّ إنسان. وقد آثرها الحقّ تعالى لتكون بيتًا له". وهذا صحيح وطيب؛ إلاّ أنّ هذا ظاهرُ القرآن. أمّا أهل التحقيق فيذهبون إلى أنّ (البيت) المراد هنا هو باطنُ الإنسان؛ أي: "يارب، أخلِ باطني من الوسواس والمشاغل النفسانية وطهّره من الشهوات والفِكَر الفاسدة والباطلة؛ حتى لايبقى فيه خوفٌ ويظهر فيه الأمن، ويكون كلُّه محلاً لوَحْيك، ولا يكون فيه طريق للشيطان والوسواس".

مثلما أنّ الحقّ تعالى كلّف الشهب بأن ترقب السّماء حتى تمنع الشياطين من
استماع أسرار الملائكة؛ لكي لايطّلع أحدٌ على أسرارها وتكون في منأى عن [١
كلّ الآفات. أي: "يارب، كلّف حرَس عنايتك أيضًا بمراقبة باطننا، لكي يُبعدوا عنّا وساوسَ الشياطين وحِيَل النفس والهوى". هذا هو قول أهل الباطن وأرباب التحقيق. وكلّ إنسان يتحرّك من مكانه. القرآن ديباجٌ ذو وجهين. يستفيد بعضُهم من هذا الوجه، وبعضهم من ذلك الوجه. وكلا الوجهين صحيح؛ لأنّ

الحقّ تعالى يريد أن يستفيد منه الفريقان. مثلما يكون للمرأة زوجٌ وطفلٌ رضيع؛ لكلّ منهما نصيبٌ مختلفٌ عن نصيب الآخر: فللطفل لذّةٌ في ثديها ولبنها، وللزّوج لذّة في الزّواج منها. بعض الناس أطفالٌ في الطريق؛ يجدون لذّةً في المعنى الظاهر للقرآن، ويشربون ذلك الحليب. أمّا أولئك الذين بلغوا مرتبة الكمال فلهم لذّة أخرى وفهمٌ آخر لمعاني القرآن.

إنّ مقام إبراهيم ومصلاّه هو مكانٌ قربَ الكعبة، يقول أهلُ الظاهر: إنّ المسلم يجب أن يُصلّي فيه ركعتين. وهذا حسَنٌ والله. أمّا مقام إبراهيم عند المحقّقين فيعني أنّ عليك أن ترمي بنفسك في النار مثْل إبراهيم من أجل الحقّ، وأن تأتي بنفسك إلى هذا المقام بالمجاهدة والسّعي في طريق الحقّ، أو قرب هذا المقام. فيكونُ الإنسانُ عندئذ قد ضحّى بنفسه من أجل الحقّ؛ أي إنّه لايبقى للنفس لديه أيُّ خطر ولا يرتعد من أجل نفسه. صلاةُ ركعتين في مقام إبراهيم شيءٌ رائع؛ لكنّها الصلاةُ التي قيامُها في هذا العالم وركوعها في ذلك العالم.

المقصودُ من الكعبة قلوبُ الأنبياء والأولياء، التي هي محلُّ وحْي الحقّ. والكعبة المعروفة فرعٌ لذلك. إذا لم تكن القلبَ فما فائدة الكعبة؟ ترك الأنبياءُ والأولياء مراداتهم تمامًا، واتّبعوا مرادَ الحقّ. وكلّ مايأمر به يفعلونه. وكلّ مَنْ ليس له عناية به، حتى لو كان أبًا أو أمًّا، لم يقيموا له وزنًا، وبدا في أعينهم خصمًا.

وضعْنا في يدكَ عِنانَ قلبنا،

وكلُّ ماتقول إنّه ناضجٌ، نقول إنّه محترق.

كلُّ ماأقولُه هو مثالٌ، وليس مَثلاً. المثال شيءٌ والمَثل شيءٌ آخر. فقد شبّه الحقّ تعالى نوره بمصباح، على جهة المثال، ووجودَ الأولياء بزجاجة، أيضًا على سبيل المثال. نورُ الحقّ لايسعه الكونُ والمكان؛ فكيف والحالُ كذلك تسعُه

[١٦٦] زجاجةٌ ومصباح؟- كيف يتسع القلبُ لمشارق أنوار الحقّ جلّ جلاله؟- وبرغم ذلك عندما تطلبه [نور الحقّ] تجده في القلب، ليس من وجهة أنّه ظرفٌ يقبع فيه ذلك النّور، بل من وجهة أنّك تجد أنّ ذلك النور يشعّ من ذلك المكان. تمامًا مثلما تجد صورتك في المرآة؛ برغم أنّ صورتك ليست في المرآة، لاترى نفسك إلاّ عندما تنظر في المرآة.

الأشياءُ التي تبدو غير معقولة، عندما يعبَّر عنها بالمثال تغدو معقولة؛ وعندما تغدو معقولة تصبح محسوسة. وذلك مِثْلُ أن تقول: إنّه عندما يُغمض الإنسانُ عينيه يرى أشياء عجيبة، ويشاهد صورًا وأشكالاً محسوسة؛ وعندما يفتح عينيه لايرى شيئًا البتّة. ولا يرى أحدٌ هذا معقولاً ولا يصدّقه؛ ولكن عندما تقدّمه بمثال يغدو معلومًا. وكيف يكون هذا؟ إنّه مِثْلُ أن يرى شخصٌ في منامه مئة ألف شيء، مما لايمكن أن يرى منه في اليقظة شيئًا واحدًا. أو مثل أن يتخيّل مهندسٌ في داخله صورةَ منزل كاملٍ بعرضه وطوله وشكله. وهذا لايبدو معقولاً لأحدٍ. ولكن عندما يرسم مخطّط هذا المنزل على الورق يغدو ظاهرًا؛ وإذْ يُعطي صورةً محدّدة يغدو معقولاً بتفاصيله لكلّ من ينظر إليه. وبعد ذلك عندما يغدو معقولاً يبدأ المهندس ببناء المنزل وفقًا لذلك التصميم، ويغدو المنزل محسوسًا.

وهكذا يُستيقَن أنّ الأشياء غير المعقولة تغدو معقولةً ومحسوسةً باستخدام المثال. وهذا مِثْلُ مايقولون من أنه في ذلك العالم تتطاير الكُتب، بعضها باليمين وبعضها بالشّمال. وهناك أيضًا الملائكة والعرش والنّار والجنّة والميزان والحساب والكتاب؛ لايُدرَك شيء منها إلاّ بالتمثيل له. وبرغم أنّه في هذا العالم لايوجد مِثْلٌ لتلك الأشياء، فإنها تتعيّن بالمثال. ومثالُ ذلك في هذا العالم أنّه في اللّيل ينام الخلقُ كلّهم، الحذّاء والملك والقاضي والخياط وسواهم. كلُّ الفِكَر تطير منهم، ولا يبقى لأحدٍ فكرة. حتى إذا تنفّس بياض الصبح كنفخة إسرافيل أعاد

الحياةَ إلى ذرّات أجسامهم؛ وفِكَرُ كلّ منهم تأتي إليه كالكتاب المتطاير [يوم الحساب] من دون أي خطأ: فكرة الخيّاط إلى الخيّاط، وفكرة الفقيه إلى الفقيه، وفكرة الحدّاد إلى الحدّاد، وفكرة الظالم إلى الظالم، وفكرة العادل إلى العادل. أنامَ أحدٌ في الليل خيّاطًا، ثم استيقظ في النهار حذّاءً؟ لا؛ لأنّ ذلك كان عمله وشغله قبلُ، فيغدو ثانيةً مشغولاً به. ومن هذا تعلم أنّه في ذلك العالم أيضًا يحدث مثلُ ذلك، وليس هذا محالاً، وهو يقع في هذا العالم.

وهكذا فإنّ الإنسان إذا استخدم هذا المثال، ووصل إلى رأس الخيط، شاهد كلّ أحوال ذلك العالم في هذه الدنيا؛ كلّها تُكشفُ له، حتى يدرك أنّ الأشياء كلّها في قبضة الحقّ. كثيرةٌ هي العظام التي يمكن أن تراها نخرة في القبر؛ ولكنها مستمتعةٌ براحة عَذْبة ونوم مُسْكِر، مدركةٌ تمامًا تلك اللّذة والسُّكْر. وهذا ليس كلامًا جزافًا؛ فإنّ الناس يقولون: "طيّب الله ثراه"، فإذا لم يكن للتراب عِلْمٌ بالطّيب فكيف يقولون مِثْلَ ذلك؟

أبقى اللهُ ذلك الصَّنَم الشّبيه بالقمر مئة عام،

وجعل قلبي كِنانةً لسهام دموعه.

على ثرى بابه ماتَ قلبي سعيدًا،

داعيًا: "يارب، طَيِّبْ ثراه".

ومثال هذا واقعٌ في عالم المحسوسات. وهذا مِثْلُ أنّ شخصين ناما في فراش واحد. فيرى أحدُهما نفسَه وسط مأدبة، وروضة وَرْد، وجنّة غنّاء، ويرى الآخرُ نفسَه وسط ثعابين، وزبانية جهنم، وعقارب. وإذا فتّشتَ مابين الاثنين فلن ترى هذا ولا ذلك. وإذن فما العجبُ إذا كانت أجزاءُ بعض الناس حتى في القبر في بهجة وراحة وسكْر، وأجزاء الآخرين في عذابٍ وألمٍ وضيقٍ، ثم لاترى أنتَ لا هذا ولا ذاك؟ وهكذا يُعْلَم أنّ غير المعقول يغدو معقولاً باستخدام المثال.

والمثال لايشبه المَثل. وهكذا فإنّ العارف يعطي اسم (الرّبيع) للرّاحة والسّعادة والبَسْط، ويسمّي القَبْض والغمّ (الخريف)؛ فبمَ يُشْبه السّرورُ الرّبيعَ، والغمُّ الخريفَ، من ناحية الصّورة؟ لكنّ هذا مثالٌ لايستطيع العقلُ من دونه تصورّ ذلك المعنى وإدراكه. وهكذا يقول الحقّ تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: ٣٥/١٩-٢١].

نسب الحقُّ الإيمانَ إلى النور والكفر إلى الظلمة، أو نسب الإيمانَ إلى الظلّ البهيج والكفرَ إلى الشمس الحارقة التي لا رحمة فيها والتي تجعل الدّماغ يغلي. فما وجهُ الشّبه بين ضياء الإيمان ولطفه، وبين نورِ عالَمِنا، أو بين قذارة الكفر وظلمته وبين ظلمة هذا العالم؟

إذا حدث أن نام شخصٌ أثناء حديثنا، فإنّ ذلك النوم ليس ناشئًا عن الغفلة، بل عن الإحساس بالأمن. على غرار مايحدث عندما تنطلق القافلةُ في طريقٍ صعبٍ مخوفٍ في اللّيلة المظلمة؛ فإنهم ينلفعون بسبب الخوف، خشية أن يلحقهم أذًى من الأعداء. ومتى وصل إلى أسماعهم صوتُ كَلْبٍ أو ديكٍ وحازوا إلى القرية ارتاح بالُهم وتمدّدوا وغطّوا في نومٍ عميق. وفي الطريق، حيث لاصوت ولا همهمة، لم يأتهم النّومُ بسبب الخوف؛ وفي القرية، حيث الأمنُ موجودٌ، وبرغم كلّ نباح الكلاب وصياح الدّيكة تهدأ نفوسُهم وتطيبُ، ويشرعون في النّوم.

كلامُنا أيضًا يأتي من العمران والأمان؛ فهو حديثُ الأنبياء والأولياء. فالأرواحُ عندما تسمع حديث الأحبّة الذين تعرفهم تأمنُ وتتحرّر من الخوف، لأنّه من هذا الحديث تأتيها رائحةُ الأمل والسّعادة. وهذا مثْلُ أنّ شخصًا في ليلةٍ مظلمة يسير مع قافلة، يظنّ كلّ لحظةٍ بسبب فرط الخوف أنّ اللّصوص قد

اختلطوا بالقافلة. فيشتاق إلى أن يسمع كلام رفاق الطريق، ويتعرّفهم من كلامهم. وعندما يسمع كلامهم يداخله الأمان. "قل: يامحمّد، اقرأ"، لأنّ جوهرك لطيفٌ، لاتصل إليك الأنظارُ؛ عندما تتكلّم يكتشفون أنّك الصديق المألوف لأرواحهم فيشعرون بالأمان، ويكونون في طمأنينة. فتكلّم.

كفى بجسمي نحولاً أنّني رجلٌ لولا مخاطبتي إيّاكَ لم ترني*

في المزرعة كائنٌ حيٌّ صغير بسبب صِغره المتناهي لايبدو للنظر؛ ولكن عندما يصوّت يراه الناسُ بالصّوت. يعني أنّ الخلائق في مزرعة الدّنيا مستغرقون، وذاتُك من غاية اللّطف لاتبدو للنظر، فتكلّم لكي نعرفك. عندما تريد الذهابَ إلى مكان، يذهب أولاً قلبُك ويشاهد ويطّلع على أحوال ذلك المكان، بعدئذ يعود القلبُ فيصحب البدن. والآن فإنّ جملةَ الخلق نسبةً إلى الأولياء والأنبياء أجسامٌ، أمّا هؤلاء الأولياء والأنبياء فهُمْ قلبُ العالَم. في البدء ساروا إلى ذلك العالم، وخرجوا من البشريّة ومن اللحم والجلد. واطّلعوا على أسفل ذلك العالم [١٦٩] وهذا العالم وعلى أعلاهما، واجتازوا المنازل، حتى غدا معلومًا لديهم كيف ينبغي أن يمضي الإنسانُ في الطريق. وبعدئذ جازوا ودعوا الخلائق قائلين: "تعالَوا إلى ذلك العالم الأصليّ؛ لأنّ هذا العالم خرابٌ ودارٌ فانية؛ وقد ظفرنا بمكان رائعٍ، نخبركم عنه".

وهكذا يغدو معلومًا أنّ القلب في جميع الأحوال ملازمٌ للمعشوق، وهو ليس في حاجة إلى قطع المنازل، ولا إلى الخوف من قطّاع الطّرق، ولا إلى سَرْج البغل. فالجسمُ المسكين هو المقيَّد إلى هذه الأشياء.

قلتُ لقلبي: أيها القلبُ، إنّك بسبب الجهل،

محرومٌ من خدمة مَنْ تعدّه مليكًا.

---

* بيتٌ مشهور لأبي الطيب المتنبي. [المترجم].

فقال القلبُ: إنّك تخطئ في قراءتي بهذه الطريقة،

أنا ملازمٌ لخدمته، لكنّك أنت الضّالّ الحائر*.

في أيّ مكان تكون، وفي أيّة حال تكون، اجتهد في أن تكون مُحِبًا وعاشقًا. وعندما تغدو المحبّةُ مُلْكًا لك، ستكون دائمًا محبًّا؛ في القبر وفي الحشر وفي الجنّة وفي كلّ مكان. عندما تزرع قمحًا، قطعًا سينمو منه قمحٌ، وسيكون في المخزن أيضًا قمحًا، وفي التّنور قمحًا.

أراد المجنونُ أن يكتب إلى ليلى رسالةً، فأمسك بالقلم وكتب هذا البيت:

خيالُك في عيني واسمُك في فمي وذكرُكِ في قلبي، إلى أين أكتب؟

خيالك مقيمٌ في عيني، واسمك لايغادر لساني، وذكرك يحتلّ أعماق روحي، فإلى أين أوجّه الرسالة وأنتِ تدورين في هذه الأماكن؟- انكسر القلمُ وانشقّ الورق.

هناك الكثيرُ من الأشخاص الذين تكون قلوبُهم ممتلئة بهذه الكلمات، لكنهم لايستطيعون التعبير عنها بالعبارات والألفاظ برغم أنّهم عشّاق وطالبون ومتشوّقون إلى هذا. ولا عجب في هذا، ولا يكون هذا مانعًا للعِشْق؛ بل على العكس، فإنّ الأصل هو القلبُ والشوق والعشق والمحبّة. مثلُ ذلك الطفل الذي
[١٧٠] يكون عاشقًا للحليب ويستمدّ من ذلك القدرة والقوّة؛ وبرغم هذا لايستطيع وصف الحليب، أو تقديم تحديد له، ولا يستطيع أن يقول بلُغة العبارة: "اللّذّة التي أحصل عليها من شرب الحليب هي كذا، وبعدم شربه سأكون ضعيفًا ومتألّمًا"، برغم أنّ روحه مشتاقة وعاشقة للحليب. أمّا البالغ، فبرغم أنّه يشرح الحليب بآلاف الطّرق، لايجد فيه لذّة، وليس له حظٌّ من ذلك.

* رباعية منسوبة إلى مولانا. [المترجم].

الفصل الخامس والأربعون

اسأل الحقّ

ما اسمُ ذلك الشّابّ؟ سيفُ الدّين.

قال مولانا: إنّ السيف في الغمد لايمكن رؤيتُه. وسيف الدّين هو ذلك الذي يحارب من أجل الدّين، وسعيُه كلّه من أجل الحقّ، وهو الذي يبيّن الصّواب من الخطأ، ويميّز الحقّ من الباطل. لكنّه في البدء يحارب نفسَه ويهذّب أخلاقه: "ابدأ بنفسك". ويوجّه كلّ نصائحه إلى نفسه قائلاً: "وفي الآخر، أنتَ أيضًا إنسان، لك يدان ورِجْلان، وأذنان وفهم، وعينان وفم. والأنبياءُ والأولياء أيضًا، وهم الذين ظفروا بالسعادة ووصلوا إلى مقصودهم، كانوا بشرًا، ومثلي كان لِكلّ منهم أذنان وعقل ولسان ويدان ورجلان. فما معنى أن يُعطَوا الطّريق ويُفتح لهم الباب، ولا يكون لي ذلك؟

مِثْلُ هذا الإنسان يفرك أذنَه ويحارب نفسه ليلاً ونهارًا قائلاً: "ماذا فعلتَ، وأيّة حركةٍ صدرتْ عنك حتى لم تُقبل؟" وهكذا يستمرّ، حتى يغدو سيفَ الله ولسانَ الحقّ.

على سبيل المثال، عشرة أشخاص يريدون أن يدخلوا منزلاً. تسعة منهم يجدون الطريق، وواحد يبقى خارجًا ولا يُعطى الطريق. لاشكّ في أنّ هذا الشخص سيفكّر في داخله وينوح قائلاً: "عجبًا، وماذا فعلتُ حتى لم يأذنوا لي

بالدّخول، وماذا صدر عنيّ من قلّة الحياء؟" ذلك الرّجل ينبغي أن يعزو الجرم إلى نفسه ويرى نفسه مقصّرًا ومفتقرًا إلى الأدب. لاينبغي أن يقول: "هذا مايفعله الحقّ بي؛ ماذا أستطيع أن أفعل؟ إرادتُه هي هذه، إذا شاء أعطى الطريق"؛ لأنّ هذه الكلمات كنايةٌ عن شَتْم الحقّ وامتشاق السّيف على الحقّ؛ وهكذا فإنه بهذا المعنى سيفٌ على الحقّ، لاسيف الله.

الحقّ تعالى منزّهٌ عن الأقرباء ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣/١١٢]. لايجد إنسانٌ طريقًا إليه إلاّ بالعبودية ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨/٤٧]. من غير الممكن أن تقول عن الشخص الذي وجد طريقًا إلى الحق: "كان أقربَ منّي نسبًا إلى الله، وأكثر منّي معرفةً، وأكثر منّي ارتباطًا به". وهكذا فإنّ القرب من الحقّ لايتيسّر إلاّ بالعبوديّة. هو المعطي على الإطلاق؛ وقد ملأ طرف البحر بالجوهر، وألبس الشوكَ خِلْعةَ الورد، وأعطى حفنة التراب حياةً وروحًا، من دون غرضٍ وسابقة. وكلّ أجزاء العالم لها نصيبٌ منه. عندما يسمع شخص بأنّ في مدينة كذا كريمًا يُغدق الأعطيات والهبات العظيمة، فإنه يمضي مدفوعًا [١٧٢] بهذا الأمل إلى ذلك الشخص ليكون له نصيبٌ منه. وهكذا إذا كان إنعامُ الحقّ على هذا النحو من الشهرة، والعالَمُ كلّه مطّلعٌ على ألطافه، فلِمَ لاتطلب جدواه وتطمع بخِلَعِه وصلاته؟- تجلس متعطّلاً قائلاً: "إذا شاء هو أعطاني"؛ ولا تطلب منه البتّة. الكلبُ، الذي لايملك عقلاً وإدراكًا، حين يجوع ولا يجد خبزًا يأتي إليك محرّكًا ذيله، وكأنه يقول لك: "أعطِني خبزًا؛ لأنه ليس عندي خبز، وعندك خبز". لديه هذا القدر من التمييز. وفي النهاية، لستَ بأقلّ من الكلب الذي لايرضى بأن ينام في الرّماد ويقول: "إذا أراد أعطاني خبزًا"؛ بل يطلب ويهزّ ذيله. أنت أيضًا هزَّ ذيلك، واطلب من الحقّ، واستجدِ؛ ذلك لأنّ الاستجداء من مثل هذا المعطي مطلبٌ عظيم. عندما تكون غير محظوظ، اطلب حظًا من شخص ذي سخاء وثراء.

الحقّ قريبٌ جدًّا منك. كلُّ فكـرة وتصـوّر تتصوّرهمـا يكـون الحـقّ ملازمًا لهما؛ لأنّه هو الذي يعطي الوجود لذلـك التصـوّر وتلـك الفكـرة ويجعلهمـا في متناولك. لكنّه لزيادة قُرْبه لاتستطيع أن تراه.

وما العجب في ذلك؟- وكلُّ عمـلٍ تعمله يكـون عقلُـك معـك عنـد عملـه ويشرع في ذلك العمل، وبرغم ذلك لا يمكنك رؤيةُ العقل. وبرغـم أنّـك تـرى أثَرَه، فإنك لاتستطيع رؤية ذاته. على سـبيل المثـال، ذهـب شـخصٌ إلى الحمّـام فأحسّ بالحرارة. أينما دار في الحمّام كانت النارُ معه وبتأثير حرارة النـار أحـسّ بالحرارة؛ لكنّه لايرى النار. وعندما يخرج ويرى النـار عيانًـا ويـدرك أنّـه أحـسّ بالحرارة بسبب النار، يعرف أنّ حرارة الحمّام أيضًا إنّما كانت من النـار. وجـودُ الإنسان أيضًا حمّامٌ عجيب، فيه حـرارةُ العقـل والـرّوح والنفـس. ولكـن عنـدما تخرج من الحمّام وتمضي إلى الآخرة، ترى عندئذٍ عيانًا ذاتَ العقل وذات النفـس وذات الرّوح. فتعلم يقينًا عندئذٍ أنّ ذلك الذّكـاء إنّمـا كـان مـن حـرارة العقـل، وذلك التلبيس والحِيَل إنّما كـانت مـن النفـس، وتلـك الحيـاة إنّمـا كـانت بتـأثير الرّوح. وهكذا ترى عيانًا ذاتَ كلّ من هذه الثلاثـة. ولكـن مـادمتَ في الحمّـام لايمكن أن ترى النار على نحو محسوس، بل ترى أثرها فحسبُ.

وهذا كحال شخصٍ لم يرَ ماءً جاريًا البتّة، فأُلقي في الماء معصـوبَ العينين. فيضرب جسمَه شيءٌ رطب وناعم، لكنّه لايعرف ماذلك الشـيء. عندمـا يُـزال الحجابُ عن عينيه يدرك تمامًا أنّ ذلك إنّما كان ماءً. في البـدء عـرف أثـره، وفي هذه اللحظة يرى ذاته.

وهكذا اسأل الحقَّ، واطلبْ حاجتك منه، فإنّ طلبك لايضيع؛

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠].

كنّا في سمرقند، وكان خوارزمشاه قد حاصر سمرقند ونشر الجند تهيّؤًا للقتال. كان في تلك المحلّة سيّدةٌ فائقة الجمال ليس لها نظيرٌ في تلك المدينة. كلّ لحظة كنتُ أسمعها تقول: "يارب"، كيف تأذن بأن تُسلمني إلى أيدي الظالمين؟ وأنا أعرف أنّك لاتجيز ذلك أبدًا، فأعتمد عليك". وعندما هوجمت المدينة أُخِذَ الناسُ كلّهم أسرى، وأُسرت فتيات تلك السيّدة. أمّا هي فلم يُصبها أيّ أذى، وبرغم أنها في غاية الجمال، لم ينظر إليها رجل. وهكذا تعلم أنّ كلّ من يُسْلِم نفسَه إلى الحقّ يأمن الآفات ويسلم من البليات، وأنّه لم يضِع في حَضرته مطلبُ إنسان.

علّم أحدُ الدّراويش ابنَه أنّ كلّ شيء كان يطلبه، كان أبوه يقول له: "اطلبْه من الله". فعندما كان يبكي ويطلب ذلك الشيء من الله كان يُحضَر له ذلك الشيء؛ حتى مضى على ذلك سنوات. وفي يوم من الأيام كان الطفل وحيدًا في المنزل، فاشتاق إلى الهريسة. فقال وفق طريقته المعهودة: "أريدُ هريسة". وفي الحال حضرت قصعةُ هريسة من عالم الغيب. فأكل الطفل حتى شبع. وعندما جاء الأبُ والأمّ قالا: "ألا تريد شيئًا؟"- فقال: "طلبتُ هريسة فأكلتُ". فقال أبوه: "الحمدُ لله، أن وصلتَ إلى هذا المقام، وقوي اعتمادك على الحقّ وثوقك به".

عندما وَلدت أمّ مريمَ مريمَ نذرت لله أن تجعلها خادمةً لبيت الله، ولا
تأمرها بأيّ عمل لها؛ وهكذا تركتها في زاوية المسجد. أراد زكريا أن يعتني
بها؛ كما أراد كلّ إنسان أن يفعل الشيء نفسه، فوقع بينهم نزاع. وفي ذلك
الزمان جرت العادة أنْ يُلقي كلُّ شخصٍ عُودًا في الماء، ومن طفا عودُه فوق (١٧٦)
الماء كان ذلك الشيء المتنازع عليه من نصيبه. واتّفق أن صحّ فأل زكريا.
فقالوا: "هو صاحبُ الحقّ". كلَّ يوم كان يأتي لها بطعام، فيجد دائمًا نظيره
تمامًا في زاوية المسجد. فقال: "يامريمُ، أنا وصيُّك، فأنّى لكِ هذا؟"- فقالت

مريم: "كيف أحتاج إلى الطعام وكلّ ماأريده يرسله الحقّ تعالى إليّ؟ إنّ كرَمَه ورحمته لانهاية لهما، وكلّ من اعتمد عليه لم يضع اعتمادُه". فقال زكريّا: "يارب، أمّا وقد يسّرتَ حاجة كلّ مخلوق فأنا أيضًا لديّ رجاء، يسّره لي، وهب لي من لدنك ولدًا يكون حبيبًا لك. ومن دون أن أحثّه يجد أنسًا بك وينشغل بطاعتك". فجاء الحقّ بيحيى إلى الوجود بعد أن تقوّس ظهرُ أبيه ونال منه الضّعفُ. وأمّه التي لم تلد في شبابها، وصارت عجوزًا كبيرة، حاضت وحملت.

ومن هنا تستيقن أنّ ذلك كلّه أمام قدرة الحقّ مجرّدُ ذريعة، وأنّ كلّ شيء منه، وأنّه هو الحاكمُ المطلق في الأشياء. والمؤمن هو الذي يعرف أنّ وراء هذا الجدار واحِدًا مطّلعًا على أحوالنا كلّها، واحدًا واحدًا، وأنّه يرانا برغم أنّنا لانراه، وقد صار هذا لديه يقينًا. خلافًا لذلك الشخص الذي يقول: "لا، هذا كلّه حكاية" ولا يصدّق به. فسيأتي اليومُ الذي يفرك فيه الحقُّ أذنَه، فيندم ويقول: "آه، قلتُ قولاً سيّئًا وأخطأتُ. الحقيقة أنه كان كلّ شيء؛ وأنا أنكرته".

أنت، مثلاً، تعرف أنّني وراء الجدار، وأنت تعزف على الرّباب. أنتَ قطْعًا ستلتزم ولا تتوقّف؛ لأنّك عازف رباب. الصلاة لم يُؤمَر بها من أجل أن تظلّ اليومَ كلّه تركع وتسجد؛ بل الغرض منها أنّ تلك الحال التي تستشعرها في الصّلاة ينبغي أن تستمرّ معك دائمًا، سواءٌ أكنت في النوم أم في اليقظة، أم في الكتابة أم في القراءة. في الأحوال كلّها لايغيب عنك ذكر الحقّ، حتى تكون من ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣/٧٠].

وهكذا فإنّ الكلام والصّمتَ والأكل والنوم والغضب والعفو- تلك الأوصافُ جميعًا هي دورانُ طاحونة الماء التي تدور. ولاشكّ في أنّ دورانها هذا

إنما هو بفعل الماء؛ لأنها جرّبت نفسَها أيضًا من دون ماء. وهكذا فإنّ طاحونة الماء إذا رأت ذلك الدّوران منها هي، كان ذلك عينَ الجهل والحُمْق.

[١٧٥] وهكذا فإنّ ذلك الدّوران يحدث في ميدان ضيّق لأنّ أحوال هذا العالم هي هكذا. تارَةً إلى الحقّ قائلاً: "يارب، يسِّر لي دورانًا آخر روحانيًا غير هذا الدّوران والسَّير؛ لأنّ الحاجات كلّها تُقضى من جنابك، وكرَمُك ورحمتك يشملان الموجودات جميعًا". وهكذا اعرضْ حاجاتك كلّ لحظة ولا تغفل لحظةً عنه؛ لأنّ ذِكْرَه قوّةٌ وريشٌ وجناحٌ لطائر الرّوح. فإذا ماتحقّق ذلك المقصود تمامًا فإنّ ذلك "نورٌ على نور". فبذكْر الحقّ يُنوِّر باطنُ الإنسان شيئًا فشيئًا، ويتأتّى انقطاعُك عن العالم. وعلى سبيل المثال، هذا مِثلُ أن يريد طائرٌ أن يطير إلى السماء، فبرغم أنه يصل إلى السماء، كلّ لحظة يبتعد عن الأرض ويعلو على الطّيور الأخرى. أو مِثْلُ أن يكون في حُقّةٍ شيءٌ من المِسْك، وهي حُقّة ذات عنق ضيّق، فتُدخِل يدَك فيها ولا تستطيع إخراجَ المِسْك، ولكن برغم هذا تتعطّر يدُك ويشمّ أنفك رائحة طيبة. وهكذا أيضًا ذِكْرُ الحقّ: برغم أنّك لاتصل إلى ذاته، فإنّ ذِكْرَه، جلّ جلاله، يؤثّر فيكَ وتحصل من ذكره على فوائد عظيمة.

الفصل السّادس والأربعون

هذا العالَمُ محفِلٌ لتجلّي الحقّ

[١٧٦] الشيخُ إبراهيم درويش عزيزٌ، عندما نراه نتذكّر أحبّتنا. كـان لمولانا شمس الدّين عنايةٌ كبيرةٌ مـن جـانب الحقّ، وكـان دائمًـا يقـول للدراويش: "شيخُنا إبراهيم"، ناسبًا إيّاه إليه.

على أنّ العناية من جانب الحقّ شيءٌ، والاجتهاد شيء آخر. ولم يصل الأنبياءُ إلى مقام النبوّة بوساطة الاجتهاد، ونالوا تلك الحظوة بالعناية الإلهيّة. لكنّ السُّنّة جرت على أنّ كلّ من تكون له تلك المنزلة تكون سيرتُه وحياتُه في طريق الاجتهاد والصّلاح؛ وذلك أيضًا من أجل العوامّ، لكي يعتمدوا عليهم وعلى أقوالهم. لأنّ نظر العوامّ لاينفذ إلى الباطن. وهم لايرون إلاّ الظاهر؛ وعندما يتابع العوامّ الظاهر يجدون طريقًا إلى الباطن بوساطة ذلك الظاهر وبركته.

ومهما يكن، فإنّ فرعون أيضًا اجتهد اجتهادًا عظيمًا في البَذْل والإحسان وإشاعة الخير، ولكن لأنه لم يكن ثمّة عنايةٌ فإنّ تلك الطاعة وذلك الاجتهاد والإحسان لم يكن لها إشراق وأُخفيت تلك الأعمالُ كلّها.

وهذا مثلما يحدث عندما يعامل أميرٌ في قلعةٍ أهل القلعة بالإحسان والتفضّل وغرضُه من ذلك أن يَخرج على المَلِك ويصير طاغية. لاشكّ في أنّ ذلك الإحسان لايكون له تقدير وإشراق.

وبرغم ذلك لايمكن نفيُ العناية عن فرعون جملةً، فربما تكون للحقّ تعالى بـه عنايةٌ خفيّة، رادًّا إيّاه من أجل مصلحة ما. لأنّه لابدّ للملك من القهر واللّطـف، والخِلْعة والسّجن، الاثنين معًا. وإنّ أهل القلوب لاينفون عن فرعون العناية نفيًـا كليًّا، أمّا أهل الظاهر فيعدّونه مردودًا تمامًا، وذلك مفيدٌ من أجل قوام الظاهر.

يضع المِلِكُ أحدَهم على المشنقة، فيعلّق في موضعٍ عالٍ بحضرة عدد كبير مـن الخلق. وهو يستطيع أن يعلّقه في بيتٍ بعيدًا عن أنظار الناس، وبمسمار منخفض؛ لكنّه لابدّ من أن يرى الناسُ ويعتبروا، وأن يكون نفاذُ حُكْم المِلِك وامتثال أمـره أمرًا مشاهَدًا. ومهما يكن، فإنّ المشانق ليست كلّها من الخشـب، فـإنّ المنصب والرِّفعة والحظوة في شؤون هذه الدنيا هي أيضًا مشـنقة عظيمـة مرتفعـة. عندمـا يشاء الحقّ تعالى أن يعاقب شخصًا يعطيه في هـذه الدنيـا منصبًـا رفيعًـا ومملكـةً عظيمة، على غرار فرعون ونمرود وأمثالهما. كلّ هذه المناصب الرفيعة كالمشنقة يضعهم الحقّ تعالى فوقها حتى تطّلع جملةُ الخلق عليهـا. لأنّ الحـقّ تعـالى يقـول: "كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أعْرف": أي خلقتُ العالم كلّه، وكان الغرضُ من ذلك كلّه إظهار ذاتي تارةً باللطف وتارةً بالقهر. وليس الحـقُّ مِثْـلَ ذلـك المِلِـك الـذي يكفـي معرِّفٌ واحـدٌ للتعريـف بملكـه. ولـو صـارت ذرّاتُ العـالم كلّـه

[١٧٧] معرِّفاتٍ لكانت قاصرةً وعاجزةً عن التعريف به.

وهكذا فإنّ الناس جميعًا نهارًا وليلاً يُظْهرون الحقّ؛ لكنّ بعضهم عارفون هذا الإظهار ومطّلعون عليه، وبعضهم غافلٌ عنه. وأيًّا ماكان الأمرُ، فإنّ إظهار الحـقّ ثابتٌ. وهذا مِثْلُ أن يأمر أميرٌ بأن يُضـرب أحـدُ الأشـخاص ويـؤدّب. فيصرخ ذلك الشخصُ ويصيح؛ وبرغم هذا فإنّ الاثنين كليهمـا يُظهـرانِ حُكـم الأمـير. وبرغم أنّ ذلك الشخص يصرخ من الألم، فإنّ كلّ إنسـان يعـرف أنّ الضـارب والمضروب تحت حكْم الأمير؛ وبهذين معًـا يتّضـح إظهـارُ حُكْـم الأمـير. ذلـك الشخصُ المثبتُ للحقّ يُظهر الحقّ دائمًا، وذلك الشخصُ النافي للحقّ هـو أيضًـا

مُظهِرٌ للحقّ. ذلك لأنّ إثباتَ شيءٍ من دون نَفْيه أمرٌ لايمكن تصوّرُه، وأكثر من ذلك يكون من دون لذّةٍ وطعمٍ. ويمكن القول مثلاً: إنّ المُناظِر يقترح مسألةً في المحْفِل؛ إذا لم يكن ثمّة مُعارضٌ له يقول: "لانُسلِّم" فماذا يُثبت وأيُّ طَعْمٍ لنكته؟- ذلك لأنّ الإثباتَ في مقابلة النفي رائعٌ. وعلى النحو نفسه فإنّ هذا العالَم أيضًا محفل لإظهار الحقّ. ومن دون مُثبِتٍ ونافٍ لايكون لهذا المحفِل رونقٌ، وكلاهما مُظْهِرٌ للحقّ.

ذهب الأصحابُ إلى الأمير. فغضب عليهم قائلاً: "ماذا تفعلون كلّكم هنا؟"- فأجابوا: "إنّ جَلَبتنا واحتشادنا هذا ليس من أجل أن تظلم أحدًا أبدًا، بل من أجل أن يساعد بعضُنا بعضًا على التحمّل والصّبر ويُعاون بعضُنا بعضًا". كما هي الحال في التعزية إذ يجتمع الناسُ ليس من أجل أن يدفعوا الموت، بل من أجل أن يُسلّي صاحبُ المصيبة، وتُدفع الوحشةُ عن خاطره، إذ "المؤمنون كنفسٍ واحدة". والدّراويش في حُكم جسدٍ واحدٍ إذا تألّم فيه عضوٌ من الأعضاء تألّمت باقي الأجزاء. تدَعُ العينُ رؤيتها، والأذنُ سمعَها، واللسانُ نطقَه؛ كلّها تجتمع في ذلك المكان. شرْطُ المحبّة أن يجعل الإنسانُ نفسَه فداءً لحبيبه، وأن يلقي بنفسه في التهلكة من أجل حبيبه. لأنّهما كليهما يتوجّهان نحو شيء واحدٍ، ويغرقان في بحر واحد. ذلك هو تأثيرُ الإيمان وشرْطُ الإسلام. فما الحِمْل الذي يحملانه بجسديهما مقارنةً بالحِمْل الذي يحملانه بروحيهما؟

﴿قالُوا لا ضَيْرَ إِنّا إِلَى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٥٠].

عندما يجعل المؤمنُ نفسَه فداءً للحقّ، لِمَ يفكّر بالبلاء والخطر، وباليد والقدم؟- عندما يمضي نحو الحقّ ماحاجتُه إلى اليد والقدم؟ أعطاك الحقُّ اليدين

والرّجلين لكي ترحل منه إلى تلك الناحية؛ أما عندما تمضي نحو صانع القدم وصانع اليد، إذا فقدتَ السيطرة على يديك ووقعتَ على قدميك، ومضيتَ من دون يدين ورجلين مثل سَحَرة فرعون، فما سببُ الغمّ؟

يمكن ارتشافُ السّمّ من كفّ الحبيب الفتّان،

ويمكن أكْلُ كلماته المرّة، كالسّكّر.

ماأكثرَ مِلْحَ الحبيب، ماأكثر مِلْحَه!

وحيث يوجد المِلْحُ يستطيع القلب أن يأكل.

والله أعلمُ.

الفصل السابع والأربعون

الإرادة والرّضى*

[١٧٩] الله تعالى مريدٌ للخير والشرّ، ولا يرضى إلاّ بالخير. لأنه قال: "كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببتُ أن أعرف". لاشكّ في أنّ الله تعالى يريد الأمرَ والنهي؛ والأمر لايصلح إلاّ إذا كان المأمورُ كارهًا لما أُمِر به. طبعًا، لايقال: كُل الحلاوة والسّكّر ياجائع. وإن قيل فلا يسمّى هذا أمرًا بل إكرامًا. والنّهيُ لايصحّ عن الشيء يرغب عنه الإنسان. لايصحّ أن يُقال: لاتأكل الحجر، ولا تأكل الشوك. ولو قيل فلا يسمّى هذا نهيًا.

فلابدّ لصحّة الأمر بالخير والنهي عن الشرّ، من نفس راغبة إلى الشرّ. وإرادةُ وجود مثل هذه النفس إرادةٌ للشرّ. ولكن لايرضى [الحقّ] بالشرّ، وإلاّ لما أمر بالخير. ونظيرُ هذا من أراد التدريس؛ فهو مريدٌ لجهل المتعلّم لأنّ التدريس لايمكن إلاّ بجهل المتعلّم. وإرادةُ الشيء إرادةٌ لما هو من لوازمه. ولكن لايرضى بجهله، وإلاّ لما علّمه. وكذا الطبيبُ؛ يريد مَرَض الناس إذا أراد طبَّ نفسه، لأنه لايمكن ظهورُ طبّه إلاّ بمرض الناس. ولكن لايرضى بمرض الناس. وإلاّ لما داواهم وعالجهم. وكذا الخبّازُ؛ يريد جوعَ الناس لحصول كسْبه ومعاشه، ولكن لايرضى بجوعهم. وإلاّ لما باع الخبز.

---

* هذا الفصل بالعربيّة في الأصل. [المترجم].

ولذا، الأمراءُ والفرسانُ يريدون أن يكون لسلطانهم مخالفٌ وعدوّ، وإلاّ لما ظهرت رجولتُهم ومحبّتُهم للسّلطان، ولا يجمعهم السّلطانُ لعدم الحاجة إليهم. ولكن لا يرضون بالمخالف، وإلاّ لما قاتلوا.

وكذلك الإنسان، يريد دواعي الشرّ في نفسه لأنّه [الله] يحبّ [الإنسان] شاكرًا مطيعًا متّقيًا. وهذا لايمكن إلاّ بوجود الدّواعي في نفسه. وإرادةُ الشيء إرادةٌ لما هو من لوازمه. ولكن لايرضى بها؛ لأنه يجاهدُ بإزالة هذه الأشياء من نفسه.

فعُلِم أنّه [الله] مريدٌ للشرّ من وجهٍ وغيرُ مريدٍ له من وجه.

والخصمُ يقول: "غيرُ مريدٍ للشرّ بوجهٍ من الوجوه". وهذا محالٌ؛ أن يريد الشيءَ ولا يريد ماهو من لوازمه. ومن لوازم الأمر والنهي هذه النفسُ الأبيّة التي ترغب إلى الشرّ طبعًا، وتنفر عن الخير طبعًا. وهذه النفسُ من لوازمها جميعُ الشرور التي في الدنيا. فلو لم يُرد هذه الشرور لم يرد النفس [وإذا لم يُرد النفسَ] لايريد الأمر والنهي الملزومين للنفس. ولو رضي بها أيضًا لما أمرها ولما نهاها. فالحاصلُ: الشرُّ مُرادٌ لغيره.

[١٨٠] ثمّ يقول [الخصمُ]: "إذا كان [الله] مريدًا لكلّ خيرٍ ومن الخيرات دفعُ الشرور، فكان مريدًا لدفع الشرّ، ولا يمكن دفعُ الشرّ إلاّ بوجود الشرّ". أو يقول: "مريدٌ للإيمان" ولا يمكن الإيمانُ إلاّ بعد الكفر؛ فيكون من لوازمه الكفرُ. الحاصلُ: إرادةُ الشرّ إنما تكون قبيحةً إذا أراده لعينه؛ أمّا إذا أراده لخيرٍ فلا يكون قبيحًا. قال الله تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩/٢].

لاشكّ بأنّ القصاص شرٌّ وهدْمٌ لبُنيان الله تعالى. ولكن هذا شرٌّ جزئيٌّ، وصَونُ الخلق عن القتل خيرٌ كلّي. وإرادةُ الشرّ الجزئيّ لإرادة الخير الكلّي

ليست بقبيحةٍ. وتركُ إرادة الله الجزئيّ رضاءٌ بالشرّ الكلّي؛ فهو قبيح. ونظير هذا الأمّ؛ لاتريد زجرَ الولَد؛ لأنها تنظر إلى الشرّ الجزئيّ. والأب يرضى بزجره نظرًا إلى الشرّ الكلّي لقطع الجزء في الآكلة.

اللهُ تعالى عفوٌ غفورٌ شديدُ العقاب. فهل يريد أن يصدق عليه هذه الأقسامُ أم لا؟. فلابدّ من (بلى). ولا يكون عفوًا غفورًا إلاّ بوجود الذّنوب، وإرادةُ الشيء إرادةٌ لما هو من لوازمه. وكذا أمَرنا بالعفو وأمَرنا بالصُّلح والإصلاح. ولا يكون لهذا الأمر فائدةٌ إلاّ بوجود الخصومة. نظيره ماقال صَدْرُ الإسلام: إنّ الله تعالى أمرنا بالكسب وتحصيل المال، لأنه قال: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥/٢] ولا يمكن إنفاقُ المالِ إلاّ بالمال؛ فكان أمرًا بتحصيلِ المال". ومن قال لغيره: "قُمْ، صلّ" فقد أمره بالوضوء، وأمره بتحصيل الماء. وبكلّ ماهو من لوازمه.

الفصل الثامن والأربعون

الشكر صيدٌ للنِّعَم*

الشكرُ صيدٌ وقيدٌ للنِّعَم. إذا سمعتَ صوتَ الشكر تأهّبتَ للمزيد. إذا أحبَّ الله عبدًا ابتلاه؛ فإن صبر اجتباه، وإن شكر اصطفاه. بعضهم يشكرون الله لقهره، وبعضهم يشكرونه لِلُطفه، وكلُّ واحدٍ منهما خير؛ لأنّ الشكر ترياقٌ يقلب القهرَ لُطفًا. العاقلُ الكامل هو الذي يشكر على الجفاء في الحضور والخفاء؛ فهو الذي اصطفاه الله. وإن كان مُرادُه دركَ النار فبالشكر يستعجل مقصوده. لأنّ شكوى الظاهر تنقبض لشكوى الباطن. قال عليه السلام: "أنا الضَّحوكُ القتول" يعني ضحكي في وجه الجاني قتلٌ له. والمرادُ من الضَّحك الشكرُ مكان الشكاية.

وحُكِيَ أنّ يهوديًّا كان في جوار أحد أصحاب رسول الله. وكان اليهوديُّ على غرفة ينزل الأحداثُ والأنجاسُ وأبوالُ الصّبيان وغسيلُ الثياب إلى بيته. وهو يشكر اليهوديّ، ويأمر أهلَه بالشكر. ومضى على هذا ثماني سنين حتى مات المسلم. فدخل اليهوديُّ ليعزّيَ أهلَه، فرأى في البيت تلك النجاسات، ورأى منافذها من الغرفة، فعلم ماجرى في المدّة الماضية، وندم ندمًا شديدًا،

* هذا الفصل بالعربية في الأصل. [المترجم].

وقال لأهله: ويحَكم، لِمَ لم تخبروني، ودائمًا كنتم تشكرونني؟- قالوا: إنّه كان يأمرنا بالشكر ويهدّدنا عن ترك الشكر. فآمن اليهوديُّ.

ذِكْرُ الفاضلين عرْضٌ للفضل،

مثل المطرب الذي بغِنائه يقوّي تأثير الشّراب.

ولهذا ذكر الله في القرآن أنبياءه وصالحي عباده وشكْرهم على ما فعلوا لمن قدر وغفر.

الشكرُ امتصاصٌ لثدي النعمة، والثديُ برغم امتلائه بالحليب لاينساب منه الحليبُ إذا لم يُمصّ.

سأل أحدُهم: ماسببُ عدمِ الشكر؟- وما مانعُ الشكر؟

فأجاب الشيخ: مانعُ الشكر هو الطمع الشديد؛ لأنه مهما كان الشيءُ الذي حصل عليه الإنسان، يظلّ يطمع بما هو أكثر منه. وذلك الطمع الشديد هو الذي اضطرّه إلى ذلك، وهكذا فإنّه عندما ظفر بأقلّ من ذلك الذي استقرّ عليه قلبُه صار ذلك مانعًا للشكر. وهكذا كان غافلاً عن عيبه، وغافلاً أيضًا عن عَيْب ذلك النقد الذي عرَضَه وزيّفه. والطمعُ الشديد [خام-بالفارسية] كأكْل الفاكهة النّيئة [خام-بالفارسية] والخبزِ النّيء واللّحم النّيء؛ لابدّ من أن يولّد عِلّةً، ويولّد عدمَ الشكر. وإذا ماعرف الإنسانُ أنه أكل شيئًا مضرًّا فلابدّ من أن يستفرغ. الحقُّ تعالى بحكمته ابتلاه بعَدَم الشكر لكي يتفرغ ويتخلّص من ذلك
(١٨٢) الظنّ الفاسد؛ ابتغاء ألاّ تغدو تلك العِلّةُ الواحدةُ مئة علّة:

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٦٨].

يعني رزقناهم من حيث لايحتسبون؛ وهو الغيب. ويتنفّر نظَرُهم عن رؤية الأسباب التي هي كالشُّركاء لله؛ كما قال أبو يزيد: "ياربّ، ماأشركتُ بك"؛

قال الله تعالى: "يا أبا يزيد، ولا ليلةَ اللّبَن. قلتَ ذاتَ ليلةٍ: "اللّبن أضرّني"، وأنا الضارُّ النافع". فنظر إلى السبب فعدّه اللهُ مشركًا. وقال: "أنا الضارُّ بعد اللّبن وقبل اللّبن لكن جعلتُ اللّبن كالذنب والمضرّة كالتأديب من الأستاذ".

فإذا قال الأستاذُ لاتأكل الفواكه، فأكل التلميذُ، وضرب الأستاذُ على كفّ رجله لايصحّ أن يقول: "أكلتُ الفواكه فأضرّ رجلي". وعلى هذا الأصل، من حفظ لسانه عن الشّرك تكفّل اللهُ أن يطهّر روحَه عن أغراس الشّرك. القليلُ عند الله كثير. الفرقُ بين الحمد والشكر أنّ الشكر على نِعَم؛ لأيقال شكرتُه على جماله وعلى شجاعته، والحمدُ أعمّ.

الفصل التاسع والأربعون

أنا جليسُ مَنْ ذكرني

[١٨٣] صلّى أحدُهم إمامًا فقرأ: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ [التوبة: ٩٧/٩]. وصادف أن كان واحدٌ من رؤساء الأعراب حاضرًا فصفع الإمامَ صفعةً قويّة. وفي الرّكعة الثانية قرأ الإمامُ: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩/٩] فقال ذلك الأعرابيّ: "الصَّفْعُ أصلحك".

في كلّ لحظةٍ نتلقّى صفعةً من الغيب. وكلُّ شيء نُقدم عليه نُبعد عنه بصفعةٍ، فنُقْدِم على شيء آخر. ومثلما جاء القول: "لاطاقة لنا، وهو الخسفُ والقذف". وقيل أيضًا: "قَطْعُ الأوصال أيسرُ من قطع الوِصال". والمرادُ من الخسف هو النزول إلى الدنيا والصيرورة من أهل الدنيا. أمّا القَذْف فهو الإخراج من القلب. مثلما يأكل شخص طعامًا فيحمض في معدته ويتقيّؤه. فإذا حمض ذلك الطعامُ ولم يتقيّاه الشخصُ فإنه سيكون جزءًا من الإنسان.

وهكذا أيضًا يفعل المريدُ، إذ يداري ويخدم ابتغاءَ أن يجد مكانًا في قلب الشيخ. وكلّ شيء يصدر عن المريد ويزعج الشيخ، والعياذُ بالله، ويرميه من قلبه، وهو مِثلُ ذلك الطعام الذي يأكله الشخصُ ويتقيّؤه. ومثلما أنّ ذلك الطعام سيغدو جزءًا من الإنسان، وبسبب حموضته تقيّأه، فإنّ ذلك المريد بمرور الأيام سيغدو الشيخَ وبسبب سلوكه غير المرْضيّ يُخرجه من قلبه.

بعث عشقُك نداءً إلى العالم،

فأسلمَ القلوبَ إلى الفتنة والشرّ.

وعندئذٍ أحرق كلَّ شيء، وحوّله إلى رماد.

وقدّم الرّمادَ للرّيح الهوجاء.

وفي تلك الرّيح الهوجاء تتراقص ذرّات رمادِ تلك القلوب وتنوح. وإذا لم تكن كذلك، فمن الذي أتى بهذه الأخبار، ومن الذي أتى كلَّ لحظة بهذه الأخبار من جديد؟ وإذا لم تر القلوبُ حياتها في ذلك الاحتراق والانتشار في مهب الرّيح، فكيف تكون توّاقةً إلى الاحتراق؟ والقلوب التي احترقت بنار شهوات الدنيا وصارت رمادًا هل تسمع لها من صوت أو ترى لها من رونق؟

لقد علمتُ، وما الإسرافُ من خُلُقي   أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعنّيني تطلُّبه   ولو جلستُ أتاني لايعنّيني*

الصحيحُ أنّني قد عرفتُ قاعدة الرّزق. وليس من خلقي أن أركض هنا وهناك جزافًا وأعاني دون ضرورة. حقًّا إنّ ماهو مقسومٌ لي سيأتيني عندما (أجلس) متخليًا عن طلب الفضّة والمأكل والملبس ونار الشهوة. وعندما أسعى في طلب تلك الأرزاق، فإنّ طلبها سيعنّيني ويجهدني ويزعجني؛ وإذا صبرتُ وجلستُ في مكاني فإنّ ذلك سيأتيني من دون ألم ومن دون إزعاج. لأنّ ذلك الرزق يطلبني أيضًا ويجذبني؛ وعندما لايستطيع جَذْبي إليه يأتيني هو، مثلما أنني عندما لاأستطيع جذْبه أذهب إليه أنا.

وخلاصةُ الكلام هي هذه: اشتغلْ بأمر الدّين، حتى تجري الدنيا وراءك. والمرادُ من هذا (الجلوس) هنا الجلوسُ عند أعمال الدّين والعكوف عليها. وبرغم أنّ الإنسان يكون ساعيًا، حين يسعى من أجل الدّين، فإنه يكون

* هذه القطعة لعروة بن أذينة الفقيه الشاعر الأموي. [المترجم].

(حالسًا)؛ وبرغم أنه يكون (حالسًا)، حين يجلس من أجل الدنيا، فإنه يكون ساعيًا. قال عليه السلام: "من جعل الهمومَ همًّا واحدًا كفاه الله سائر همومه"*. من كان لديه عشرة هموم وانشغل من بين هذه الهموم بهمّ الدّين وحده فإنّ الحقّ تعالى سيكفيه مؤونة تلك الهموم التّسعة من دون سعي. وهكذا لم يكن الأنبياء أسارى الشهرة والخبز بل كانوا أسارى طلب رضى الحقّ، ومن ثمّ ظفِروا بالخبز وظفروا بالشهرة. كلُّ من طلب رضى الحقّ كان في هذه الدنيا وتلك الدنيا مع الأنبياء وكان رفيقَهم في المنام:

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩/٤].

وأيّ مكان هنا؟ وهم جلساءُ الحقّ؛ "أنا جليس مَنْ ذكرني"**. وإذا لم يكن الحقّ جليسَه فلن يكون في قلبه شوقٌ إلى الحقّ. لايمكن أن توجد رائحة الورد إذا لم يكن هناك وردٌ؛ ولا يمكن أن توجد رائحةُ المسك إذا لم يكن هناك مِسْك.

وليس لهذا الكلام نهاية؛ وإذا ماكانت له نهاية، فإنه ليس كسائر الكلام.

مضى اللّيلُ، ياحبيبي، وحديثُنا لَمّا يصل إلى نهاية***

ينقضي ليلُ هذا العالم وظلمتُه، ونورُ هذا الكلام يزداد إشراقًا كلَّ لحظة. مثلما أنّ ليل عُمُر الأنبياء عليهم السلام ينقضي ولا ينقضي نورُ حديثهم ولا ينقطع، ولن ينقطع.

---

* حديث نبوي شريف.

** حديث قُدْسيّ.

*** مصراع من رباعيّة منسوبة إلى مولانا. (المترجم).

قالوا في شأن المجنون: "إنه إذا كان قد أحبّ ليلى فما العجبُ في ذلك وقد كانا طفلين معًا وكانا في مكتبٍ واحد"؛ فقال المجنون: "هؤلاء الناس بُلهاء وأيّ مليحةٍ لاتُشتهى؟". أيوجد رجلٌ لايميل إلى المرأة الجميلة؟ والنساءُ كذلك أيضًا، بل إنّ العشق هو الذي يجد فيه الإنسانُ الغذاءَ والطّعم، مثلما يجد فيه لذّة رؤية الأمّ والأب والأخ ولذّة الولد ولذّة الشهوة وكلّ أنواع اللّذّات. وقد صار [١٨٥]
المجنون مثالاً للعشاق، مثل (زَيْد) و(عمرو) في النحو.

إذا أكلْتَ الكبابَ، وشربتَ صِرْف الشراب،

فما ذلك الطعمُ الذي على شفتيك؟- إنّه الماء الذي يشربه الحالم.

وعندما تنهض من نومك غدًا تجد نفسك عطشان،

لاينفعك الماءُ الذي تشربه في المنام.

"الدّنيا كحُلُم النائم".

هذه الدنيا ونعيمها مِثْلُ أن يأكل إنسانٌ شيئًا في منامه. وهكذا فإنّ طلب الحاجات الدنيوية يشبه مايحدث إذا أراد الإنسانُ شيئًا في المنام فقُدّم له؛ ففي النهاية عندما يصحو لاينتفع البتّة من ذلك الذي أكله في المنام. وهكذا سيكون قد طلب شيئًا في المنام ويكون قد قُدّم له؛ فكان النوالُ بقدر السّؤال.

الفصل الخمسون

﴿سيماهُمْ في وجوههم﴾

[١٨٦] قال أحدهم: عرفنا جملة أحوال الإنسان حالًا حالًا، ولم يفتْنا رأسُ شعرة مِن مزاجه وطبيعته وحرارته وبرودته. لكنه لم يُعْرَف ما ذلك الشيءُ الذي سيبقى فيه.

فقال مولانا: لو أنّ معرفة ذلك حصلت من مجرّد ما قاله الآخرون لما احتاج الإنسانُ إلى مساعٍ ومجاهدات كثيرة مختلفة، ولما ألقى أحدٌ بنفسه في المتاعب، وضحّى بنفسه في غمرة البحث.

ولنوضح بمثال: يأتي أحدُهم إلى البحر، فلا يرى سوى الماء المالح والتماسيح والأسماك، فيقول: "أين هذا الجوهر الذي يتحدّثون عنه؟ - ربما لا يكون هناك أيّ جوهر". كيف يُحصل على الجوهر بمجرد رؤية البحر؟ وحتى لو قُدّر له أن يكيل ماء البحر طاسًا طاسًا مئة ألف مرّة، لن يظفر بالجوهر. لابدّ من وجود غوّاص لكي يظفر بالجوهر؛ وحتى عندئذٍ ليس كلُّ غوّاص قادرًا على ذلك: المنشود هو غوّاصٌ محظوظ وماهر.

وهذه العلومُ والفنونُ مِثْلُ كَيْل ماء البحر بالطّاس. أمّا طريق الظفر بالجوهر فضربٌ آخر. هناك الكثير من الأشخاص الذين تحلّوا بكلّ المهارات، وكانوا أصحابَ مالٍ وأصحاب جمالٍ، لكنّ ذلك المعنى لم يتوافر لهم. وهناك الكثير

من الأشخاص الذين يكون ظاهرهم عرابًا وليس لهم حُسْنُ صورةٍ وفصاحةٌ وبلاغة، لكنّ ذلك المعنى الباقي يكون موجودًا فيهم. وذلك هو العنصر الذي به يشرُف الإنسان ويُكرَّم، وبه يفضُل سائر المخلوقات. فالنمورُ والتماسيح والأسود والمخلوقات الأخرى كلّها لها مهارات وبراعات وخاصيّات، لكنها لم تمتلك ذلك المعنى أو العنصر الذي سيبقى. ولو اكتشف الإنسانُ ذلك العنصر لحصل على السّرّ في فَضْله وتميّزه؛ وإلاّ فلن يكون له نصيبٌ من ذلك الفضل. وهذه البراعات والزّينات كلّها مِثْل وضع الجواهر فوق ظهر المرآة. ووجه المرآة خِلْوٌ فارغٌ منها. وجه المرآة ينبغي أن يكون صافيًا صقيلاً. من كان له وجهٌ قبيح طمع بظهر المرآة؛ لأنّ وجه المرآة غمّازٌ مُذيع للعيوب. ومن كان صبيحَ الوجه طلبَ وجه المرآة بمئة روح؛ لأنّ وجه المرآة يُظهر حُسْنَه.

جاء صديقٌ ليوسف المصريّ من السّفر. فسأله يوسف: "ماذا أحضرتَ لي من الهدايا؟" - فقال الصّديق: "وأيُّ شيءٍ ليس عندك، وأنت محتاجٌ إليه؟ ولكن لأنه لا يوجد من هو أجملُ منك أتيتُ لك بمرآة لكي ترى فيها وجهك كلَّ لحظةٍ". فأيّ شيء ليس عند الحقّ تعالى، وهو محتاجٌ إليه؟ ينبغي أن يقدّم الإنسانُ للحقّ تعالى قلبًا صافيًا مضيئًا ليرى ذاته فيه.

"إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم"*. [١٨٧]

بلادٌ ما أردتَ وجدتَ فيها   وليس يفوتُها إلاّ الكرامُ**

"مدينةٌ تجد فيها كلَّ ما تريده، من صباح الوجوه واللّذّات ومشتَهيات الطّبع والزّينات المختلفة، لكنّك لا تجد فيها عاقلاً. وليت هذا كان بالعكس".

* حديثٌ نبويّ، ونصّه في صحيح مُسْلم هكذا: "إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم ولكن إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

** لأبي الطّيّب المتنبي من قصيدة مشهورة مطلعُها:

فؤادٌ ما تسلّيه المدامُ   وعمرٌ مِثْلُ ما تهبُ اللّئامُ

تلك المدينةُ هي وجودُ الإنسان. ولو كان فيه مئةُ ألف براعة ولم يكن فيه ذلك المعنى، لكان أَوْلى لتلك المدينة أن تكون عرابًا.

ولو وُجد ذلك المعنى، ولم يكن ثمّة زينةٌ ظاهرية، فلا مجال للحروف؛ ينبغي أن يكون سِرُّه معمورًا. والإنسانُ في أية حالٍ يكون سِرُّه مشغولاً بالحق.

واشتغاله الظاهر لا يكون مانعًا من اشتغال الباطن. مثل المرأة الحامل التي في كلّ حال من أحوالها، مِنْ صُلْح وحَرْبٍ وأكْلٍ ونوم، ينمو الجنينُ في رَحِمِها ويكتسب القوة والحواسَّ، في الوقت الذي لا يكون لها خبرٌ بذلك. الإنسانُ أيضًا حاملٌ لذلك السِّرّ:

﴿إِنَّا عَرَضْنا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢/٣٣).

لكنّ الحقّ تعالى لا يتركه في الظُّلم والجهل. فمِنَ المحمول الصّوريّ المادّيّ للإنسان تأتي المرافقة والموافقة وألفٌ من الصداقات والمعارف. فما العجبُ في أن تأتي الصداقات والمعارف من ذلك السرّ الذي يحمله الإنسان؟ - ما الأشياءُ التي تطلع منه بعد الموت؟

ينبغي أن يكون السرُّ معمورًا؛ لأنّ السرّ كجذر الشجرة، فبرغم أنّ جذر الشجرة خفيّ يكون أثره ظاهرًا في أعالي الفروع. ولو كُسر فرعٌ أو فرعان، وكان الجذر مُحْكمًا ومتماسكًا، لنمت الأفرع ثانية. أمّا عندما يحصل خَلَلٌ في الجذر فإنه لن يبقى هناك أفرع ولا أوراق.

قال الحقّ تعالى: "السلام عليك أيها النبي" يعني: "السلام عليك وعلى كلّ مَنْ هو من جنسك". ولو لم يكن قصدُ الحقّ تعالى هو هذا لما خالف المصطفى وقال: "علينا وعلى عبادِ الله الصالحين". لأنّه لو كان السلامُ له وحده، لما أضافه

إلى العباد الصالحين؛ أي "إنّ ذلك السلام الذي أعطيتني إيّاه يقع عليّ وعلى العباد الصالحين الذين هم من جنسي". وهكذا أيضًا قال المصطفى وقت الوضوء: "لاتصحّ الصلاةُ إلا بهذا الوضوء". وليس المراد من ذلك التعيين، وإلاّ وجب أن لا تكون صلاةُ إنسان صحيحةً؛ لأنّ شرط صحّة الصلاة وضوءُ المصطفى فقط. بل المقصود الصحيح من ذلك أنّ من لا يتوضأ وضوءًا من جنس هذا الوضوء لا تكون صلاته صحيحة. مثلما يقال: "هذا طبق الجلّنار [ورد الرّمان]" - ماذا يعني ذلك؟ - أيعني: "هذا وحْدَه الجلّنار" لا، بل يعني: "هذا جنس الجلّنار". [١٨٨]

جاء ريفي إلى المدينة، وصار ضيفًا لمدنيّ. أحضر له المدنيُّ شيئًا من الحلوى، فأكل منها بِنَهَمٍ. قال الرّيفيّ: "أيها المدنيّ، كنتُ ليلاً ونهارًا قد تعلّمتُ أكْلَ الجزر. والآن ذقتُ طَعْمَ الحلوى، فسقطت لذّةُ الجزَر من عيني. والآن، لن أجد الحلوى في كلّ مرّة أشتهيها، وما كان عندي لم يعد محبّباً لديّ. فماذا أفعل؟".

عندما تذوّق الرّيفيُّ الحلوى، أخذ بعد ذلك يميل إلى المدينة؛ لأن المدنيّ اجتذب قلبَه، لابدّ من أن يلحق قلبَه.

بعضُهم يسلّم فتصاعد من سلامهم رائحة الدّخان، وبعضهم يسلّم فتفوح من سلامهم رائحةُ المسك. ومن يشتمّ هو الشخصُ الذي لديه مشامُّ قويّة.

ينبغي أن يمتحن الإنسان صديقه، حتّى لا يندم أخيرًا. هذه سُنّةُ الحقّ: "ابدأ بنفسك". النفس أيضًا إذا ادّعت العبوديّة، فلا تقبلْ منها ذلك من دون امتحان. عند الوضوء يَشْتمُّ الناسُ أولاً الماءَ بأنوفهم، وبعد ذلك يذوقونه، لا يقنعون بمجرّد الرّؤية. يعني أنّ الماء ربما يكون حسَنَ المظهر ولكنّ طعمه ورائحته متغيّرة. وهذا اختبار للتحقّق من طهارة الماء. وعندئذ، بعد الاختبار يستخدمون

الماءَ في غسل وجوههم. كلُّ ما تخفيه في قلبك، من خير وشرّ، يُظهره الحق تعالى على ظاهرك. كلّ ما يأكله جذرُ الشجرة من الأرض سرّاً يظهر أثرُه في الأفرع والأوراق.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩].

ويقولُ الحقّ تعالى أيضًا:

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ٦٨/١٦].

إذا لم يطّلع كلُّ إنسانٍ على ضميرك، فبأيّ لونٍ ستُلوّن وجهك؟

الفصل الحادي والخمسون

السُّكْرُ الأمّيّ

[١٨٩] كلُّ شيء لا تحصل عليه حتى تبحث عنه،

إلا هذا الحبيب، لن تبحث عنه حتى تحصل عليه*.

طلبُ الإنسان يتمثّل في أنه يطلب الشيء الذي لم يحصل عليه، ويظلّ الإنسان ليلاً ونهارًا منشغلاً بالبحث عنه. أمّا أن يكون هناك طلبٌ لشيء موجودٍ ومقصودٍ حاصل، وطالبٌ لذلك الشيء، فهذا شيء عجيب!

ومثل هذا الطلب لايقع في وَهْم الإنسان، ولا يستطيع البشرُ تصوّره؛ ذلك لأنّ طلب الإنسان يكون لشيء جديد لم يحصل عليه؛ أما هذا الطلب فلشيء موجود وهو يُطلب. وهذا هو طلبُ الحقّ؛ لأنّ الحقّ تعالى قد امتلك كلّ شيء، وكلُّ شيءٍ موجودٌ بقدرته. "كُن فيكون – الواحدُ الماجد". والواحدُ هو الذي قد وجد كلّ شيءٍ. وبرغم هذا فالحقُّ طالبٌ، إذ هو "الطالب والغالبُ".

والمقصود من هذا هو: "أيها الإنسان، طالما أنك متمسّك بهذا الطّلب الذي هو حادثٌ ووصفٌ بشريّ، ستظلّ بعيدًا عن المراد؛ أما عندما يفنى طلبُك في طلب الحقّ، ويستولي طلبُ الحقّ على طلبك، فعندئذ تغدو طالبًا بطلب الحقّ".

---

* بيتٌ من غزل للحكيم سنائي. [المترجم].

قال أحدهم: "ليس لدينا أيُّ دليل قاطع على الشخص الذي هو وَليٌّ للحقّ وواصلٌ إلى الحقّ؛ لا القول ولا الفعل ولا الكرامات ولا أيّ شيء آخر. ذلك لأنّ القول يمكن أن يُعلَّم باليقين المحض؛ والأفعال والكرامات موجودةٌ لدى الرّهبان أيضًا. وهم يستخرجون ما في ضمير الإنسان، وقد أظهروا الكثير من الأمور العجيبة بطريق السِّحْر أيضًا". وذكر عددًا من الأمثلة من هذا القبيل.

فأجاب مولانا: "ألديك اعتقادٌ بأيّ شخص أم لا؟".

قال الرّجل: "إي والله، إنّني معتقدٌ وعاشقٌ".

فقال مولانا: "أكان اعتقادُك بذلك الشخص مبنيّاً على دليل وبيّنة؟ - أم أغمضتَ عينيك وأمسكتَ بذلك الشخص؟".

فقال الرّجل: "معاذ الله أن يكون اعتقادي من دون دليل وبيّنة".

فقال مولانا: "فلِمَ إذن تقول: إنّه ليس هناك دليلٌ وبيّنة يفضيان إلى الاعتقاد؟ - وأنت تقول كلامًا متناقضًا".

قال أحدُهم: كلُّ وليٍّ وعارف كبير يزعم: "هذا القُرْبُ لي من الحقّ، وهذه العناية التي أولاني إيّاها الحقّ، ليسا لأحدٍ ولم يتمتّع بهما أحدٌ".

فأجاب مولانا: هذا الخبرُ مَنْ أخبر به؟ أأخبر به وليٌّ أم غيرُ وليّ؟ إذا أخبر بهذا الخبر وليٌّ فإنّه، وقد عرف أنّ كلّ وليٍّ لديه هذا الاعتقاد بنفسه، لا يمكن أن يكون مخصوصًا بهذه العناية. وأمّا إذا أخبر بهذا الخبر غيرُ وليّ، فإنه على الحقيقة وليّ للحقّ وخاصٌّ من خواصّه؛ لأنّ الحقّ قد أخفى هذا السّرّ عن جملة الأولياء، ولم يخفه عنه.

ذلك الشخص قدّم مثالاً فقال: إنّه كان لأحد الملوك عشرُ جوارٍ. قالت الجواري: "نريد أن نعرف مَنْ منّا التي يحبُّها مليكُنا أكثر من الجميع".

فقال الملِك: "من يكون هذا الخاتم غدًا في منزلها ستكون المحبوبة أكثر من غيرها". وفي اليوم الثاني أمر بأنْ يُصنع عشرةُ خواتم مثل ذلك الخاتم، وأعطى لكلّ جارية منهنّ خاتماً.

قال مولانا: مايزال السوال قائمًا. وهذا ليس جوابًا؛ وهو لا يتعلّق بهذه القضية. هذا الخبر قالته إمّا واحدةٌ من تلك الجواري العشر، أو واحدةٌ أخرى من غير تلك الجواري العشر. فإذا أخبرت به واحدةٌ من تلك الجواري العشر، وقد عرفت أنّ هذا الخاتم ليس مختصّاً بها وأنّ كلّ جارية لديها مثلُ ذلك الخاتم، فإنها لا يمكن أن تكون الرّاجحة والمحبوبة أكثر من سواها. أمّا إذا جاء هذا الخبرُ من غير تلك الجواري العشر، فإنها ستكون المؤثَرة والمعشوقة لدى الملك.

قال أحدهم: ينبغي أن يكون العاشقُ ذليلاً وضارعًا ومعانيًا. وأخذ يعدّ من هذه الأوصاف.

قال مولانا: ينبغي أن يكون العاشق كذلك، سواءٌ أراد المعشوقُ ذلك أم لم يُرِد. ولكن إذا كان كذلك من دون مراد المعشوق، فإنه لن يكون عاشقًا على الحقيقة، بل متابعًا لمراده. وإذا كان مُلبّيًا لمراد المعشوق، والمعشوقُ لا يريد له أن يكون ذليلاً وضارعًا، فكيف يكون ذليلاً وضارعًا؟ وهكذا يتبيّن أنّه لا يُعلم من أحوال العاشق إلاّ أن يكون وفق ما يريد المعشوق.

قال عيسى: "عجبتُ من الحيوان كيف يأكل الحيوان".

ويقول أهلُ الظاهر إنّ الإنسان يأكل لحم الحيوان، وكلاهما حيوان. وهذا خطأ. لماذا؟ لأنّ الإنسان يأكل اللحم، وذلك اللّحم ليس بحيوان، إنه جماد. لأنه عندما يُذبح لا تبقى فيه حيوانيّة. والمعنى الحقيقي لهذا القول: أنّ الشيخ على نحوٍ مبهم يأكل المريدَ. وأتعجّب من مثل هذا العمل النادر.

سأل أحدُهم: إن إبراهيم عليه السلام قال للنمرود: "إنّ ربّي يحيي الميّت ويميت الحيّ". فقال النمرود: "أنا أيضًا عندما أعزل إنسانًا أكون كأنّني أميتُه، وعندما أنصّب إنسانًا مَنْصِباً أكون كأنّني آتي به إلى الحياة".

عندئذٍ تراجع إبراهيم أمام الدليل وصار مُلْزَمًا بذلك. فشرع بدليل آخر قائلاً: "إنّ ربيّ يُطلِع الشمسَ من المشرق ويغيّبها في المغرب، فاعمل أنتَ عَكْسَ ذلك". أليس هذا الكلامُ من جهة الظاهر مخالفًا لذلك؟

فقال مولانا: حاشى لله أن يكون إبراهيم مُلْزَمًا بدليل النمرود، ولم يبق عنده ردٌّ على ذلك. بل استخدم هذا الكلام نفسه ليمثّل لفكرة أخرى؛ وهي أنّ الحقّ تعالى يُخرج الجنينَ من مَشْرِق الرّحِم ويغيّبه في مغرب القبر. وهكذا فقد كانت حجّةُ إبراهيم عليه السلام بكلام واحدٍ. والحقّ تعالى يخلُق الإنسانَ كلَّ لحظةٍ من جديد، ويبعث شيئًا جديدًا تمامًا في باطن قلبه؛ على نحو لا يُشبه فيه الأوّلُ الثانيَ، ولا الثاني الثالثَ. والمشكلُ أنّ الإنسان غافلٌ عن نفسه ولا يعرف نفسَه.

حازوا السُّلطانَ محمودًا*، رحمةُ الله عليه، بحصان بحريّ جميل جدًا، وصورته في غاية الرّوعة. وفي يوم العيد امتطى صهوة ذلك الجواد، وجلس الناسُ جميعًا على أسطح المنازل ليشاهدوه ويتفرّجوا على ذلك المشهد. كان شخصٌ سكرانٌ قد بقي جالسًا في منزله. فحملوه بالقوّة إلى السّطح قائلين له: "تعالَ أيضًا لكي ترى الحصان البحريّ". فقال: "أنا مشغولٌ بنفسي، ولا أريدُ، ولا أحرص على أن أراه". وعلى الجملة، لم يكن أمامه مفرّ. وعندما جلس على حافة السّقف، وقد نال منه السُّكْرُ كثيرًا، مرّ السُّلطانُ قريبًا من المكان. وعندما رأى السّكرانُ السلطانَ فوق ذلك الحصان قال: "أيُّ محلٍّ لهذا الحصان عندي، ولو أنّ هناك الآن مطربًا يغنّي أغنيةً وكان ذلك الحصانُ لي لقدّمته له في الحال".

---

* السّلطان محمود الغزنويّ. [المترجم].

وعندما سمع السلطانُ ذلك الكلامَ غضب غضبًا شديدًا. فأمر بأن يُرمى به في السّجن. مرّ على ذلك أسبوع، فأرسل هذا الرّجلُ رسالة إلى السلطان يقول فيها: "أيّ ذنبٍ اقترفتُ وأيّ جرم ارتكبت؟ ليأمرْ مَلِكُ العالم بإخبارِ عَبْدِهِ". فأمر السّلطان بأن يُحضَر إليه.

وعندما مَثَل أمامه قال السلطان: "أيها العِرْبِيدُ غير المؤدّب، كيف قلتَ ذلك الكلام؟ وكيف تجرّأتَ على أن تقول ذلك؟".

فقال الرجل: "يا مليكَ العالم، أنا لم أقل ذلك الكلام في تلك اللحظة، كان هناك رُجَيلٌ سكرانُ واقفًا فوق حافة السّطح قال ذلك الكلام وانصرف. في هذه الساعة أنا لستُ ذلك الرّجل. أنا رجلٌ عاقلٌ وذكيٌّ".

سُرَّ المِلك بكلامه، فأعطاه خِلْعةً، وأمر بإخراجه من السّجن. كلُّ مَنْ تعلّق بنا، وثمِل من هذا الشراب، أينما يذهب، ومع مَن يجلس، ومع مَن يتحادث، يكون على الحقيقة جالسًا معنا ومخالطًا لهذا القبيل. لأنّ صُحْبة الأغيار مرآةٌ
[١٩٢] للُطْف صُحبة الحبيب، ومخالطةُ غير المجانس موجبةٌ لمحبّة المجانس ومخالطته، "وبضدّها تتبيّن الأشياءُ".

أعطى أبو بكر رضي الله عنه السُّكَّرَ اسمَ "الأمّيّ" أي: الحُلْو الفِطْرِيّ [أي الذي تلده أمُّه هكذا]. والآن فإنّ الفواكه الأخرى تتباهى على السّكّر قائلةً: "لقد تجرّعنا كثيرًا من المرارة حتى وصلْنا إلى منزلة الحلاوة. فماذا تعرف أنتَ عن لذّة الحلاوة ولم تُعانِ مشقّة المرارة".

الفصل الثاني والخمسون

الأستارُ الضّعيفةُ للأنظار الضّعيفة

[١٩٣] سُئل الرّوميّ عن تفسير هذا البيت:

عندما يصل الهوى إلى الغاية،

تغدو المحبّة عداوةً تامّة.

فقال: إنّ عالم العداوة ضيّق نسبةً إلى عالم المحبّة؛ لأنّ الناس يفرّون من عالم العداوة لكي يصلوا إلى عالم المحبّة. وكذلك فإنّ عالم المحبّة ضيّق أيضًا نسبةً إلى العالم الذي وُجدت منه المحبّة والعداوة. والمحبة والعداوة، والكفر والإيمان - هذه الأمور موجبةٌ للثنائية. لأنّ الكفرَ إنكارٌ، ولابد للمُنكر من شخص ينكره؛ وكذلك فإنّ المقِرّ لابدّ له من شخص يقرّ له. وهكذا يتبيّن أنّ التناغم والتنافر سببٌ للثنائية؛ وذلك العالم وراء الكفر والإيمان والمحبّة والعداوة. ولأنّ المحبّة مُوجبةٌ للثنائية، ولأنّه يوجد (عالمٌ) ليس فيه ثنائية، بل (وَحْدة) صِرْفة، فإنّه عندما يصل الإنسانُ إلى ذلك العالم يخرج من المحبّة والعداوة. لأنّه لا مجال هناك لهاتين الاثنتين. وهكذا عندما يكون قد وصل إلى هناك يكون قد انفصل عن الثنائيّة. ولذلك فإنّ عالم الثنائيّة الأوّل، الذي هو عِشْقٌ ومحبّة، نازلٌ ومنحطٌ نسبةً إلى ذلك العالم الذي انتقل إليه هذه الساعة. ولذلك لا يريده، ويعاديه.

وهكذا فإنّ منصورًا [الحلاّج] عندما بلغت محبّتُه للحقّ نهايتَها صار عدوًّا لنفسه وأفنى نفسَه، إذ قال: "أنا الحقّ" أي: "أنا فنيتُ، وبقي الحقُّ وحده". وهذه غايةُ التواضع ونهاية العبودية، إذ تعني العبارةُ: "هو وحده". فالدّعوى والتكبّر تكونان في أن تقول: "أنتَ اللهُ، وأنا العبدُ". لأنّك بقول هذا تكون قد أثبتَ وجودَك أيضًا، ويلزم من ذلك الثّنائيةُ. وإذا ما قلتَ أيضًا: "هو الحق" فإنّ في قولك هذا "ثنائية"؛ إذ ما دام أنّ "أنا" موجودٌ، فإنّ "هو" غير ممكن. ولذلك فإنّ الحقّ هو الذي قال: "أنا الحق"؛ لأنّ غيره لم يكن موجودًا وكان منصورٌ قد فني، وكان ذلك كلامَ الحقّ.

إنّ عالم الخيال أوسعُ من عالم المصوّرات والمحسوسات؛ لأنّ جملة المصوّرات تولد من الخيال. وعالم الخيال أيضًا ضيّق نسبةً إلى العالم الذي منه يأتي الخيال إلى الوجود. ومن الوجهة اللفظية فإنّ هذه هي نهايةُ الفهم، أمّا حقيقة المعنى فمحالٌ أن تُعلم من اللفظ والعبارة.

سأل أحدُهم: وإذن ما فائدةُ العبارات والألفاظ.

أجاب مولانا: فائدة الكلام أنّه يزحُك في الطلب ويثيرك، لا أنّ المطلوب يُحصَل عليه بالكلام. ولو كان الأمرُ كذلك لما كانت لك حاجةٌ إلى مجاهدات كثيرة وإلى إفناء نفسك. حالُ الكلام كحالك عندما ترى من بعيد شيئًا يتحرّك، فتجري وراءه لكي تراه، وليس الأمرُ أنك تراه بوساطة تحرّكه. نُطْقُ [١٩٤]
الإنسان في باطنه أيضًا يكون على هذا النحو؛ يهيّجك لتطلب المعنى، برغم أنك لاتراه على الحقيقة.

كان أحدُهم يقول: حصّلتُ علومًا كثيرة، وأحكمتُ فِكَراً ومعاني كثيرة، وبرغم ذلك لم أهتدِ إلى معرفة ذلك المعنى في الإنسان الذي سيبقى دائمًا، ولم أكتشفه.

فأجاب مولانا: إذا كان ذلك ممكنَ المعرفة بمجرّد الكلام، فلن تكون في حاجةٍ إلى إفناء وجودك وإلى كثير من المجاهدات. لابدّ من بَذْل الكثير من الجهود لكي تفني نفسَك، لكي تعرف ذلك الشيءَ الذي سيبقى.

يقول أحدهم: "سمعتُ أنّ هناك كعبة، ولكنني مهما نظرت، فلا أرى الكعبة. فلأصْعَدْ على السّطح وأنظر إلى الكعبة". وعندما علا السّطح ومدّ عنقه، ظلّ لايرى الكعبة؛ وهكذا أنكر وجود الكعبة. إنّ رؤية الكعبة لاتحصل بمجرّد فعل ذلك؛ لأنّ الإنسان لا يمكن أن يراها من مكانه الذي هو فيه. مثلما في الشتاء تطلب من أعماق أعماقك الألبسة الصّوفيّة، وعندما يأتي الصيفُ ترمي الألبسة الصوفية، وتنفر منها. وهكذا فإنّ طلب الألبسة الصوفية كان من أجل تحصيل الدّفء؛ لأنك كنتَ عاشقاً للدّفء. وفي الشتاء لم تظفر بالدفء لوجود مانع لذلك، وكنتَ محتاجًا إلى وسيلة اللّبس الصوفيّ، ولكن عندما زال هذا المانع ألقيتَ اللّبس الصّوفيّ.

﴿إذا السّماءُ انْشَقّتْ﴾ [الانشقاق: ٨٤/١].

﴿إذا زُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلْزالَها﴾ [الزلزلة: ٩٩/١].

إشارتان إليك. وتعنيان أنّك رأيتَ لذّة الاجتماع؛ والآن يأتي يومٌ ترى فيه لذّة افتراق هذه الأجزاء، وترى اتّساع ذلك العالم وتخلص من هذا الضّيق. مثلاً، قُيِّد أحدهم بأربعة مسامير، وهو يظنّ أنه مرتاحٌ في هذا الوضع، وقد نسي لذّة الخلاص والحرّية. عندما يتحرّر من أربعة المسامير يعرف أيّ عذاب هذا الذي كان فيه. وعلى النحو نفسه فإنّ الأطفال ينمون ويرتاحون في المهد، وفي أن تكون أيديهم مقيّدة. أمّا إذا قُمّط البالغُ ووُضع في السّرير فإنّ ذلك سيكون عذابًا وسجنًا.

بعضُهم يجد متعـةً في الأزهـار وهـي تتفتّـح وتُخـرج رؤوسَـها مـن البراعم، وبعضهم يجد متعةً في أن يرى أجزاء الزهـرة تتفرّق وتتناثر وتعـود إلى أصلهـا. وهكذا فإنّ بعضهم يريدون أن لايبقى هناك مودّةٌ وعشق ومحبـة وكفـر وإيمـان، لكي ينضمّوا إلى أصلهم. لأنّ هذه جميعًا جدران وأسباب للضيـق والثنائيـة، أمـا ذلك العالَم فموجبٌ للاتساع والوحدة المطلقة. [١٩٥]

وهذا الكلامُ ليس عظيمًا جدًّا، وليس فيه قوّة. وكيف يكـون عظيمًـا، وهـو في النهاية كلام؟ بـل هـو في ذاته موجـبٌ ضعـف. وبرغـم ذلـك يثير الحقيقـة ويهيّجها. هذا الكلامُ حجابٌ مُسْدَل. كيـف يكـون تركيـبُ حرفين أو ثلاثـة موجبَ حياةٍ وهيجان؟ وعلى سبيل المثال، جاء شخص لزيارتك، فاستقبلته بحفاوة وإكرام وقلتَ له: أهلاً وسهلاً. فسُرّ بذلك، وصار ذلك موجبًا للمحبّـة. شخصٌ آخر استقبلته بكلمتين أو ثلاث مـن كلمـات السِّباب والشّتم. هاتـان الكلمتان أو الثلاث كانت مسبّبةً لغضب شديد وتألّم. والآن ما علاقـةُ تركيـب كلمتين أو ثـلاث بمضاعفـة المحبّـة والرّضـى، وإثـارة الغضـب والعـداوة؟ إلاّ أن يكون الحقّ تعالى قد جعلها أسبابًا وسُتورًا حتـى لايقـع نظرُ كـلّ إنسـانٍ علـى جماله وكماله. الأستارُ الضعيفة مناسـبةٌ للأنظـار الضعيفـة. وهكـذا يجعـل الحـقّ الأستار أحكامًا وأسبابًا.

هذا الخبزُ الذي نأكله ليس على الحقيقة سببًا للحياة. لكنّ الحقّ تعـالى جعلـه سببًا للحياة والقوّة. وفي النهاية، هو جماد، بمعنى أنه ليس فيـه حيـاة إنسـانيّة؛ فكيف يكون سببًا لزيادة القوّة؟ ولو كانت له أيّةُ حياةٍ لأحيا نفسه.

الفصل الثالث والخمسون

النطقُ شمسٌ لطيفة

[١٩٦] سُئِل مولانا عن معنى هذا البيت:

أيْ أخيّ، لستَ إلا فِكرةً،

وما بقي منك عظامٌ وأعصاب*

فقال: تأمّل أنتَ هذا المعنى فإنّ "فِكْرة" هنا إشارةٌ إلى تلك الفكرة المخصوصة وعبّرنا عنها بكلمة "فكرة" على سبيل التوسّع؛ أمّا على الحقيقة فليست فكرة. وإذا كانت كذلك فليست هذا النوعَ الذي فهمه الناسُ من هذا المصطلح. وما نريده من كلمة "فكرة" هو المعنى الحقيقيّ. وإذا ما أراد أيُّ إنسانٍ أن يؤوّل هذا المعنى على نحو أكثر إسفافًا ابتغاء أن يفهمه العوامُّ فليقُلْ: "الإنسانُ حيوانٌ ناطق"

والنطق فكرةٌ، مضمرةٌ أو مُظهرة. وماعدا ذلك حيوان. وهكذا يكون صحيحًا تمامًا أنّ الإنسانَ عبارةٌ عن فكرة، والباقي "عظام وأعصاب". والكلامُ مِثْلُ الشمس، والناسُ جميعًا يستمتّون الدّفء والحياة من الشمس، ودائمًا هناك شمسٌ، وهي موجودةٌ وحاضرة. والناسُ جميعًا يستمتّون منها الحرارة دائمًا،

---

* البيت ٢٧٧ من مثنوي مولانا جلال الدّين. [المترجم].

لكن الشمس لاتُرى، ولايعرف الناسُ أنهم يستمدّون الحياة والدّفء. ولكن عندما يعبِّر عن الفكرة بوساطة اللفظ والعبارة، سواء أكان ذلك على سبيل الشكر أم الشكوى أم الخير أم الشرّ، تغدو الشمسُ مرئيّةً، مثل الشمس الفلكية التي تشعّ دائمًا، لكنّ شعاعها لايُرى إلاّ إذا شعّ على جدار. وهكذا أيضًا شعاعُ شمس الكلام؛ فإنّه لايظهر إلاّ بوساطة الحرف والصوت. برغم أنه موجودٌ دائماً -لأنّ الشمس لطيفةٌ، وهو اللّطيف - لابدّ من قدْر من الكثافة، يمكن بوساطته أن يُنظر ويَظهر.

قال أحدُهم: إنّ الله لم يظهر له معنى، وأبقتْه الكلمة محيّرًا وجامدًا. وعندما قالوا: "الله فعل هذا، وأمر بهذا ونهى عن هذا" صار ساخنًا ورأى. وبرغم أنّ لطافة الحقّ موجودة وسطعت على ذلك الإنسان، لم يرَ؛ ولو لم يشرحوها له بوساطة الأمر والنهي والخلق والقدرة لم يستطع أن يرى.

هناك بعضُ الناس الذين بسبب ضعف طاقتهم لايستطيعون تناول العسل، حتى إذا قُدّم لهم بوساطة طعام آخر مثل: "الزَّرْدة"* والحلوى وغير ذلك استطاعوا أكْله، حتى يقووا إلى الحدّ الذي يأذن لهم بأن يأكلوا العسل من دون وسيط آخر.

وهكذا نتبيّن أنّ النطق شمسٌ لطيفة تشعّ دائمًا من دون انقطاع؛ إلاّ أنك محتاجٌ إلى وسيط كثيف لكي تستطيع أن ترى شعاع الشمس وتنال حظًّا منه. [١٩٧] عندما يبلغ الأمرُ أن ترى ذلك الشعاعَ وتلك اللّطافة من دون وسيط كثيف ويغدو ذلك طبيعةً لك تغدو جريئًا في تأمّلك لذلك وتكتسب قوّة. في أعماق ذلك البحر من اللّطافة ترى ألوانًا عجيبة ومشاهد مدهشة. وأيّ عجبٍ في ذلك؟ -فإنّ ذلك النطق موجودٌ فيك دائمًا، حين تنطق وحين تصمُت، وحتى حين لايكون في فكرك نطقٌ أيضًا في تلك اللحظة.

---

* طعام حلو لذيذ يعدّ من الرزّ والسكّر واللوز والزعفران. [المترجم].

تقول: إنّ النطق موجودٌ دائماً، مثلما قيل: "الإنسانُ حيوانٌ ناطق". هذه الحيوانيّةُ موجودةٌ فيك دائمًا مادام أنّك حيّ. ويستلزم هذا أنّ النطق أيضًا يوجد معك دائمًا. وكما أنّ المضْغ موجبٌ لظهور الحيوانيّة وليس شرطاً، فإنّ النطق موجب للكلام واللّغو وليس شرطاً.

للإنسان ثلاث حالات. في الأولى لايلتفت إلى الله البتّة، ولكنّه يعبد ويطيع كلّ شيء، من المرأة والرّجل والمال والولد والحجر والتراب، ولايعبد الله. ثم عندما يحصل لديه معرفةٌ واطّلاع لايعبد إلاّ الله. ثمّ، عندما يتقدّم في هذه الحال يصمت؛ لايقول: "لا أعبد الله"، ولايقول: "أعبد الله"، لأنه يكون قد تجاوز هاتين المرتبتين. لايصدر صوت عن هؤلاء القوم إلى العالم.

ربُّك غيرُ حاضرٍ وغير غائب، لأنه خالق الاثنين، أي الحضور والغيبة. ولذلك فإنّه غير هذين الاثنين. لأنّه لو كان حاضراً لوجب ألا يكون ثمة غيبة. ولكن الغيبة موجودة، وليس حاضرًا أيضًا لأنّه عند الحضور تكون هناك غيبة. وهكذا لايوصف بالحضور والغيبة؛ وإلّا فسيلزم من ذلك أنّ الضدّ يأتي من الضدّ. لأنه في حال الغيبة يلزم أن يكون قد خلق الحضور، والحضورُ ضدُّ الغيبة، وهكذا الحال في الغيبة. وهكذا لايصحّ أن يقال: إنّ الضدّ يأتي من الضدّ، ولايليق أن نقول: إنّ الحقّ يخلق مثله؛ لأنّه يقول: "لانِدّ له". لأنّه لو كان ممكنًا أن يخلق المِثْلُ مِثْلَه للزم الترجيح بلا مرجّح، ولّلزم أيضًا "إيجادُ الشيء نفسَه"؛ وكلاهما منتفٍ.

إذا وصلتَ إلى هنا فتوقّف ولاتتصرّف. هاهنا لايبقى للعقل تصرّف أبعد. متى وصل إلى الشاطئ يتوقّف، وحتى الوقوف الكثير لم يعد في مقدوره.

كلُّ الكلمات، وكلّ العلوم، وكلّ الفنون، وكلّ الحِرف، تستمدّ نكهتها وطعمها من هذا الكلام. لأنّه حين لايكون ذلك موجودًا، لايبقى طعمٌ لأيّ

[١٩٨] عملٍ وحرفةٍ. غايةُ ما في الباب لايعرفونها، والمعرفة ليست شرطًا. وهذا مِثْلُ أنَّ رجلاً أراد الزواج من امرأة ثريّة لديها قِطْعان من الغنم والخيل وغير ذلك. وهذا الرجل يعتني بتلك الغنم والخيل، ويسقي البساتين. فبرغم أنّه مشغول بتلك الخدمات، فإنّ نكهة تلك الأعمال تستَمدّ من وجود تلك المرأة؛ لأنّه لو قُدّر لتلك المرأة أن تغيب لما بقي لتلك الأعمال أيُّ طعم وللهبت حرارةُ محبّتها من قلبه وبقيت من دون روح. وهكذا فإنّ كلّ حِرَف الدنيا وعلومها وغير ذلك تستمدّ حياتها ولذّتها وحرارتها من شعاع "نكهة" العارف، فلولا نكهته ووجوده لما كان لتلك الأعمال كلّها نكهةٌ ولذّةٌ، ولبقيت ميتةً.

الفصل الرّابع والخمسون

ما أعظمَ القوسَ

الّتي تعرف بيَدِ مَنْ هي!

[١٩٩] قال مولانا: عندما بدأتُ قولَ الشعر كان هناك داعٍ عظيم يدفعني إلى قول الشعر. وفي ذلك الوقت كان لهذا الداعي تأثيرات كثيرة؛ والآن إن فتر الدّاعي وهو في حال غروبه فإنّ له أيضًا تأثيرات.

وقد مضت سنّة الحقّ تعالى على أن يربّي الأشياء وينمّيها وقت شروقها، وتظهر له تأثيرات عظيمة وحِكَمٌ كثيرة، وفي حال الغروب أيضًا تظلّ التربية قائمةً ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٨]؛ أي يربّي الدّواعي الشارقة والغاربة.

يقول المعتزلة: إنّ العبد هو الذي يخلق أفعاله، وكلّ فِعْل يصدر عنه يكون هو الخالق له. ولايمكن أن يكون الأمرُ كذلك؛ لأنّ الفعل الذي يصدر عنه إمّا أن يصدر عنه بوساطة الآلات التي يمتلكها، مثل العقل والرّوح والقوّة والجسم، وإمّا أن يصدر من دون وساطة. ولايمكن أن يكون خالقًا للأفعال بوساطة هذه الأشياء؛ لأنه غير قادرٍ على جمعها؛ ولذلك فإنّه ليس الخالق للأفعال بوساطة تلك الآلات؛ ذلك لأنّ الآلات ليست تحت سيطرته. ولايمكن أيضًا أن يكون

خالقًا للفعل من دون هذه الآلات؛ لأنه محالٌ أن يصدر عنه فِعْلٌ من دون تلك الآلة.

وهكذا نستيقن أنّ خالق أفعال العبد إنما هو الحقّ لا العبد. وكلّ فعل يصدر عن العبد، من خير أو شرّ، يفعله بنيّة وقَصْد، لكنّ حكمة ذلك الفعل ليست بالقدر نفسه الذي يقع في تصوّره. إذ يظهر له في ذلك الفعل قدرٌ من المعنى والحكمة والفائدة يساوي القدر الذي يدفعه إلى إيجاد ذلك الفعل. الله وحده يعلم الفوائد الكليّة لذلك الفعل والثمار التي ستحصل منه. فأنتَ، مثلاً، تصلّي بنيّة أن يكون لك ثوابٌ في الآخرة، وذِكْرٌ طيب وأمان في الدنيا، لكن فائدة الصلاة لايمكن أن تكون مقصورة على ذلك؛ ستثمر الصلاةُ معة ألف فائدة مما لم يعنّ لك في بالٍ. تلك الفوائد يعلمها اللهُ، الذي يدفع العبدَ للقيام بمثل ذلك الفعل.

والإنسانُ في يد قبضة قدرة الحقّ كالقوس. والحق تعالى يستخدمها في الأفعال المختلفة، والفاعل على الحقيقة هو الحقّ لا القوس. القوس آلةٌ ووسيط؛ ولكنّها غير عارفة للحقّ وغافلةٌ عنه، وذلك من أجل بقاء الدنيا. وما أعظمَ القوسَ التي تعرف بِيَد مَنْ هي! ماذا أقول عن دنيا قوامُها الذي تقوم به وعمادُها الذي تبنى عليه الغفلةُ؟ ألا ترى كيف أنّ الإنسان عندما يصحو يغدو مشمئزاً من الدنيا ويحسّ إزاءها ببرود بل يذوب ويتلف. والإنسان منذ طفولته [٢٠٠] الأولى، إذ نشأ ونما، إنما ترعرع ونما بوساطة الغفلة، ولولا ذلك لما نما وكبر. وهكذا، لأنّ الإنسان يُعمَّر ويكبَر بوساطة الغفلة، يسلّط عليه الحقُّ تعالى المتاعب والمجاهدات جبْرًا واختيارًا، لكي يغسل عنه أفعال الغفلة ويطهّره. وبعدئذ فقط يكون قادرًا على تعرّف ذلك العالَم.

إنّ وجود الإنسان مِثْلُ المزبلة، مثل تلّ السّرقين. لكنّ تلّ السّرقين هذا إذا كان عزيزًا فذلك لأنّ فيه خاتم الملك. ووجودُ الإنسان مِثْلُ جوالق القمح.

والمِلك ينادي: "أين تحملُ ذلك القمح؛ فإنّ صاعي فيه؟". الإنسان غافلٌ عن الصّاع، مستغرقٌ في القمح. فإذا عرف الصّاعَ فكيف يلتفتُ إلى القمح؟ والآن، فإنّ كلّ فكرة تجذبك نحو العالم العُلْوي، وتجعلك باردًا وفاترًا إزاء العالم السُّفليّ، هي انعكاسٌ وشعاعٌ لذلك الصّاع الذي يتلألأ خارجًا. ويميل الإنسان إلى ذلك العالم. أمّا عندما يكون الأمرُ عكسَ ذلك فيميل إلى العالم السفليّ، فإنّ ذلك دليلٌ على أنّ ذلك الصّاع قد توارى بالحجاب.

الفصل الخامس والخمسون

الكافرُ والمؤمنُ كلاهما مسبّحٌ

[٢٠١] قال أحدهم: إنّ القاضي عزّ الدين* يبعث إليكم بتحياته، وهو دائمًا يُثني عليكم ويمدحكم.

فقال مولانا:

كلُّ مَنْ يذكرُنا بطيّب الحديث

يذكره العالَمُ بطيّبِ الحديث.

إذا قال إنسانٌ خيرًا في إنسان آخر عاد ذلك الخير عليه هو. والحقيقة أنّه يقول ذلك الثناء والحمد في حقّ نفسه هو. وهذا مثل أن يزرع شخصٌ حول منزله وردًا وريحانًا، فكلّما نظر شاهدَ الورد والرّيحان، وهو دائمًا في جنّة، بقدر ما يجعل طبيعةً له أن يذكر الناسَ بخير. متى شغل الإنسانُ نفسَه بقول الخير في الآخرين صار ذلك الإنسانُ الذي قال فيه خيرًا محبوبًا عنده، وعندما يأتي ذكرُه، يكون قد تذكّر محبوبًا؛ وتذكّرُ المحبوب وردٌ وروضة للورد ورَوحٌ وراحة. أمّا إذا قال في إنسان شرًّا فإن ذلك الإنسان يغدو مبغوضًا في نظره.

---

* لعلّه القاضي عزّ الدّين محمّد الرّازي، الذي قُتِل سنة ٦٥٤ أو ٦٥٦هـ، وكان من عظماء الرّوم ووزير عزّ الدّين كيكاوس بن كيخسرو [المترجم، عن حواشي المرحوم فروزانفر وتعليقاته على الأصل الفارسي لهذا الكتاب، ص٣٤٠].

وكلّما تذكّره ومثلتْ صورتُه أمامه كان كأنما مثل أمام ناظريه حيّةٌ أو عقرب أو شوكٌ أو قتاد.

وهكذا، عندما يكون في مقدورك أن ترى ليلاً ونهارًا الوردَ ورياضَه، وترى حدائق إِرَم، لِمَ تدور وسط الأراضي المشوكة والمليئة بالحيّات. أحِبَّ كلّ إنسان حتى تكون دائمًا بين الورد والرّياض. وعندما تعادي كلّ إنسان، فإنّ صورة الأعداء تظهر أمامك، وكأنك تطوف ليلاً ونهارًا في الأراضي المشْوكة والمليئة بالحيّات. ومن هنا فإنّ الأولياء يحبّون الناسَ كلّهم ويعتقدون فيهم خيرًا. وهم إذ يفعلون ذلك، لا يفعلونه من أجل الآخرين، بل يفعلونه من أجل أنفسهم؛ ابتغاء ألاّ تظهر لأنظارهم صورةٌ مكروهة ومبغوضة. وإذا كان تذكّر الناس ومواجهةُ صورهم في هذه الدنيا أمرًا لابدّ منه ولا مفرّ عنه، فقد اجتهد الأولياءُ بقدر ما استطاعوا أن يكون كلُّ ما في عقولهم وذواكرهم أمرًا محبوبًا ومطلوبًا؛ لكي لا تشوّش كراهةُ المبغوض طريقهم. وهكذا فإنّ كلّ ما تفعله في حقّ الناس عندما تذكرهم بخير أو شرّ إنما يرجع إليك أنت؛ ومن هنا يقول الحقّ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ [فصلت: ٤١/٤٦].

و﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٧-٨].

[٢٠٢] سأل أحدهم: الحقُّ تعالى يقول: ﴿إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠]، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٢/٣٠]، وآدم ما أتى إلى الدنيا حتى ذلك الوقت. فكيف حكمت الملائكةُ قبلُ بأنّ الإنسان سيُفسد ويسفك الدماء؟

أجاب مولانا: ذُكِر لذلك وجهان: الأوّل منقول والثاني معقول.

أمّا المنقولُ فهو أنّ الملائكة قد قرأت في اللّوح المحفوظ أنّ قومًا سيخرجون صفتُهم كذا، وبعد ذلك أخبرتْ.

والوجه الثاني أنّ الملائكة استدلّت بطريق العقل أنّ أولئك القوم سيظهرون من الأرض، ولابدّ أن يكونوا حيوانات، ومثلُ هذا السّلوك سيصدر يقينًا عن الحيوان. وبرغم أنّ هذا المعنى موجودٌ فيهم، وهو كونهم ناطقين، فإنّهم بسبب وجود الحيوانية فيهم، لابدّ أن يفسقوا ويسفكوا الدماء؛ لأنّ ذلك من لوازم كونهم بشَرًا.

ويذكر آخرون معنى آخر فيقولون: إنّ الملائكة عقلٌ محض وخيرٌ صِرْف، وليس لهم أيّةُ خِيَرة في الأمر. مثلما أنّك تفعل فعلاً في النّوم؛ فإنّك لا تكون مختارًا في ذلك الفعل. ولاشكّ في أنه لن يعترض عليك أحدٌ عندما تكون نائمًا إذا قلتَ كفرًا أو توحيدًا، وإذا زنيتَ. الملائكةُ في صحوهم يكونون كذلك.

والبشر على عكس هذا، فلهم اختيارٌ وشهوة وهوس، ويريدون كلّ شيء من أجل أنفسهم، وهم مستعدّون لسفك الدّماء لكي يكون كلُّ شيء لهم. وتلك صفة الحيوان. وهكذا فإنّ حال الآخرين، الذين هم الملائكة، عكس حال البشر.

وهكذا يكون مقبولاً تمامًا الإخبارُ عنهم؛ لأنهم تحدّثوا بهذه الطريقة، برغم أنه لم يكن هناك حديث ولسان. هكذا يكون تقدير الأمر: لو أمكن التعبيرُ عن هاتين الحالين المتضادّتين بالكلام وتحدّث الفريقان عن حاليهما لكان الأمرُ هكذا. كما يقولُ شاعرٌ:

قالت البِركةُ: إنّني ممتلئة. البِركة لا تقول؛ ومعناه: لو أنّ للبركة لسانًا لقالت في هذه الحال مِثْلَ هذا المقال.

لكلِّ ملَك لوحٌ في باطنه، ومن ذلك اللّوح يقرأ، بقدر قدرته، أحوالَ العالَم وما سيكون، قبل وقوعها. وعندما يظهر إلى الوجود ذلك الذي قرأه وعَلِم به
[٢٠٣] يزداد إيمانُه بالبارئ تعالى، ويتضاعف عشقُه وشكْرُه. وتدهشه عظمةُ الحقّ وعِلْمه للغيب. تلك الزيادة في العشق والإيمان، وذلك التعجّب من دون لفظ وعبارة، هو تسبيح الملَك.

وهذا مِثْلُ أن يقول البنّاء لمن يتعلّم الحِرفة على يديه: "في هذا القَصْر الذي ببنيانه سيُستهلك كذا من الأخشاب، وكذا من القرميد، وكذا من الحجر، وكذا من التّبن". عندما يكمل بناءُ القصر، ويكون قد استُهلك القدرُ نفسه من الأدوات، من دون نقص وزيادة، يزداد إيمان (الصّانع). الملائكة أيضًا على هذا النحو.

سأل أحدُهم الشيخ: "إنّ المصطفى على الرّغم من العظمة التي يشير إليها قولُ الحقّ: "لولاك لما خلقتُ الأفلاك"، يقول: "يا ليتَ ربَّ محمّد لم يخلق محمّدًا"، فكيف يكون هذا؟".

فأجاب الشيخُ: "إنّ الكلام يتضح بالمثال. فسأمثّل لكم هذا بمثال؛ لكي تعلموا المعنى". وقال: إنّه في إحدى القرى عَشِق رجلٌ امرأةً. كان بيتاهما وخيمتاهما متقاربين، فعاشا معًا سعيدَيْن هانئين، وهكذا نما كلٌّ منهما بالآخر وكبر. كانت حياةُ كلّ منهما بالآخر، كالسّمك الذي يحيا بالماء. ظلاّ معًا سنوات كثيرة. وعلى حين غِرّة أغناهما الحقّ تعالى فرزقهما كثيرًا من الشّاء والثّيران والخيل والمال والذهب والحشم والغلمان. ومن كثرة الرّفاه والنعيم عزما على الذهاب إلى المدينة. فاشترى كلّ منهما قصرًا ملكيًّا عظيمًا، ونزل في ذلك القصر مع خيله وحشمه. هي في ناحية من المدينة، وهو في ناحية أخرى. وعندما وصلت الحال إلى هذا المستوى لم يستطيعا أن يواصلا تلك الحياة وذلك الوصال؛ فاحترق قلباهما، وأخذا يئنّان أنينًا خفيًّا، من دون أن يبوحا. وقد بلغ

الاحتراق غايته، فاحترقا تمامًا بنار الفراق هذه. وعندما وصل الاحتراق إلى أقصى حدوده، وقع أنينهما في موضع القبول لدى الحقّ فبدات حملُهما وغنمُهما بالتضاؤل حتى عادا تدريجيًّا إلى الحال الأولى التي كانا عليها. وبعد مدّة طويلة اجتمعا ثانيةً في تلك القرية الأولى، ونَعِما بالعيش المشترك والوصال. وعندئذٍ تذكّرا مرارة الفراق؛ وعلا الصّوتُ: "يا ليتَ ربّ محمدٍ لم يخلق محمّدًا". وعندما كان روحُ محمّد متجرّدًا في عالم القدس ووصْل الحقّ تعالى، كان ينمو ويكبر، غارقًا في بحر الرّحمة كالسّمك. ورغم أنّه في هذه الدنيا حظي بمقام النبوّة وهداية الناس والعظمة والرِّفعة والشهرة وكثرة الأصحاب، فإنه عندما يعود ثانية إلى ذلك العيش الأوّل يقول: "يا ليتني ما كنتُ نبيًّا ولم آت
[٢٠٤] إلى هذه الدنيا التي هي نسبةً إلى ذلك الوِصال المطلق همٌّ وعذابٌ وألم".

كلّ هذه العلوم والمجاهدات وأعمال الطاعة، نسبة إلى استحقاق الباري وعظمته، مثلُ أن يأتي شخص ينحني أمامك، ويقدّم لك خدمةً، ثم يمضي. ولو أنّك وضعتَ الأرضَ كلّها فوق رأسك خدمةً للحقّ لكنتَ كأنّك حنيتَ رأسك إلى الأرض مرّة واحدة. ذلك لأنّ استحقاق الحقّ ولطفه سابقٌ وجودَك وخدمتَك. فمن أين أخرجك وأوجدَك وجعلك قادرًا على العبادة والخدمة، حتى تتفاخر وتتباهى بخدمته؟ وهذه العباداتُ والعلومُ مِثْلُ أن تصنع دُمًى من الخشب واللّبّاد ثمّ تأتي وتعرضها على حضرة الحقّ قائلاً: "هذه الصّورُ تلقى لديّ رضى وقبولاً، وقد صنعتُها أنا؛ أمّا إعطاؤك الرّوح فمن شأنك. إذا أعطيتَها روحًا فإنك تكون قد أحييتَ أعمالي، وإذا لم تعطها فإنّ الأمر لك".

قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨]، فقال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨]. عندما أعطاهُ الحقّ تعالى المُلْكَ عدّ نفسَه قادرًا أيضًا، لم يعزُ الأمرَ إلى الحقّ. قال: "أنا أيضًا أحيي وأميتُ، ومُرادي من هذا المُلك هو العِلْم". إذا أعطى الحقّ تعالى الإنسانَ عِلْمًا وذكاءً وحِذقًا، فإنّه

يضيف الأعمال كلّها إلى نفسه قائلاً: "إنني بهذا العمل وبهذا الفعل أحيي الأفعال كلّها، وأظفر بالسّرور". فقال إبراهيمُ: "لا، هو يحيي ويميت".

سأل أحدهم مولانا الكبير: "إنّ إبراهيم قال للنمرود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨]. أي إذا ادّعيتَ أنتَ الألوهية فافعل العكس". يلزم من هذا أنّ النمرود ألزم إبراهيمَ بأن يترك ذلك الكلام الأوّل من دون أن يجيب، ويشرع بدليل آخر.

فأجاب مولانا: إنّ الآخرين قد قالوا هُراءً في هذا الشأن، وأنتَ أيضًا تقول هُراءً. هذا نقاشٌ واحدٌ مقدّم في مثالين. وأنت مخطئ، وهم أيضًا مخطئون، إنّ لهذا البيان معانيَ كثيرة. أحد هذه المعاني أنّ الحقّ تعالى قد صوّرك من كتم العَدم في رَحِم أمّك. وكان (مَشرِقُك) رَحِمَ أمّك؛ فمن هناك طلعتَ، ثمّ غِبتَ في (مَغْرب) القبر. وهذا تمامًا الكلامُ الأوّل، ولكن بعبارة أخرى هي: "يحيي ويميت". الآن، إذا كنتَ قادرًا فاطلعْ من (مَغْرِب) القبر وعُدْ إلى (مَشرِق) الرَّحِم؛ ذلك أحد المعاني. ومعنى آخر هو أنّ العارف لمّا كان يحصل له [٢٠٥] بالطّاعات والمجاهدات والأعمال السَّنيّة إشراقٌ وسُكْرٌ وروح وراحة، وبترك هذه الطاعات والمجاهدات تغرب عنه تلك السّعادة، صارت حالتا الطّاعة وترك الطّاعة مَشرِقًا ومَغرِبًا له. فإذا كنتَ قادرًا بالإحياء، في حال الغروب الظاهر هذه التي هي فِسْقٌ وفساد ومعصية، فأظهِرْ هذه السّاعةَ في حال الغروب هذه، ذلك الإشراقَ وتلك الرّاحة اللّذين طلعا من أعمال الطاعة. وهذا ليس من عمل العبد، وليس في مقدور العبد أن يفعل ذلك البتّة. هذا عَمَلُ الحقّ، الذي إن شاء أطلع الشمس من المغرب، وإن شاء أطلعها من المشرق لأنّه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٤٠/٦٨].

الكافرُ والمؤمن كلاهما مسبّحٌ. لأنّ الحقّ تعالى قد أخبر أنّ كلّ من يسلك الطريق المستقيم ويلزم الاستقامة ويتّبع الشريعة وطريق الأنبياء والأولياء سيُعطى

هذه السعادة وهذا الإشراق وهذه الحياة. وعندما يفعل عكس ذلك، سيلقى مثلَ هذه الظلمات والمخاوف والحفر والبلايا. ولأنّ الاثنين يفعلان أفعالهما وفق هذا القانون، ولأنّ ما وعد به الحقّ تعالى لا يزيد ولا ينقص، فقد صحّ وظهر من ذلك أنّ الاثنين مسبِّحان للحقّ، هذا بلسان وذاك بلسان آخر. وشتّان ما بين ذلك المسبِّح وهذا المسبِّح.

أحَدُ اللّصوص، مثلاً، سرق، فعُلّق على المشنقة. مِثْلُ هذا اللصّ أيضًا واعظٌ للمسلمين، يُفهم منه أنّ كلّ من يسرق تكون حاله هكذا. وإذا ما أعطى المِلِك أحدَهم خِلْعةً بسبب استقامته وأمانته فإنّه أيضًا يكون واعظًا للمسلمين. أمّا اللصّ فبلسانٍ، وأمّا الأمينُ فبلسان آخر. فتأمّل أنتَ فرق ما بين ذينك الواعظَيْن.

الفصل السادس والخمسون

شُعاعُ الغنى

[٢٠٦] قال مولانا: إنّ خاطرك طيّب. وكيف يكون هذا؟ لأنّ الخاطر شيء عزيز، وهو كالشَرَك الذي ينبغي أن يكون مهيًّا للإمساك بالصّيد. وإذا كان الخاطرُ معكّرًا، فإنّ الشَرَك يكون مقطّعًا وعديمَ الفائدة.

ولذلك ينبغي على الإنسان ألاّ يُفرط في محبّة شخصٍ ولايفرط في عداوته لأنّ الأمرين كليهما مما يقطع الشَرَك. لابدّ من الاعتدال والتوسّط. وهذه المحبّة التي ينبغي أن تكون من دون إفراط إنما أقولها في شأن غير الحقّ. أمّا في حقّ البارئ تعالى فلا يُتصوّر إفراطٌ البتّة: كلّما زادت المحبّة كان ذلك أحسن. لأنّه عندما تكون محبّةُ غير الحقّ مفرطةً والخلق كلّهم مسخّرون لدوران الفلك، ودولابُ الفلك دائرٌ، وأحوالُ الخلق أيضًا دائرة - عندما يكون الحبُّ مفرطًا لشخص من الأشخاص، فإنه يريد له دائمًا سُعودًا عظيمة.

وهذا متعذّرٌ، ممّا يشوّش الخاطر. وعندما تكون المعاداةُ مفرطةً فإنّ المعادي يريدُ دائمًا لمن عاداه نُحوسًا ونكباتٍ، ولكن لأنّ دولاب الفلك دائرٌ وأحوال الإنسان تدور معه فيكون مسعودًا تارةً ومنحوسًا تارةً أخرى، غدا كونُ الإنسان منحوسًا دائمًا أمرًا مستحيلاً أيضًا؛ وهكذا يتشوّش خاطر المعادي من دون طائل.

أمّا محبّة الحقّ فكامنـةٌ في العـالم كلّه وفي النـاس كلّهـم، مـن مجوسٍ ويهـودٍ ونصارى، وفي الموجودات جميعًا. إذ كيف لا يحبّ الإنسـانُ مُوْجِدَه؟ – المحبّة كامنةٌ في كلّ إنسان، لكن ثمّة موانع تحجبها؛ وعندما تزول تلك الموانع تظهر تلك المحبّة.

ولِمَ أتكلّم فقط على الموجودات؟ – العَدمُ أيضًا في جيشان، متوقّعًا أن يحوّله الله إلى الوجود. وحالُ المعدومات كحال أربعة أشخاص اصطفوا أمامَ ملك. كلّ منهم يريد وينتظر أن يخصّه الملك بالمنصب. وكلّ منهم خجلٌ من الآخر؛ لأنّ توقّعه منافٍ لتوقّع الآخر. وهكذا فإنّ المعدومات، لأنها متوقّعةٌ من الحقّ الإيجادَ، اصطفّت ولسانُ حال كلّ منها يقول: "أوجدني"؛ سائلةً البارئ سَبْقَ إيجادها وخَلْقِها قَبْلَ غيرها؛ ولذلك فإنّ كلاًّ منها خَجِلٌ من الآخر.

والآن، إذا كانت المعدوماتُ هكذا، فكيف تكون الموجودات؟

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤].

ولا عجب في هذا، بل كلُّ العجب من: "وإن مِنْ لا شيء يسبّح بحمده".

الكفرُ والدّين كلاهما يحثانِ عنك،

ويردّدان: "وحْدَه، لا شريكَ له"*.

بناءُ هذا البيت من الغفلة. والأجسامُ والعوالم كلّها قائمةٌ على الغفلة. وهـذا

[٢٠٧] الجسمُ النامي نما أيضًا من الغفلة. والغفلةُ كفرٌ، والدّينُ من دون وجود الكفر غيرُ ممكن؛ لأنّ الدّين تركُ الكفر. ولذلك لابدّ من الكفر، لكي يمكن تركُه. وهكذا فإنّ الاثنين شيءٌ واحدٌ؛ لأنّ هذا لا يكون من دون ذلك، وذلك لا يكون من دون هذا. شيءٌ واحدٌ لا يتجزّأ؛ وخالقهما واحد، ولو لم يكن

* بيت للحكيم سَنائي في ديوانه "حديقة الحقيقة". [المترجم].

خالقهما واحدًا لتجزّآ. كلُّ خالق سيكون قد خلق شيئاً مستقلاً، فيكونان عندئذ متجزّئين. هكذا لأنّ الخالق واحدٌ، وحده لا شريك له.

قالوا: إنّ السيّد برهان الدّين* يقول كلامًا جميلاً، لكنه يُكثر من الاستشهاد بشعر سَنائي.

فقال مولانا: ما يقولونه صحيح تمامًا: الشمسُ رائعة، لكنّها تعطي النّور. هل هذا عيب؟ إنّ إدخال كلام سَنائي هو إيضاحٌ لذلك الكلام. الشمسُ تُظهر الأشياء، وفي نور الشمس تكون الرّؤية مُمكنةً. المقصودُ من نور الشمس هو إظهارُ الأشياء. ومهما يكن، فإنّ شمسَ الفَلك هذه تظهر الأشياءَ التي لا فائدة فيها. أمّا الشمسُ التي تظهر الأشياءَ المفيدة فهي الشمسُ الحقيقية. وهذه الشمسُ ليست سوى فرع لتلك الشمس الحقيقية، وهي مجازٌ منها. فهل لكم أيضًا أن تستمدّوا، بقدر عقلكم الجزئيّ، من شمس القلب تلك، وتطلبوا نور العِلْم فيتهيّأ لكم رؤيةُ الأشياء غير المحسوسة، ويكون علمكم في ازدياد مطّرد. وتوقّعوا أن تفهموا وتدركوا شيئاً مِنْ كلّ أستاذٍ وكلّ صديق.

وهكذا نستيقن أنّ هناك شمسًا أخرى، غير شمس الصورة، تُكتشَف بوساطتها الحقائقُ والمعاني. وهذا العِلْم الجزئيّ الذي تطير إليه وتطيبُ به نفسك فرعُ ذلك العِلْم العظيم وشعاعه. وهذا الشعاع هو الذي يدعوك إلى ذلك العلم العظيم والشمس الأصليّة، ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/٤٤].

وأنتَ تسحب ذلك العِلْمَ إليك، وهو يقول: "أنا لا يمكن أن أُختزن هنا، وأنتَ بطيء في الوصول إلى هناك. واختزاني هنا محال. ومجيئك إلى هناك صعبٌ". إنّ تكوين المحال محالٌ، أمّا تكوين الصَّعب فليس محالاً. وهكذا، برغم أنّه أمرٌ صعبٌ، اجتهدْ في أن تتّصل بالعِلْم العظيم، ولا تتوقّع أنّه يمكن أن يُختزن

* هو الشيخ برهان الدّين محقّق الترمذيّ، تلميذ الشيخ بهاء ولَد، والد مولانا، وشيخ مولانا بعد وفاة والده. [المترجم].

هنا، لأنّ ذلك محال. وهكذا فإنّ الأغنياء بسبب محبة غِنى الحقّ يجمعون الدّرهم إلى الدّرهم والحبّة إلى الحبّة لكي تحصل لهم صفةُ الغنى من شُعاع الغنى.

[٢٠٨] وشعاعُ الغنى يقول: "أنا أناديك من ذلك الغنى العظيم، فَلِمَ تسحبني إلى هنا؟ وأنا بعزّ احترازي هنا. فهل لك أن تأتي إلى هذا الغنى العظيم؟".

وعلى الجملة، فإنّ الأصل هو العاقبة والنهاية: جعل الله العاقبةَ محمودةً. والعاقبةُ المحمودة هي أنّ الشجرة التي أصلها ثابتٌ في تلك الحديقة الرّوحانية، وقد أصبحت فروعها وأغصانها وفاكهتها معلّقةً في موضع آخر، وقد تساقطت ثمارها - في النهاية تُعاد ثمارُها إلى تلك الحديقة؛ لأنّ الأصل والجذر في تلك الحديقة. وإذا كانت الحالُ على عكس هذا، فبرغم أنّ تلك الشجرة في الصورة الظاهرة تسبّح وتهلّل، يُؤتى بثمارها كلّها إلى هذا العالم؛ لأنّ أصلها في هذا العالم. وإذا كان الاثنان كلاهما في تلك الحديقة، فإنه نورٌ على نور.

الفصل السّابع والخمسون

كلٌّ شيءٍ مضمرٌ في المحبّة

[٢٠٩] قال أكملُ الدّين*: أنا عاشقٌ لمولانا وأتمنّى رؤيته، وحتى الآخرةُ ممحوّة من ذهني. وأجد أُنسًا في صورة مولانا من دون هذه الفِكَر والاقتراحات؛ وأجد الرّاحة في جماله، وأظفر بمتعةٍ في صورته نفسها أو في خياله.

فأجاب مولانا: برغم أنّ الآخرة والحقّ لا يخطران ببالك، فإنّ ذلك كلّه مضمرٌ في المحبّة ومذكور فيها.

كانت رقّاصة جميلةٌ مرّةً تعزف على الصَّنج في حضرة الخليفة فقال الخليفة: "في يَدَيْكِ صنعتُكِ". فردّت: "لا، في رِجْلَيّ يا خليفة رسول الله". "الحُسْنُ في يديّ لأنّ حُسْنَ القَدم مضمر فيه". وبرغم أنّ المريد لا يتذكّر تفاصيل الآخرة، فإنّ تلذّذه برؤية الشيخ وخشيته من فراقه متضمّنٌ هذه التفاصيلَ كلّها، وتلك التفاصيل في جملتها مضمرةٌ في ذلك. وهذه الحال كحال شخص يحبّ ابنًا أو أخًا ويدلّله. فبرغم أنّ فِكَر البُنوّة والأُخوّة وأمل الوفاء والرّحمة والشفقة ومحبّته لنفسه، وعاقبة الأمر، وباقي المنافع التي ينتظرها الأقارب من أقاربهم – برغم أنّ هذه الفِكَر جميعًا – لا يخطر منها شيءٌ بباله، فإنّ هذه التفاصيل جميعًا مضمرةٌ

---

* هو أكملُ الدّين الطّبيب، وكان عالِماً ولديه خبرة كبيرة في فنّ الطّبّ. ويُعَدُّ واحداً من مريدي مولانا، وقد تولّى معالجته في مرضه الأخير. [المترجم].

في ذلك القدر من الملاقاة والتأمّل. كما أنّ الهواء مضمرٌ في الخشب، حتى حين يكون الخشبُ في التّراب أو في الماء؛ فلو لم يكن فيه هواء لما كان للنار تأثير فيه. ذلك لأنّ الهواء عَلَفُ النار وحياةُ النار. ألا ترى أنها تحيا بالنفخ؟ برغم أنّ الخشب قد يكون في الماء أو التراب يكون الهواءُ كامنًا فيه. ولو لم يكن الهواء كامنًا فيه لما طفا على سطح الماء. وهكذا الشأنُ أيضًا في الكلام الذي تقوله: برغم أنّ من لوازم هذا الكلام أشياء كثيرة، كالعقل والدّماغ والشفتين والفم والحنجرة واللّسان وجملة أجزاء الجسد التي هي المتحكّمة فيه، وكذا الأركان والطبائع والأفلاك ومئة ألف من الأسباب التي يقوم عليها العالم، وهكذا إلى أن تصل إلى عالم الصّفات، وبعدئذ الذّات - برغم أنّ هذه المعاني لا تُظْهَر في الكلام ولا تُكْشَف، فإنها في مجموعها مضمرةٌ في الكلام كما سبق أن قلتُ.

وفي كلّ يوم يمرّ بالإنسان، يحدث له بمعدّل خمس مرّات أو ستّ مرّات أشياءُ غير مرادة ومؤلمة، من دون اختيار منه. ولا شكّ في أنّ هذه الأشياء لا تكون منه هو، بل من غيره. وهو مسخرٌ لذلك (الغير)، وذلك الغير يراقبه. لأنه عَقِب الفعل السيئ يؤلمه، وإن لم يكن ثمّة مراقبٌ له فكيف يؤثّر فيه الفعل. وبرغم هذه الأشياء غير المرادة لا يُقرّ طبعه ولا تطمئن نفسه فيعترف: "أنا تحت سيطرة شخص".

"خلَقَ آدمَ على صورته". في وصْفِك، الألوهيّةُ، التي هي مضادّة لصفة العبوديّة، مستعارةٌ. وكثيراً ما يُقرع الإنسانُ على رأسه بالعصا ولا يترك ذلك العِناد المستعار. وسرعان ما ينسى هذه الأشياء المخالفة لإرادته، لكنّ ذلك لا ينفعه. ومادام لا يمتلك ذلك المستعار، لن ينجو من القَرْع.

الفصلُ الثامن والخمسون

المعلّم والصّانع

[٢١١] قال أحدُ العارفين: ذهبتُ إلى مَوْقد الحمّام لكي أسرّي عن نفسي؛ لأنه كان المكان الذي يأوي إليه بعضُ الأولياء. وقد رأيتُ رئيس الموقد. وكان هناك (صانع) شدّ وسَطَه بنطاق. كان يعمل، وكان رئيس العمل يقول له: "افعلْ هذا، وافعل ذلك". كان الصانع يعمل برشاقة وسرعة وكان الموقد يقدّم الحرارة المطلوبة بسبب رشاقته في تنفيذ أوامر معلّمه.

قال رئيسُ الموقد: "كنْ رشيقًا مِثْلَ هذا. إذا كنتَ ماهرًا دائمًا ومراعيًا للأدب فسأعطيك مقامي وأجلسك في مكاني".

غلبني الضّحك، وحُلّت عُقدتي؛ لأنّني رأيتُ أنّ رؤساء هذا العالم جميعًا على هذه الصّفة مع تلاميذهم ومتدرّبيهم.

الفصل التاسع والخمسون

الخيرُ لا ينفصلُ عن الشرّ

[٢١٢] قال أحدهم: إنّ ذلك المنجّم يقول: "إنك تدّعي أنّ هناك شيئًا غير الأفلاك وغير هذه الكرة الترابية التي أراها، شيئًا خارج هذه الأشياء. وليس أمامي شيء غيرُ ذلك. وإن كان هناك شيء، فبيّن لي أين هو".

فقال مولانا: إنّ ذلك السؤال فاسدٌ منذ البدء؛ لأنك تقول: "بيّن لي أين هو"، وليس لذلك مكانٌ. وبعد ذلك، تعالَ قل لي: من أين اعتراضُك وفي أيّ مكان؟ ليس في اللسان، وليس في الفم، وليس في الصّدر. فتّش هذه جميعًا، قطّعها حزمًا حزمًا وذرّةً ذرّةً، وتبيّن أنك لن تظفر بهذا الاعتراض وهذه الفِكَر في هذه جميعًا. وهكذا نستيقن أن فكرك ليس له مكان. وإذا كنتَ لا تعرف مكان فكرك، فكيف تعرفُ مكان خالق الفكر؟

آلاف الفِكَر والأحوال تستبدّ بك، وليس لك يدٌ فيها، وليست في مقدورك ومستطاعك. ولو عرفتَ فقط من أين تطلع هذه الفِكَر لكنتَ قادرًا على مضاعفتها. هذه الأشياءُ جميعًا لها ممرٌ من فوقك، وأنتَ لا تعرف من أين تأتي وإلى أين تذهب وماذا ستفعل؟

إذا كنتَ عاجزًا عن الاطّلاع على أحوالك أنتَ، فكيف تتوقّع أن تكون قادرًا على الاطّلاع على خالقك.

يقول ابن الزّنا: "ليس في السّماء". يا كلب! كيف تعرف أنه ليس موجودًا؟

هل مسحت السماء شبرًا شبرًا، ودرت حولها كلّها، حتى تخبر بأنه ليس موجودًا فيها؟. أنتَ لا تعرف الزانية التي عندك في بيتك؛ فكيف ستعرف السماء؟ هي، نعم، سمعتَ بالسماء، وبأسماء النجوم والأفلاك. وتقول ذلك الشيء. لو كنتَ مطّلعًا حقًّا على السماء، أو ارتقيتَ شبرًا واحدًا نحو السماء، لما قلتَ شيئًا من هذه التّرّهات. وما أقوله من أنّ الحقّ ليس فوق السّماء، لا أريد منه أنه ليس فوق السّماء؛ يعني أنّ السّماء لا تحيط به، أمّا هو فيحيط بالسّماء. له تعلّقٌ بالسّماء بلا كَيْف، كما تعلّق بك أنتَ تعلّقًا بلا كيف. والأشياء كلّها في يد قدرته وهي مظهره وتحت تصرّفه. وهكذا فهو ليس خارجَ السّماء والأكوان، وليس فيها تمامًا. أي إنّ هذه لا تحيط به وهو محيطٌ بالجميع.

قال أحدهم: قبْلَ أن توجدَ الأرضُ والسّماء والكرْسيّ، أين كان؟ قلنا: هذا السؤال فاسدٌ منذ البدء. لأنّ الله هو ذلك الذي ليس له مكان. وأنت تسأل: "أين كان قبل هذا كلّه؟" لماذا، أشياؤك كلّها لا مكان لها. هل عرفتَ مكان هذه الأشياء التي فيك حتى تسأل عن مكانه؟ عندما تكون أحوالُك وفكرُك [٢١٣] من دون مكان، كيف يمكن أن يُتصوَّر له مكان؟ ومهما يكن، فإنّ خالق الفِكْرة ألطفُ من الفِكْرة. فالبنّاء الذي بنى البيتَ، مثلاً، ألطفُ من هذا البيت. لأنّ ذلك البنّاء، الإنسان، قادرٌ على أن يصنع ويصمّم مئة بناءٍ مثل هذا البناء وغير هذا البناء، وكثيرًا من الأعمال والتصاميم الأخرى التي لا يشبه أيٌّ منها الآخر. ولذلك فإنّه ألطفُ وأعزّ من أيّ بناء، لكنّ هذا اللّطف لا يمكن أن يُرى إلاّ من خلال البيت، ومن خلال عملٍ يدخل في عالم الحسّ، لكي يُظهر لُطفُه الجمالَ.

هذا النَّفَسُ الذي منك في عمليةِ الزّفير يكون مرئيًا في الشتاء، أمّا في الصّيف فلا يكون مرئيًا. وليس هذا لأنّ النَّفَس ينقطع في الصّيف، ولا يكون ثمة نَفَس،

بل لأنّ الصّيفَ لطيفٌ والنفَسَ لطيف، فلا يظهر، خلافًا للشتاء. كذلك، أوصافُك كلُّها ومعانيك كلّها لطيفةٌ ولا يمكن أن تُرى إلاّ بوساطة فِعْلٍ من الأفعال. فحِلْمُك، مثلاً، موجودٌ، لكنّه لا يُرى، ولكن فقط عندما تعفو عن مُسيء فإنه يغدو محسوسًا. وكذلك قهرُك لا يُرى، ولكن عندما تقهر مُجْرِمًا وتضربه فإنّ قهرك يغدو مرئيًا؛ وهكذا إلى ما لا نهاية له.

الحقُّ تعالى بسبب غاية لطفه لا يُرى. وقد خلق السّماء والأرض لكي تُرى قدرتُه وصنعُه. ولهذا يقول:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٥٠/٦].

كلامي ليس في يدي، ولذلك أتألّم؛ لأنني أريد أن أعظ الأحبّةَ ولا ينقاد لي الكلامُ؛ ومن هنا أتألّم. أمّا من وجهة أنّ كلامي أعلى منّي وأنا محكومٌ له فأنا مسرورٌ؛ لأنّ الكلام الذي يقوله الحقُّ أينما حلّ يبعث الحياةَ ويترك آثارًا عظيمة:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ٨/١٧].

السّهمُ الذي ينطلق من قوس الحقّ لا تدفعه قوسٌ أو درع. ومن هنا أنا سعيد. لو أنّ العِلْم كلّه كان في الإنسان ولم يكن ثمّة جهلٌ لاحترق الإنسانُ ولما بقي. ومن هنا يكون الجهلُ مطلوبًا من وجهة أنّ بقاء وجود الإنسان به، (٢١٤) والعلم مطلوب أيضًا من وجهة أنّه وسيلةٌ لمعرفة الباري. وهكذا فإنّ كلاً منهما مُعينٌ للآخر، وهما في الوقت نفسه ضِدّان. واللّيل برغم أنه ضدُّ النهار فإنّه مُعينُه ونصيره، وهما يعملان عملاً واحدًا. ولو كانت الدُّنيا ليلاً متصلاً لما أُنتج أيُّ عمل ولما حصل، ولو كانت نهارًا متصلاً لبقيت العينُ والرأسُ والدّماغُ منبهرةً مندهشةً، ولأدركها الخَبالُ والتعطّل. ولذلك يرتاح الناسُ في اللّيل وينامون فتحصل الآلات كلّها، من دماغ وفكر ويدين وقدمين وسمع وبصر،

على القوّة؛ وفي النهار تستنفد تلك القوى وتصرفها. وهكذا فإنّ الأضداد كلّها تبدو أضدادًا في مقياسنا، وأمّا في نظر الحكيم فإنها جميعًا تعمل عملاً واحدًا، وليست متضادةً. أرني في هذه الدنيا شيئًا سيّئًا ليس فيه شيءٌ حسَنٌ، وشيئًا حسنًا ليس فيه شيء سيّئ. خذ لذلك مثلاً، قصَد أحدُهم أن يقتُل، ولكنه انشغل بالزّنا، وهكذا لم يُرق دمًا. وهكذا فإنّ فِعْل الزّنا هذا من وجهة أنه زِنا شيءٌ سيّئ، أمّا من وجهة أنه مانعٌ للقتل فحسَن.

والخلاصة أنّ السُّوء والحُسْن شيءٌ واحدٌ لا يتجزأ. ومن هذه الوجهة لنا بحثٌ مع المجوس. فهم يقولون: إنّ هناك إلهين، أحدُهما خالقٌ للخير، والآخر خالق للشرّ. والآن أظهر لي أنتَ خيرًا من دون شرّ، لكي أُقِرّ بأنّ هناك إلهاً للشرّ وإلهاً للخير.

وهذا محالٌ لأنّ الخير لا ينفصل عن الشرّ. مادام الخير والشرّ ليسا اثنين، وليس بينهما انفصال، فإن وجود خالقين محالٌ. ألم نلزمكم بحجتنا؟ – قطعًا عليكم أن تستيقنوا أنّ الأمر كذلك. نقول كلامًا قليلاً خشية أن يَعِنّ لك أنّ الأمر كما يقول المجوس. وعلى افتراض أنّك غيرُ مستيقن أنّ الأمر كما قلتُ، كيف تستيقن أنه ليس كذلك؟ فيا أيها الكافرُ البائسُ، إنّ الله يقول: ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (المطففين: ٨٣/٤).

"ألا تظنّ ظنّاً أنّ تلك الصور من الوعيد التي هدّدنا بها ربّما تكون صحيحة، وأنه ستكون مؤاخذةٌ للكافرين على نحوٍ لم يخطر لك ببال؟ فلِمَ والحالُ كذلك لم تحتطْ لذلك وتطلبنا [تطلب الحقّ]؟".

الفصل الستّون

الأصلُ هو العنايةُ الإلهيّة

[٢١٥] "ما فُضِّل أبو بكر بكثرة صلاةٍ وصوم وصدَقة بل بما وَقَرَ في قلبه"*

يقول: إنّ تفضيل أبي بكر على الآخرين لم يكن بسبب كثرة صلاةٍ ولا كثرة صيام، بل لأنّه خُصّ بعناية، وهي محبّةُ الله. وفي يوم الحساب عندما يؤتى بالصّلوات، ستوضع في الميزان، وكذا الحال مع الصّيام والصّدقات، أمّا عندما يؤتى بالمحبّة فإنّ الميزان لا يتّسع لها. وهكذا فإنّ الأصل إنّما هو المحبّة.

ولذلك، عندما ترى المحبّة في نفسك، ضاعفْها لكي تزداد. عندما ترى المبدأ موجودًا لديك، أعني طلب الحقّ، زدْه بالطلب الدائم؛ لأنّ "في الحركاتِ بركات"؛ وإذا لم تزد هذا المبدأ، فإنه سيفرّ منك. لستَ أقلّ من الأرض، فالناسُ يغيِّرون الأرض تغييرًا تامّاً بالتّحريك والتّقليب بالمحراث، فتنبت النباتات؛ وعندما يهملونها تغدو صلبة.

وهكذا إذا آنستَ في نفسك طلبَ الحقّ، فكن دائمًا آتيًا وذاهبًا ولا تقل: "ما الفائدةُ في هذا الذهاب؟" - فالزم الذهاب، وستظهرُ الفائدة من نفسها.

---

* قال بعضهم هو قول لبكر بن عبد الله المزنيّ، وهو من أكابر الزّهّاد (ت ١٠٨هـ). وقال آخرون هو حديث نبويّ. انظر في هذا الشأن تعليقات العلاّمة فروزانفر على كتابنا هذا؛ الأصل الفارسيّ، ص٣٤٢. [المترجم].

فذهابُ الإنسان إلى الدكّان لا فائدة له سوى عَرْض الحاجة. الحقُّ تعالى يرزق؛ أمّا إذا جلس الإنسانُ في البيت، فإنّ هذه دعوى استغناء، ولن ينزل الرزق.

تأمّل الرّضيع الذي يصرخ، فتعطيه أمُّه الحليب. لو قدّر أن يفكّر: "ما الفائدةُ في بكائي وما السببُ لإعطائها الحليب؟" لبقي من دون حليب. وهكذا ندرك أنه لذلك السبب يصل إليه الحليب. وهكذا إذا استغرق الإنسانُ في التساؤل: "ما الفائدة في هذا الركوع والسجود؟ ولِمَ أقوم بهما؟".

عندما تقدّم الطاعة بين يدي أميرٍ أو رئيس، في ضَرْبٍ من الرّكوع والانحناء، فإنّ ذلك الأمير يعاملك بالرّحمة ويعطيك لقمةً. ذلك الشيءُ الذي يجعل الرّحمة في قلب الأمير ليس جِلْدَ الأمير ولحمه. بعد الموت يظلّ ذلك الجلدُ وذلك اللحم موجودين، مثلما هي الحال عندما ينام الأمير ويكون في غفوة، لكنّ تلك الطّاعة والخدمة التي تؤدّيها له تضيع عنده. وهكذا نستيقن أنّ الرحمة التي في الأمير ليست شيئًا يمكن إدراكه ورؤيته. فإذا كان ممكنًا لدينا أن نطيع ونخدم في الجلْد واللّحم شيئاً لا نراه، فإنّ تلك الطّاعة والخدمة ممكنةٌ أيضاً في حال ذلك الذي لا جلد له ولا لحم. ولو كان ذلك الشيء الذي في الجلْد واللحم غير خفيّ، لكان أبو جهل والمصطفى شيئًا واحدًا؛ ومن ثمّ لا فرق بينهما.

الأذنُ من جهة المظهر واحدةٌ عند الأصمّ والسّميع، لا فرق بين أذنِ أحدهما وأذن الآخر، الأولى لها القالب نفسه الذي للأخرى؛ لكنّ السَّمْع مخفيّ في تلك التي تَسْمع، لا يمكن رؤيته. [٢١٦]

وهكذا، فالأصلُ هو تلك العناية الإلهيّة. أنتَ، إذْ أنتَ أميرٌ، لديك غلامان يخدمانك. أحدهما يؤدّي خدمات كثيرة، ويسافر من أجلك أسفارًا كثيرة؛ والآخر كسولٌ خامل في الخدمة. وبرغم ذلك نرى أنّ محبّتك لذلك الكسول المتبطّل أكثر منها لذلك النشيط؛ وبرغم ذلك لا تدعُ ذلك الغلام النشيط من

دون إثابة، هكذا يحصل. لا يمكن الحُكْم على العناية. هذه العين اليمنى والعين اليسرى كلتاهما من ناحية الظاهر شيء واحد، فما الخدمة التي أدّتها العين اليمنى ولم تؤدّها العين اليسرى؟ واليد اليمنى، أيَّ شيءٍ فعلتْ مما لمْ تفعله اليسرى، وهكذا الحال بشأن القدم اليمنى؟ لكنّ العناية كانت من نصيب العين اليمنى.

وكذلك فإنّ الجمعة فَضَلت بقيةَ أيام الأسبوع "إنّ لله أرزاقًا غيرَ أرزاقٍ كُتبت له في اللوح فليطلبْها في يوم الجمعة". والآن ماذا قدّمت هذه الجمعة من خدمة ممّا لم تفعله الأيّام الأُخَر؟ وبرغم ذلك كانت العناية من نصيبها، وهذا التشريف خاصٌّ بها.

ولو أنّ أعمى قال: "إنّني خُلقتُ هكذا أعمى وأنا معذور"، لما أفاده قولُه: "إنّني أعمى"، و"أنا معذور"، ولن ينصرف عنه ما به من بلاء. هؤلاء الكافرون الرّاسخون في الكفر، في النهاية يتألّمون بسبب كفرهم. وبرغم ذلك عندما ننظر في الأمر مرّة أخرى، يبدو لنا ذلك الألمُ عَيْنَ العناية. عندما يكون الكافر في رخاء ينسى الخالق؛ وهكذا فإنّ الله يذكّره بالألم. ولذلك فإنّ جهنّم مكانٌ للعبادة، ومسجدٌ للكافرين؛ لأنّه هناك يتذكّر الكافرُ الحقّ كما تكون الحال في السّجن والتألّم ووجع الأسنان – عندما يأتي الألم يُمزّق حجابُ الغفلة. يقرّ المتألم بحضرة الحقّ ويتأوّه: "ياربّ، يارحمان، ياحق"، فيُشفى؛ ومرّة أخرى تُسْدل حُجب الغفلة فيقول: "أين الله؟ – لا أستطيع أن أجده، لا أستطيع أن أراه. عَمَّ أبحث؟".

كيف رأيتَ ووجدتَ عندما كنتَ متألمًا، والآن لا ترى؟ وهكذا لأنك ترى وقتَ الألم، خُلِق الألم ليستبدّ بك من أجل أن تكون ذاكرًا للحقّ. وهكذا فإنّ نزيل جهنّم كان غافلاً عن الله وقتَ رخائه، ولم يكن يذكر الله؛ أمّا في جهنّم فيذكر الله ليلاً ونهارًا. خلق اللهُ العالم والسّماء والأرض والقمر والشمس

والسيّارات والخير والشرّ من أجل أن تذكره وتطيعه وتسبِّح بحمده. ولأنّ الكفّار وقت رخائهم لا يفعلون ذلك، ولأن المقصود من خَلْقهم ذكرُ الله، يدخلون جهنّم لكي يكونوا ذاكرين.

[٢١٧] أمّا المؤمنون فليسوا في حاجة إلى الألم، لأنّهم وقتَ رخائهم لم يكونوا غافلين عن ذلك الألم، ويرون ذلك الألم دائمًا حاضرًا. كالطفل العاقل الذي توضع قَدَمُه مرّة واحدة في الفَلَق* فيكون ذلك كافيًا لئلاّ ينسى الفلَق؛ أمّا الطفل الغبيّ فينسى، ويحتاج إلى الفلَق في كلّ لحظة. وكذلك الحصان الأصيل الذي همَزَه الرّائضُ مرّة واحدة بالمهماز** لايحتاج إلى أن يُهْمَز مرّة أخرى، ويقطع بالراكب فراسخ كثيرة، من دون أن ينسى رأس ذلك المهماز. أمّا الكَوْدَن [الفرس الهجين] فيحتاج كلّ لحظةٍ إلى المهماز، وهو غير لائق لحمل الرّاكب، ومن ثمّ يحملون عليه السِّرْقين.

* خشبةٌ فيها خُروق على قدْر سعة السّاق، توضع فيها ساقا مَنْ يُراد ضربُه على قدميه عقوبةً. [المترجم].

** المهماز: حديدة في مؤخّر خُفّ الرائض، يهمز الرّائض بها المهر الذي يروّضه أي ينخسه. [المترجم].

الفصل الحادي والستون

رِعشةُ العشق

[٢١٨] إنّ تواتر السّمع على الأذن يفعل فِعْلَ الرّؤية، وله حُكْم الرّؤية. مثلما وُلِدتَ من أبيك وأمّك، فقيل لك: إنّك وُلدتَ منهما؛ لم تر بعينك أنك وُلدتَ منهما، ولكن بكثرة ترديد هذا القول على مِسمعك صار الأمرُ حقيقة لديك، إلى درجة أنه لو قيل لك: إنّهما لم يلداك لما سمعتَ هذا. وكذلك الحال في شأن بغداد ومكّة اللّتين سمعت من ناسٍ كثيرين على نحو متواتر أنهما موجودتان، لو قيل لك: إنهما غير موجودتين وأُقسمت لك اليمينُ على صحة عدم وجودهما لما أيقنت بها. وهكذا نستبين أنّ الأذن إذا سمعت بطريق التواتر كان لها حُكْم العين. كذلك فإنه من وجهة الظاهر يُعطى لتواتر القول حُكْمُ الرّؤية. وربما يكون لقول شخص من الأشخاص حُكْم التواتر، ومن ثمّ لا يكون هذا الشخصُ واحدًا بل مئة ألف شخص؛ وهكذا فإنّ القول الواحد منه يكون مئة ألف قول. وما العجب في هذا؟ - فإنّ مَلِك الظاهر له حُكم مئة ألف، برغم أنّه واحد، وإذا قال مئةُ ألف شخص لم ينفّذ قولُهم، وإذا قال هو نفّذ ما قال.

ومادام هذا يحدث في عالم الظاهر، فإنّ حدوثه في عالم الأرواح أولى وآكد. وبرغم أنّك طفتَ العالَم، لأنك لم تطف من أجله، يكون لزامًا عليك أن تطوفه مرّة أخرى، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ٦/١١]. ذلك السّيْرُ ليس من أجلي، بل من أجل الثّوم والبصل. عندما لا

تطوف في الأرض من أجله، يكون طوافك من أجل غرضٍ آخر، وذلك الغرض يكون حجابًا لك لا يأذن لك برؤيتي".

مثلما يحدث عندما تبحث عن شخص في السّوق بشيء من الجدّ والاشتياق، فإنك لا ترى أحدًا البتّة. وإذا ما رأيتَ الناس رأيتهم كالخيال. أو عندما تبحث عن مسألة في أحد الكتب، فإنّك إذا امتلأت أذنُك وعينُك وعقلك بهذه المسألة وحدها، تقلّب أوراق الكتاب من دون أن ترى شيئًا. أما عندما يكون لك نيّة ومقصد غير هذا، فإنك أينما يمّمتَ كنتَ ممتلئًا بذلك الشيء ولم تر هذا.

في زمان عمر رضي الله عنه، كان هناك شخصٌ تقدّمت به السِّنُّ كثيرًا، ونالت منه الشيخوخة إلى درجة أنّ ابنته كانت تُشربه الحليبَ وتُعنى به كحال الأطفال. قال عمر رضي الله عنه لتلك الفتاة: "لا يوجد في هذا الزمان ابنٌ مثلك يؤدّي حقّ والده". فأجابت الفتاة: "ما تقوله صحيح. ولكن بيني وبين أبي فرقٌ، برغم أنّني لا أقصِّر البتّة في خدمته، فإنه حين كان يربّيني ويخدمني
[٢١٩] كانت فرائصه ترتعد خشيةَ أن يصيبني مكروه. وأنا أخدم والدي وأدعو ليلاً ونهارًا سائلةً الله أن يميته؛ لكي أتخلّص من إعناته وإزعاجه. فإذا كنتُ أخدم والدي، فمن أين لي أن أظفر بارتعاد فرائصه خشيةً عليّ من النوائب؟". فقال عمر: "هذه أفقهُ من عمر". أي "إنّني حكمتُ على الظاهر، أمّا أنتِ فقُلتِ لُبَّ القضيّة". فالفقيهُ هو الذي يكون مطّلعًا على لبّ الشيء، ومن ثمّ يتعرّف حقيقته. وحاشى لعمر أن يكون غير مطّلعٍ على حقائق الأمور وأسرارها، لكنّ سيرة الصحابة كانت هكذا؛ ينالون من أنفسهم ويثنون على الآخرين.

كثيرٌ من الأشخاص ليس لهم القدرة على "الحضور"؛ يكونون أطيبَ نفسًا في "الغَيْبة". وعلى النحو نفسه فإنّ ضياء النهار كلّه من الشمس، ولكن إذا ما ظلّ الإنسانُ طوال النهار ينظر في قرص الشمس فإنّ ذلك يعطّله ويُبهر عينيه. ومن الخير له أن يكون منشغلاً بشيء أو بآخر، وتلك "غيبة" عن التحديق في

قرص الشمس. كذلك فإنّ ذِكْر الأطعمة اللّذيذة أمام المريض مهيّجٌ له لتحصيل القوّة والاشتهاء، لكنّ حضور تلك الأطعمة يكون مضرّاً به.

وهكذا يغدو معلومًا أنّه لابدّ من الارتعاش والعشق في طلب الحقّ. ومَنْ ليس لديه رِعْشةُ العشق فعليه أن يخدم من لديهم هذه الرّعشة. لا تنعقد الثمارُ على جذوع الأشجار البتّة؛ لأنّه ليس للجذوع هذه الرّعشة؛ أمّا رؤوس الفروع فترتعش. لكنّ جذع الشجرة يقوّي رؤوسَ الأفرع، وبوساطة الثمار يأمن ضربات الفأس. وعندما ستكون رِعْشةُ جذع الشجرة بوساطة الفأس، فإنّ عدم الارتعاش خيرٌ له والسّكون أولى به لكي يخدم أصحاب الرّعشة.

طالما أنّه مُعين الدّين*، فإنّه ليس عَيْن الدّين، بسبب الميم التي زيدت على العين؛ فإنّ "الزيادة على الكمال نقصان". زيادة الميم تلك نقصان. وعلى النحو نفسه، برغم أنّ ستّ أصابع لليد الواحدة زيادةٌ فإنها نقصان. (أحَدٌ) كمالٌ، و(أحمد) لَمّا تكن بعدُ في مقام الكمال؛ عندما تُزال تلك الميم تغدو كمالاً تامًّا. أي إنّ الحقّ محيطٌ بكلّ شيء، وأيّ شيء تضيفه إليه يكون نقصاناً. العدد (واحد) موجودٌ في الأعداد جميعًا، ومن دونه لا يمكن أن يكون هناك عدد. كان السيّد برهان الدّين يتحدّث بكلام مفيد. قاطعه أبلَه عندما كان يتحدّث، فقال ذلك الأبله: "نحتاج إلى كلام لا مثالَ له".

فأجاب السيّد: "أنتَ، يا مَنْ لا مثالَ له، تعالَ اسمعْ كلامًا لا مِثال له!". وبعد
[٢٢٠] كلّ شيء، أنتَ مثالٌ لنفسك، أنتَ لست هذا، شخصُك هذا هو ظلّك. عندما يموتُ إنسان يقول الناس: "ذهب فلان". إذا كان هو هذا الجسدَ فإلى أين ذهب؟ وهكذا يغدو معلومًا أنّ ظاهرك مثالٌ لباطنك، لكي يُستدلّ بظاهرك على باطنك. كلُّ شيء يُرى بالعين، إنما يُرى بسبب كثافته. كالنَّفَس الذي لا يُرى في الجوّ الحارّ، ولكن عندما يكون الجوّ باردًا يغدو مرئيًا بسبب الكثافة والغِلظ.

* يشير ظاهراً إلى معين الدّين سليمان پروانه. وقد أشير إليه قبلُ؛ انظر حاشية ص (٣٢) [المترجم].

واجبٌ على النبيّ، عليه السلام، أن يُظهر قوّة الحقّ. وينبّه الناس بوساطة الدّعوة. ولكن ليس واجبًا عليه أن يوصل الإنسانَ إلى مقام الاستعداد لتلقّي الحقيقة الإلهيّة؛ لأنّ ذلك عمَلُ الحقّ. وللحقّ صفتان: القهرُ واللّطفُ. والأنبياء مظهرٌ للاثنتين؛ والمؤمنون مظهرُ لُطْف الحقّ، والكافرون مظهر قهر الحقّ.

أولئك المقرّبون يرون أنفسَهم في النّبيّ، ويسمعون صوتهم منه ويشتمّون رائحتهم منه. والإنسان لا ينكر نفسَه. ومن هنا يقول الأنبياء للأمّة: "نحنُ أنتم، وأنتم نحنُ، لا غرابة بيننا". يقول أحدُهم: "هذه يدي" ولا أحد يطلب منه برهاناً على ذلك؛ لأنها جزءٌ منه متصل به. ولو قال: "فلانٌ ابني" لطُلب منه الدّليلُ؛ لأنّ ذلك جزء منفصل.

الفصل الثاني والستّون

جَرْيُ الحِصرِم إلى سواد العنب

[٢٢١] قال بعضُهم: إنّ المحبة موجِبةٌ للخدمة. وليس هذا كذلك، بل إنّ مهل المحبوب هو المقتضي للخدمة. فإذا أراد المحبوبُ أن يكون المحِبُّ مشغولاً بالخدمة فإنّ الخدمة تأتي من المحبّ. وإذا لم يرد المحبوبُ ذلك، فإنّ للمحبّ يترك الخدمة. على أنّ ترك الخدمة ليس منافيًا للمحبة. وبعد ذلك فإنّ المحبّ إذا لم يقدّم الخدمة، فإنّ تلك المحبّة تقدّم الخدمة فيه. بل إنّ الأصل هو المحبّة، والخِدمة فرع المحبّة. فإذا تحرّك الكُمّ فإنّ ذلك من تحريك اليد. لكنه لا يلزم من حركة اليد أن يتحرّك الكُمّ. خذ مثلاً: لدى أحدهم جبّة كبيرة فضفاضة، فهو يدور داخل الجبّة والجبّة لا تتحرّك. ذلك ممكن؛ لكن غير الممكن هو أن تتحرك الجبّة من دون حركة الشخص.

بعضهم ظنّوا الجبة نفسها شخصًا، وعدّوا الكُمَّ يدًا، وتخيّلوا الحِذاء ذا السّاق الطويلة ورِجْلَ السّروال رِجْلاً.

هذه اليدُ وهذه القدمُ هما كُمٌّ وحذاء ليد أخرى وقدم أخرى. يقولون: "فلانٌ تحت يد فلان"، و"لفلانٍ يدٌ في أشياء كثيرة"، و"يعطي فلانًا يده في الكلام". ولا شكّ في أنّ الغرض من تلك اليد وتلك القدم ليس هذه اليد وهذه القدم.

ذلك الأميرُ جاء فجمعنا، ثمّ انصرف. مثلما جمع الزنبورُ الشمعَ والعسل ثم انصرف هو وطار. ذلك لأنّ وجوده شرط، أمّا بقاؤه فليس شرطًا. أُمّهاتُنا وآباؤنا مِثْلُ الزنابير، تجمع الطالبَ بالمطلوب والعاشقَ بالمعشوق، ثمّ تطير على نحو مفاجئ. جعلها الحقّ تعالى وسيطًا لجمع الشمع والعسل، ثم تطير، ويبقى الشمعُ والعسلُ والبستان. الزنابيرُ نفسها لا تخرج من البستان؛ فليس هذا ذلك البستان الذي يمكن الخروج منه؛ لكنّها تتنقّل من زاوية من زوايا البستان إلى زاوية أخرى من زواياه.

إنّ جسمنا يشبه خليّة النحل، إذ فيه شمعٌ وعسلٌ لعشق الحقّ. وبرغم أنّ الزنابير، أمهاتِنا وآباءنا، وسيطٌ فقط، فإنّهم يُربَّون من جانب البستانيّ؛ والبستانيّ أيضًا يصنع الخليّة. وقد أعطى الحقّ تعالى تلك الزنابير صورةً أخرى؛ ففي الوقت الذي كانت تعمل فيه هذا العمل كان لديها لباسٌ آخر مناسبٌ لذلك العمل، أمّا عندما ذهبت إلى ذلك العالم فقد غيّرت لباسها؛ لأنه هناك يصدر عنها عملٌ آخر. وبرغم ذلك فإنّ الشخص هو نفسه الذي كان في المكان الأول. مثل ذلك، على سبيل المثال، أنّ أحدهم مضى إلى القتال، فارتدى لباس القتال، وتقلّد السلاح، ووضع الخوذة على رأسه؛ لأنّ الوقتَ وقت حرب. أمّا عندما يأتي إلى مجلس أنس فإنه يخلع ذلك اللّباس؛ لأنه سينشغل بعمل آخر. لكنّ الشخص هو نفسه. ولكن لأنّك كنتَ قد رأيتَه في ذلك [٢٢٢]
اللّباس فإنك كلّما تذكّرتَه تصوّرتَه في ذلك الشكل وذلك اللّباس، حتى عندما يكون قد غيّر اللّباس مئة مرة.

أحدُ الأشخاص أضاع خاتمًا في موضع ما، برغم أنّ ذلك الخاتم قد نُقل من ذلك المكان، يظلّ يدور حول ذلك المكان قائلاً في نفسه: "قد أضعتُه في هذا المكان". مثل مَنْ فقد عزيزًا فإنّه يظلّ يدور حول القبر، ويطوف حول التراب ويقبّله دون وعي. يظلّ يقول في نفسه: "فقدتُ ذلك الخاتم هنا"؛ فكيف يُترك هناك؟

صنع الحقُّ مصنوعات كثيرة ابتغاء أن يُظْهِر قدرتَه. حتى جمع في يوم أو يومين بين الرّوح والجسد من أجل الحكمة الإلهيّة. ولو جلس الإنسانُ مع الجثّة في القبر لحظةً، لكان ثمّة خشية من أن يُصاب بالجنون، فكيف يمكن أن يبقى هناك، عندما يتخلّص من شَرَك الصورة وخندق الجسد؟ صنع الحقّ تعالى ذلك من أجل تخويف القلوب وأمارةً لتجديد التخويف حينًا بعد حين؛ لكي ينبعث الهَلَعُ في قلوب الناس من وحشة القبر وظلمة التراب. وهذا شبيهٌ بما يحدث عندما تُهاجَم قافلةٌ في الطريق في موضع من المواضع، فيكوّم رجالُ القافلة حجرين أو ثلاثة معًا على سبيل العلامة والأمارة؛ قاصدين أنّ هاهنا موضعًا خطِرًا. هذه القبور أيضًا علامةٌ محسوسة على محلّ الخطر.

ذلك الخوفُ يؤثّر في الناس بقوّة؛ برغم أنه ليس لزامًا أن يتحقّق. فعندما يُقال مثلاً: "إنّ فلانًا يخاف منك" فإنك، من دون أن يصدر منه فعل، تُبدي تعاطفًا إزاءه من دون شكّ. وعندما يُقال عكس هذا؛ أي: "إنّ فلاناً لا يخشاك البتّة، وليس لك في قلبه أيّة مهابة"، بمجرد أن يقال هذا، يظهر في قلبك غضبٌ إزاءه.

هذا الجَرْي نتاجُ الخوف. والعالَمُ كلُّه يجري، لكنّ جَرْي كلّ شيء مناسبٌ لحاله. فجَرْي الإنسان من نوعٍ، وجَرْي النبات من نوع آخر، وجَرْي الرّوح من نوع ثالث. جَرْي الرّوح من دون خُطا وآثار أقدام. تأمّل الحِصْرِم، كم يجري حتى يصل إلى سواد العنب الناضج؛ متى غدا حُلْوًا، في الحال وصل إلى تلك المنزلة. وبرغم أنّ ذلك الجَرْي لا يُرى ولا يُحَسّ، فإنّه عندما يصل إلى ذلك المقام يُدْرَك أنّه قد جرى كثيرًا، حتى وصل إلى هنا. مثلما يحدث إذا دخل إنسانٌ في الماء ولم يَرَ أحدٌ دخولَه؛ عندما يُخرج رأسَه من الماء على حين غِرّة يُعلَم أنه كان قد دخل الماء؛ لأنه قد وصل إلى هذه النقطة.

الفصل الثالث والستّون

سماوات في ولاية الروح

[٢٢٣] للعشّاق آلامٌ في قلوبهم لا يشفيها دواءٌ، لا النّوم ولا السّياحة ولا الأكل؛ لا يشفيها إلاّ رؤية الحبيب. فإنّ "لقاء الخليل شفاء العليل"؛ وهذا صحيح إلى حدّ أنّ المنافق لو جلس بين المؤمنين لآمن في تلك اللحظة بتأثير إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا﴾ [البقرة: ١٤/٢]. فكيف الحالُ إذا جلس المؤمنُ مع المؤمن؟ فإذا كان لهذا مثل هذا التأثير في المنافق، فانظر الفوائد التي تتركها مجالسةُ المؤمنين في المؤمن! انظر كيف يغدو الصّوف بمجاورة العاقل بساطًا منقّشًا غاية في الرّوعة؛ وكيف يغدو التّرابُ بمجاورة العاقل قصرًا رائعًا! فإذا تركتْ صحبةُ العاقل في الجمادات مثل هذا التأثير، فتأمّل ما تترك صحبةُ المؤمن في المؤمن من أثر! فبصحبة النفس الجزئية والعقل المختصر وصلت الجماداتُ إلى هذه المرتبة، وهذه جميعًا ظلّ العقل الجزئيّ. ويمكن قياس الشخص من ظلّه. وإذا كان الأمر كذلك فاستخلِصْ مقدار العقل والفكر الذي يلزم لإظهار هذه السماوات والقمر والشمس وطبقات الأرض السبع وما بين الأرض والسّماء. وهذه الموجودات كلّها ظلٌّ للعقل الكليّ. وظلّ العقل الجزئيّ مناسبٌ لظلّ شخصه؛ وظلّ العقل الكليّ، الذي هو الموجودات كلّها، مناسب له.

إنّ أولياء الحقّ شاهدوا سماواتٍ أخرى غير هذه السماوات؛ لأنّ هذه السماوات غيرُ ذاتِ شأن في أنظارهم وتبدو حقيرةً أمام أعينهم؛ فقد وضعوا أقدامهم عليها وتجاوزوها:

ثمّة سماواتٌ في ولاية الرّوح

وفي يدها قيادُ سماء الدنيا*

فما العجب في أن يكون لإنسان واحدٍ من بين الناس خصوصيّة أن يضع قدمه على رأس كَيْوان [زُحَل]؟ ألسنا جميعًا من جنس التّراب؟ فوضعَ الحقُّ تعالى فينا القوّةَ التي صيرّتنا بها متميّزين عن جنسنا، ومتصرّفين بتلك القوّة، وصار ذلك الجنس تحت تصرّفنا؛ فنحن نتصرّف بالطريقة التي نشاء؛ نرفعه تارةً ونخفضه تارةً؛ نشكّل منه قصرًا تارة، وكوبًا وكوزًا تارة، نمدّه تارةً ونقصره تارةً. فإذا كنّا في البدء ذلك الترابَ نفسه ومن صميم جنسه، ثمّ ميّزنا الحقُّ تعالى بتلك القوّة، فما الغريب في أن يميّز الحقّ تعالى منّا، نحن الجنسَ الواحد،
[٢٢٤] واحدًا، نحن نسبةً إليه كالجماد، وهو يتصرّف فينا، ونحن غير مطّلعين عليه، بينما هو مطّلعٌ علينا؟.

وعندما أقول: "غير مطّلعين"، لا أعني غير مطّلعين تمامًا. بل إنّ كلّ اطّلاع على شيء هو عدم اطّلاع على شيء آخر. حتى الأرض، بتلك الجمادية التي هي عليها، مطّلعةٌ على ما أعطاه الله إيّاها. فإن كانت غير مطّلعة فكيف تكون قابلةً الماءَ، وكيف ترعى وتنمّي كلّ حبّة حسب المقتضى؟

عندما يكون الشخص جادًّا في عملٍ من الأعمال وملازمًا ذلك العمل، فإنّ انتباهه إلى ذلك العمل يعني أنّه غير مطّلع على غيره. لكننا لا نعني بهذه الغفلةِ الغفلةَ التّامّة. أراد بعضُ الناس أن يمسكوا قِطّةً، لكنهم لم يجدوا ذلك ممكنًا البتّة.

* بيت للحكيم سنائي. [المترجم].

في أحد الأيام كانت تلك القطّة منشغلةً بصيد طائر، وهكذا أصبحت غافلةً بسبب انشغالها بصيد الطائر، فأمسكوا بها.

وهكذا لا ينبغي الانشغالُ التامّ بشؤون الدنيا. ينبغي أن يأخذها الإنسانُ بسهولة، ولا ينبغي أن يكون متعلّقاً بها؛ لئلا يؤلمه هذا ويؤلمه ذاك. الكنزُ لا ينبغي أن يتألم؛ لأنه إذا تألّم هؤلاء فإنّه سيغيّرهم، أمّا إذا تألّم هو، والعياذُ بالله، فمن ذا الذي يغيّره؟ لو كان عندك، مثلاً، ألبسة من كلّ نوع، وأنت تتعرّض للغرق، فبأيٍّ منها ستتمسّك؟ برغم أنّها كلّها ضرورية فإنّك يقينًا في حال الضّيق ستقبض على الشيء النفيس بيدك؛ لأنه بجوهرة واحدة وبكِسْرة ياقوت يستطيع الإنسان أن يصنع ألف زينة.

من الشجرة تظهر فاكهةٌ حلوة، وبرغم أنّ تلك الفاكهة جزء منها فإنّ الحقّ تعالى فضّل ذلك الجزء على "الكل"، وميّزه؛ إذ وضع فيه حلاوةً لم يضعها في الباقي. وبفعل تلك الحلاوة رجح ذلك الجزءُ ذلك الكلَّ، وصار اللّبابَ والمقصود من تلك الشجرة. قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٥٠/٢].

قال أحدهم: "لي حالٌ لا يتّسع فيها المكان لمحمّد ولا لملَك مقرّب". فأجاب الشيخ: "أمر عجيب أن يكون لعبدٍ حالٌ لا تتّسع لمحمد، ولا يكون لمحمّدٍ حالٌ لا تتسع لمثلك أيها المنتن الإبط!".

أراد مهرّج أن يعيد الملِك إلى طبعه المألوف. وكلّ شخص اتفق معه على شيء يدفعه إليه إن هو استطاع أن يفعل ذلك؛ لأنّ الملك كان مغتاظًا غيظًا شديدًا. كان الملِك يسير إلى جانب النهر غاضبًا. وكان المهرّج يسير في الجانب الآخر قربَ الملك. لم ينظر الملِك البتة إلى المهرّج، كان ينظر إلى الماء. وإذ أصبح المهرّج
[٢٢٥] عاجزًا قال: "أيها الملِك، ماذا ترى في الماء، حتى يكون منك هذا التحديق؟" فأجاب الملك: "أرى ديّوثًا". فقال المهرّج: "عبدُك أيضًا ليس أعمى".

والآن، عندما يكون لك وقتٌ لا يسع محمّدًا، عجيبٌ ألاّ يكون لمحمّد تلك الحالُ التي لا تسع واحدًا مننتنًا مثلك! ومهما يكن فإنّ هذا القدر من الحال الرّوحية التي ظفرتَ بها هو من بَرَكته وتأثيره. لأنّه في البدء يسكب العطايا كلّها عليه، ثم تُوزّع منه على الآخرين. السُّنّة تمضي هكذا. قال الحقّ تعالى: "السلام عليكَ أيها النّبيّ ورحمة الله وبركاته". "أغدقنا عليك كلّ الأعطيات"، فقال محمّد: "وعلى عباد الله الصالحين".

إنّ طريق الحقّ مخيفٌ جدًّا، ومليءٌ بالعوائق، ومليءٌ بالثلج. هو أوّلُ مَن عرّض حياته للخطر، وحفر جواده وفتح الطّريق، وكلُّ من يمضي في هذا الطريق فبهدايته وعنايته. لأنّه أوضح الطريق في البدء ووضع في كلّ مكان مَعْلمًا، ونصب قِطَعًا من الخشب تقول: "لا تمضِ في هذا الاتجاه، ولا تمضِ في ذلك الاتجاه، وإذا مضيتَ في تلك الوجهة هلكتَ، كما هلك قومُ عاد وثمود، وإذا مضيتَ في هذه الوجهة ظفرتَ بالخلاص، كحال المؤمنين". القرآنُ كلّه في بيان هذا: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧/٣]، أي في هذه الطّرق أعطينا علامات. وإذا ما قصد أحدٌ أن يكسر قِطْعةً من قِطَع الخشب هذه، حمل عليه الجميعُ قائلين: "لماذا تخرّب طريقَنا، ولِمَ تسعى لإهلاكنا؟! إلا أن تكون قاطعَ طريق".

اعلم الآن أنّ محمّدًا هو الدليل. وإذا لم يأتِ الإنسانُ أوّلاً إلى محمّد فإنه لا يمكن أن يصل إلينا. مثلما يحدث عندما تريد أن تذهب إلى مكان، في البدء يعمل العقلُ دليلاً، قائلاً: "ينبغي أن تذهب إلى مكان كذا، فثمّة مصلحة". بعد ذلك تعمل العينُ دليلاً، ثم تتحرّك الأعضاء، على هذا الترتيب؛ برغم أنّ الأعضاء لا علم لديها من العين، والعين لا علم لديها من العقل.

برغم أنّ الإنسان غافلٌ، فإنّ الآخرين غير غافلين عنه. وحين تكون مشمّرًا عن ساعد الجدّ في أمر الدنيا تغدو غافلاً عن حقيقة الأمر. عليك أن تنشد رضى

الحقّ، لا رضى الخلق لأنّ ذلك الرضى وتلك المحبّة والشفقة لدى الخلق مستعارةٌ، وضعها الحقُّ فيهم. حين لا يشاء، لا يعطي آية سكينة أو متعة؛ وبوجود أسباب النعمة والخبز والرّفاهية والتنعّم يخلو كلّ شيء ألماً ومحنة. ولذلك فإنّ الأسباب كلّها كالقلم في يد قدرة الحقّ؛ والحقُّ هو المحرّك والمحرِّر

[٢٢٦] [الكاتب]. وإذا لم يُرد، فإنّ القلمَ لايتحرّك. أنت تنظر إلى القلم فتقول: "ينبغي أن يكون لهذا القلم يدٌ". ترى القلمَ ولا ترى اليد. ترى القلَم فتتذكر اليد؛ أين ذلك الذي تراه، وذلك الذي تقوله؟. أمّا هم فيرون دائمًا اليدَ، فيقولون: "لابدّ من قلمٍ أيضًا"؛ ولكنهم إذ يطالعون جمالَ اليد لا يتذكّرون مطالعةَ القلم. ويقولون: "مِثْلُ هذه اليد لا يمكن أن تكون من دون قلم". وإذا كنتَ لا تتذكّر اليدَ بسبب حلاوة النظر إلى القلم، فكيف تنتظر منهم أن يتذكّروا القلم وهم يتذوّقون حلاوة النظر إلى تلك اليد؟ عندما تجد في خبز الشعير حلاوةً تجعلك لا تتذكّر خبز القمح، كيف تنتظر منهم أن يتذكّروا خبز الشعير بوجود خبز القمح؟ إذا كان أعطاك على الأرض بهجةً جعلتك لا تريد السماء، التي هي المحلّ الحقيقيّ للبهجة، وإذا كانت الأرضُ تستمدُّ حياتها من السّماء، فكيف والحالُ كذلك تنتظر من أهل السماء أن يتذكّروا الأرض؟.

والآن لا تنظر إلى الطّيبات واللذائذ على أنها آتيةٌ من الأسباب؛ لأنّ تلك المعاني في الأسباب مستعارةٌ فإنّه "هو الضارُّ والنافعُ". عندما يكون الضّررُ والنفع منه، كيف تتعلّق بالأسباب؟.

"خيرُ الكلام ما قلّ ودلّ". خيرُ الكلام ما هو مفيد، لا ما هو كثير. سُورةُ الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على قِصَرها ترجح سورةَ (البقرة) على طولها، من ناحية الإفادة. دعا نوح النّاسَ ألفَ سنةٍ، فآمن به أربعون شخصًا؛ ومعروف تمامًا الزمان الذي استغرقته دعوة المصطفى، وبرغم ذلك آمنت به أقاليم كثيرة،

وظهر كثير من الأولياء والأوتاد بسببه. وهكذا، ليست العِبرةُ بالكثرة والقِلّة، بل الغرض هو الإفادة ونَقْل الدَّرْس.

في نظر بعض الناس ربما يكون الكلامُ القليل أنفعَ من الكلام الكثير، مثل التّنور الذي عندما تتأجّج نارُه لا تستطيع أن تنتفع به، ولا تستطيع الاقترابَ منه؛ بينما من المصباح الضعيف تستمدّ ألفَ فائدة. وهكذا يتبيّن أنّ المقصود هو الفائدة. عند بعض الناس يكون مفيدًا ألا يسمع الإنسانُ كلامًا البتّة؛ يكفي عندهم أن يرى؛ ذلك ما يفيد مثل هذا الإنسان. وإذا ما سمع كلامًا فإنّه يضرّه.

قصد شيخٌ من بلاد الهند أحدَ الأولياء العظماء. عندما وصل إلى تبريز وجاء إلى باب زاوية الشيخ، جاء صوتٌ من داخل الزاوية، أن ارجع! فيما يتّصل بك، النفعُ هو أن تكون قد وصلتَ إلى الباب. فإذا ما رأيتَ الشيخَ، فإنّ ذلك يضرّك.

الكلامُ القليلُ والمفيدُ مِثْلُ مصباحٍ مشتعل قبّلَ مصباحًا مُطفأً ثمّ انصرف. ذلك كافٍ لديه، وقد وصل إلى مقصوده. ومهما يكن، فإنّ النبيّ ليس تلك
[٢٢٧] الصّورة؛ تلك الصورة فرس النبي [أي الحامل للنبيّ]. النبيّ هو ذلكَ العشق وتلك المحبّة، وذلك الباقي دائمًا؛ مثل ناقة صالح، صورتُه هي الناقة. النبيّ هو ذلك العشقُ وتلك المحبّة، وذلك الخالد.

قال أحدُهم: "لِمَ لا يُثنون على الله وحده فوق المئذنة؟ - لِمَ يذكرون محمّدًا أيضًا" - فأجيبَ: "إنّ الثناء على محمّد هو ثناء على الحقّ. مِثالُ ذلك أن يقول أحدُهم: "أطال الله عمرَ المِلك، ومَنْ دَلّني على الطريق إلى المِلك، أو ذكر لي اسم المِلك وأوصافه". الثناء على مثل هذا الإنسان هو على الحقيقة ثناءٌ على المِلك".

هذا النبيّ يقول: "أعطني شيئًا. أنا في حاجة. أعطني جبّتك، أو مالَك، أو لباسك". ماذا سيفعل بجبّتك ومالك؟ - يريد أن يخفّف ثيابَك لكي تصل إليك حرارةُ الشمس.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [المزمل: ٧٣/٢٠].

لا يريد المالَ والجبّة فقط. فقد أعطاك أشياء كثيرة غير المال، العلم والفكر والحكمة والنظر. يعني: "أنفق عليّ لحظةَ نَظَرٍ وفِكْرٍ وتأمّل وعقل؛ ومهما يكن فقد ظفرتَ بالمال بوساطة هذه الآلات التي أعطيتُك إيّاها". يريد الحقّ الصّدقة من الظاهر ومن الشّرك. إذا استطعتَ أن تذهب عاريًا أمام الشمس فذلك أحسنُ؛ لأنّ تلك الشمس لا تسوِّد، بل تُبيِّض. أو على الأقلّ خفّف ثيابك؛ لكي تستمتع ببهجة الشمس. تعوّدتَ بعض الوقت على حدّة المزاج؛ على الأقلّ، فجرّب الحلاوةَ أيضًا.

الفصل الرّابع والستّون

عِلْمُ الأبدان وعِلْمُ الأديان

[٢٢٨] كلُّ عِلْمٍ يُحصل عليه في هذه الدنيا بالدراسة والاكتساب هو عِلْم أبدان، أمّا ذلك العِلْم الذي يُحصل عليه بعد الموت فعِلْم أديان.

عِلْمُ (أنا الحق) هو عِلْمُ أبدان، وأن يغدو الإنسان (أنا الحقّ) هو عِلْمُ أديـان. رؤيةُ نور المصباح والنّار عِلْمُ أبدان، أما الاحتراق بالنار أو بنور المصباح فعِلْمُ أديان. كلّ ما يُرى عِلْمُ أديان، وكلّ ما هو عِلْم هو عِلْم أبدان.

قد تقول: إنّ المحقّق هو الرؤيةُ والمعاينة، وباقي العلوم هو علمُ الخيـال. على سبيل المثال، فكّر مهندسٌ وتخيّلَ عمارةَ مدرسة، أيّاً كان حَظُّ ذلك التفكير من الصحّة والصواب يظلّ خيالاً. يغدو حقيقةً عندما يرفع المدرسةَ وينشئها.

والآن، هناك فروق بين خيال وخيال: خيال أبي بكر وعمر وعثمـان وعليّ فوق خيال الصحابة. بين خيالٍ وخيالٍ فـرقٌ كبير. المهندس الخبير تخيّـل بناء بيت، وغيرُ المهندس تخيّل أيضًا؛ والفرق بينهما عظيم؛ لأنّ خيال المهندس أقربُ إلى الحقيقة. كذلك الحال في ذلك الطّـرَف، في عـالم الحقـائق والكشـف، فثمّـة فروق بين رؤية ورؤية، إلى ما لانهاية.

وهكذا ما يقال من أنّ هناك سبع مئة حجاب من الظلمة وسبع مئة من النور - كلُّ ما ينتمي إلى عالم الخيال هو حجاب ظُلْمة، وكلُّ ما ينتمي إلى عالم الحقائق هو حجاب نور. ولكن بين حُجب الظُّلمة، التي هي خيال، لا يمكن تلمّسُ فَرْقٍ ورؤيته بسبب اللّطف الزائد؛ وبرغم وجود فرق قويّ وعميق في الحقائق، لا يمكن فهم ذلك الفرق أيضًا.

الفصل الخامس والستّون

سعادةُ أهل النّار في النّار

[٢٢٩] أهل النّار في النار أسعدُ منهم في الدنيا؛ لأنّهم في النار يكونون متذكّرين للحقّ، أمّا في الدنيا فيكونون غافلين عن الحقّ؛ ولا شيء أحلى من تذكّر الحقّ. وهكذا فإنّ رغبتهم في العودة إلى الدنيا إنّما هي لكي يعملوا عملاً يطلعهم على تجلّي اللّطف، لا لأنّ الدنيا موضعٌ أكثر إسعادًا من النار.

المنافقون في الدّرك الأسفل من النار؛ لأنّ الإيمان جاء إلى المنافق، لكنّ كفره كان قويّاً فلم يعمل؛ وعذابه أشدّ وأصعب انتفاء أن يعرف الحقّ. أمّا الكافر فلَمْ يأته الإيمان، ويكون كفرُه ضعيفًا، فبقليل من العذاب يعرف الحقّ. كالمئزر الذي عليه غبار والبِساط الذي عليه غبار؛ أما المئزر فيكفي أن ينفضه شخص واحد قليلاً لكي ينظف، وأمّا البساط فيحتاج إلى أن ينفضه أربعةُ أشخاص بقوّة لكي يزول منه التّراب. وعندما يقول أهل النار:

﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾ [الأعراف: ٧/٥٠] معاذ الله أن يكونوا يريدون طعامًا وشرابًا؛ بل المعنى "أفيضوا علينا من ذلك الذي ظفرتم به والذي يتلألأ عليكم". القرآنُ مِثْلُ العروس؛ برغم أنك تنحّي الحجاب عنها لا تُظهر لك وجهَها. ومبعثُ أنّك تتفحّصها من دون أن تظفر بسعادة وكشف هو أنّ إماطة الحجاب ردّتك ومكرت بك، فأظهرت نفسَها لك قبيحةً، كأنّها

تقول: "لستُ تلك الحسناء"، وهي قادرةٌ على أن تظهر في آية صورة تشاء. أمّا إذا لم تُنحِّ الحجابَ وطلبتَ رضاها بأن تسكب الماءَ على حديقتها وتقدّم لها الخدمات من بعيد، وتسعى في كلّ ما يرضيها، فإنّها من دون أن تزيل حجابَها تظهر لك وجهَها.

اطلب أهلَ الحقّ الذي يقول:

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٨٩/٢٩-٣٠].

الحقّ تعالى لا يكلّم كلّ شخص، مثلما أنّ ملوك الدنيا لا يتكلّمون مع أيّ نسّاج؛ وقد نصّبوا وزيرًا ونائبًا، ليبيّنوا الطريق إليهم. الحقّ تعالى أيضًا اختار عَبْدًا من عباده، وهكذا فإنّ كلّ من يطلب الحقّ يكون الحقّ فيه. والأنبياءُ كلّهم جاؤوا لهذا السبب، أنهم وحدهم الطريق.

الفصل السادس والستّون

مغلطةُ الجسد

[٢٣٠] قال سراجُ الدين•: تحدّثت عن مسألة فآلمني شيءٌ من الدّاخل.

فأجاب مولانا: ذلك شيء موكّلٌ بك لا يأذن لك بأن تتحدّث عن مثل ذلك.

وبرغم أنك لا ترى ذلك الموكّل عيانًا، فإنك عندما تحسّ بالشوق والاندفاع والألم تعلم أنّ هناك موكّلاً. ومثال ذلك أنّك تدخل في الماء فتصل إليك نعومةُ الورود والرّياحين؛ وعندما تصل إلى ناحية أخرى تشوكك الأشواكُ. وهكذا تعلم أنّ تلك الناحية أرضٌ شاكةٌ [كثيرة الشوك] وإزعاج وألم؛ وتلك الناحية روضةٌ وراحة؛ برغم أنك لم تر الاثنتين. ويسمّون هذا (وِجْدانًا) وهو أظهرُ من المحسوس المعاين. وعلى سبيل المثال، فإنّ الجوع والعطش والغضب والسّرور كلّها ليست محسوسةً، لكنها أظهر من المحسوس. لأنّك حين تُغمض عينيكَ لا ترى المحسوس، لكنّك لا تستطيع دَفْع الجوع عن نفسك بأيّة حيلة. ومِثْلُ ذلك السّخونة في الأغذية السّاخنة، وكذا البرودة والحلاوة والمرارة في الأطعمة، فهذه جميعًا غيرُ محسوسة، ولكنّها أظهرُ من المحسوس.

• لعلّه سراج الدّين الذي كان يقرأ المثنويّ ويُنشده، وهو من خاصّة مريدي مولانا؛ أو سراج الدّين محمود ابن أبي بكر الأرموي، وهو من كبار العلماء المعاصرين لمولانا. انظر تعليقات العلاّمة فروزانفر على "فيه ما فيه"، الأصل الفارسيّ، ص٢٤٤. [المترجم].

والآن، لِمَ تهتمّ بهذا الجسد؟ ما تعلُّقك بهذا الجسد؟ وأنت قائمٌ من دونه. أنت دائمًا من دونه. في اللّيل لا تُعنى بالجسد، وفي النهار تكون منهمكًا دائمًا بالأعمال، ولستَ مع الجسد. وهكذا لِمَ ترتجف على هذا الجسد وأنتَ لا تكون معه ساعةً واحدة، بل تكون دائمًا في أمكنة أخرى؟ أين أنتَ، وأين الجسد؟ أنتَ في وادٍ وأنا في وادٍ.

هذا الجسدُ مَغْلطةٌ عظيمة، يُخال أنّه ميتٌ، وهو أيضًا ميت. فما تعلّقك بالجسد؟ إنّه مخادع عظيم. سَحَرةُ فرعون، الذين غدوا واقفين كالذّرّة، ضحّوا بأجسادهم؛ لأنهم أدركوا أنهم باقون من دون هذا الجسد، وأنْ ليس للجسد تعلّق بهم.

وهكذا أيضًا إبراهيم وإسماعيل والأنبياء والأولياء عندما وقفوا فرغوا من أمر الجسد، ومما إذا كان موجودًا أو غير موجود.

شرب الحَجّاجُ البنج وأسند رأسه على الباب فأخذ يصرخ:

"لاتحرّكوا البابَ من أجل ألاّ يسقط رأسي". كان يخال أنّ رأسه منفصلٌ عن جسده، وأنّه باقٍ وقائم بسبب الباب. أحوالُنا وأحوالُ الخلق هكذا: يخالون أنّ لهم تعلّقًا بالبدن، أو أنهم بالبدن قائمون.

الفصل السابع والستّون

خُلِق آدم
على صورة أحكام الحقّ

[٢٣١] "خلقَ آدمَ على صورته"*. الناسُ جميعًا يطلبون الظّهور. هناك الكثير من النساء اللاتي يكُنّ مستورات الوجوه، لكنّهنّ يُسفِرن عن وجوههنّ لكي يجرّبن مطلوبَهنّ [الظّهور]؛ كما تجرِّب أنتَ موسى الحِلاقة. يقول العاشقُ للمعشوق: "لم أنَمْ، ولم آكُلْ، وصِرْتُ كذا وكذا مِنْ دونك". ومعنى هذا: "أنّك تطلبُ الظُّهورَ؛ أنا ظهورك الذي تتبجّح له بمعشوقيّتك". وهكذا أيضًا العلماء والمبدعون كلّهم يطلبون الظهور. "كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببتُ أن أُعرف".

"خلق آدم على صورته"؛ أي على صورة أحكامه. أحكامه ظاهرةٌ في الخلق جميعًا؛ لأنّ الخلق جميعًا ظِلُّ الحقّ، والظلّ يبقى ببقاء شخصه. إذا فرّقت ما بين الأصابع الخمس، فإنّ ظلّها أيضًا يغدو مفرّقًا؛ وإذا ركع الإنسانُ ركع ظلُّه أيضًا، وإذا اعتدل واستقام اعتدل ظلّه واستقام. وهكذا فإنّ الخلق جميعًا يطلبون مطلوبًا ومحبوبًا واحدًا؛ يريدون أن يكونوا جميعًا محبّيه، وخاضعين له، ومعادين

* حديثٌ شريف، ونصّه في صحيح مُسلم هكذا: "إذا قاتل أحدُكم أخاه فليجتنب الوجهَ؛ فإنّ الله خلق آدم على صورته". [المترجم].

لأعدائه، ومُوادّين لأوليائه. وهذه جميعًا أحكام الحقّ وصفاته التي تظهر في الظلّ.

ومنتهى الأمر أنّ ظلّنا هذا، لا خبْرَ له بنا، أمّا نحن فذوو خبْر به. ولكنّ خبْرَنا هذا، نسبةً إلى عِلْم الله، في حُكْم عدَم الخبْر. ليس كلُّ ما في الشّخص يظهر في ظلّه، بل تظهر بعض الأشياء. ومِنْ ثَمّ ليست كلُّ صفاتِ الحقّ تظهر في ظلّنا، بل يظهر بعضٌ منها؛ فقد قال الحقّ:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥].

الفصل الثامن والستّون

الشكايةُ مِنَ الخَلْق
شكايةٌ من الخالق

[٢٣٢] سُئل عيسى عليه السلام: "يا روحَ الله، أيُّ شيءٍ أعظمُ وأصعبُ في الدنيا والآخرة؟" - قال: "غضب الله". قالوا: "وما ينجي من ذلك؟" - قال: "أن تكسر غضبَك وتكظم غيظك".

ذلك هو الطريق: عندما تريدُ النفسُ أن تشتكي، على المرء أن يخالفها، ويشكر، ويبالغ إلى حدّ أن تحصل في قلبه محبّةُ الآخر. لأنّ الشّكْرَ للمصطنع هو طلبٌ للمحبّة من الله.

هكذا يقول مولانا الكبير قدّس الله سِرّه: "الشّكايةُ مِنَ الخلق شكايةٌ من الخالق". وقال أيضًا: "العداوةُ والغيظ في داخلك خافيان عليك كالنار. عندما ترى شرارةً تطفر من النار: أطفئْها لتعود إلى العدَم الذي جاءت منه. أمّا إذا مددتَها بكبريت الجواب وتعبير المجازاة والردّ، فإنّها ستجد الطريق وتنطلق مرّةً إثر مرّة من العَدَم؛ وعندئذٍ يغدو من العسير إعادتُها إلى العدم".

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩٦].

وهكذا يغدو في مقدورك أن تقهر عدوّك بطريقتين:

إحداهما: أنّ عدوك ليس هو لحمه وجلده، إنّه فكرته الرّديئة؛ عندما تُدْفَع عنك بكثير من الشّكْر ستُدفَع عنه لا محالة أيضًا. الأولى تتّفق مع الطّبع، ذلك لأنّ "الإنسان عبْدُ الإحسان". الثانية: عندما لا يرى فائدةً. كما هي الحال لدى الأطفال: عندما ينادُون واحدًا منهم باسمٍ فيردّ بالشّتم، تتضاعف لديهم الرّغبة في الزيادة قائلين في أنفسهم: "ها قد أثّر كلامُنا". وعندما لا يرى العدوّ تغييرًا ولا يرى فائدةً لا يبقى لديه ميل.

الطريقة الثانية: أنه عندما تظهر فيك صفةُ العفْو هذه يُعْلَم أنّ ذمّه كَذِبٌ، وأنه نظر نظرًا أعوجَ؛ لم يرَك وفق ما أنتَ عليه. ويغدو معلومًا أيضًا أنّ المذموم هو، لا أنتَ. ولا حجّة أكثر إلحاقًا للعار بالعدوّ من أن يغدو كَذِبُه ظاهرًا باديًا للعيان. وهكذا فإنك بمدحه وشكره إنّما تقدّم له السّمَّ؛ فبينما هو يُظْهِر نقصانك إذا أنتَ أظهرتَ كمالَك؛ لأنك محبوب الحقّ:

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٤].

محبوبُ الحقّ لا يكون ناقصًا. امدحْه كثيرًا لعلّ أصحابه يظنون أنه لو لم يكن منافقًا في التعامل معهم لما كان منسجمًا معك هذا الانسجام الكبير.

انتفْ لِحاهم برِفْق برغم أنهم أقرباء؛

ودُقّ رِقابَهم بقوّة برغم أنهم طوال وضخام.

وفّقنا الله لهذا!

الفصل التاسع والستّون

لم يشبع أيّوبُ من بلواه

[٢٣٣] بين العبد والحقّ حجابان اثنان فقط، وباقي الحجب تظهر من هذين الحجابين. وذانِك هما الصّحّةُ والمال. فإنّ صحيحَ الجسم يقول: "أين الله، لا أعرفه، ولا أراه". ومتى مرض أخذ يقول: "يا اللهُ، يا ألله" ويغدو نَجِيّاً ومحدّثاً للحقّ. وهكذا ترى أنّ الصحة كانت حجاباً له، والحقّ متوارٍ تحت ذلك المرض. وكلّما كان للإنسان مالٌ وأسباب للعيش هيّأ الأسبابَ لتحقيق رغائبه، وصار منشغلاً بذلك ليلَ نهار. ومتى ظهر إفلاسُه غدا ضعيفَ النفسِ وأخذ يدور حول الحقّ.

السُّكْرُ وفراغُ اليد أتيا بكَ إليّ،

أنا عبدٌ لسُكْرِك وفراغ يدك.

أعطى الحقُّ تعالى فرعونَ أربع مائة سنة من العمر ومُلْكاً وسلطانًا وبهجةً. وذلك كلّه كان الحجابَ الذي جعله بعيدًا عن حضرة الحقّ. لم يُذِقْه يومًا مكروهًا وألمًا؛ لكي لا يتذكّر الحقّ البتّة. قال الحقّ: "انشغِلْ بمُرادِك ولا تذكرني. طابت ليلتُك".

شبع سليمانُ من مُلْكِه

ولم يشبع أيوبُ من بلواه.

الفصل السبعون

نفائسُ الكنز

[٢٣٤] قال مولانا: ما يقال من أنّ في نفس الإنسان شرّاً غير موجود في الحيوانات والسّباع، ليس من وجهة أنّ الإنسان أسوأ منها، بل من وجهة أنّ الطّبع السيّئ وشرّ النفس والنقائص التي في الإنسان تكون على حسب الجوهر الخفيّ الذي فيه.

وقد صارت هذه الأخلاقُ والنقائصُ والشّرور حجاباً لذلك الجوهر. وكلّما كان الجوهرُ نفيسًا وعظيمًا وشريفًا كان حجابُه أكبر. وهكذا كان النقصُ والشّرُّ والخُلق السيّئ سبب حجاب ذلك الجوهر. ورَفْعُ هذه الحجب غيرُ ممكنٍ إلاّ بمجاهدات كثيرة.

والمجاهدات أنواعٌ. وأعظم المجاهدات اصطحابُ الصُّحْب الذين ولّوا وجوههم شَطْر الحقّ، وأعرضوا عن هذه الدنيا. وليس ثمّة مجاهدة أصعب من مجاهدة أن تجلس مع صَحْب صالحين، تكون رؤيتُهم إذابةً وإفناء لتلك النفس. ومن هنا يقولون: إنّه عندما لا ترى الحيّةُ إنسانًا لمدّة أربعين سنةً تغدو تِنّينًا. أي لا ترى شخصًا يكون سببًا لإذهاب شرّها ومَكْرها.

حيثما وُضِع قُفْلٌ كبير دلّ ذلك على أنّ ثمّة شيئًا نفيسًا وثمينًا. وهكذا ترى، كلّما كبر الحجابُ كان الجوهرُ أكثر نفاسةً. كالحيّة فوق الكنز. لا تنظرْ إلى قُبحنا، بل انظر إلى نفائس الكنز.

الفصل الحادي والسّبعون

الطّيَرانُ عن الجهات

[٢٣٥] قال محبوبي: بأيّ شيء يحيا فلان؟

الفرقُ بين الطيور وأجنحتها وبين أجنحة هِمَم العقلاء أنّ الطّيور بأجنحتها تطير إلى جهة من الجهات، والعقلاء بأجنحة هممهم يطيرون عن الجهات. لكلّ فرس طويلةٌ [مَعْلَف]، ولكلّ دابّةٍ إصطبل، ولكلّ طائرٍ وَكْرٌ. والله أعلم.

* * *

اتّفق الفراغُ من تحرير هذه الأسرار الجلالية في التّربة المقدّسة يوم الجمعة رابع عشر رمضان المبارك لعام واحد وخمسين وسبع مئة.

وأنا الفقير إلى الله الغنيّ بهاء الدّين المولويّ العادليّ السّرايّ، أحسن الله عواقبه، آمين، يا ربّ العالمين.

* * *

وكذا يسّر مَنْ بيده ملكوتُ السماوات والأرض أن يقوى الضعيـفُ العاجزُ عيسى بن عليّ العاكوب، ناشئ قرية حويجة حلاوة من أعمال محافظـة الرّقـة في بلاد سورية، ونزيل حلب العامرة، فينهيَ ترجمةَ هـذا الأثـر النفيـس مـن اللغة الفارسيّة إلى لغة القرآن الكريم، في تمام الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء، السابع من شهر شوّال، سنة ١٤٢١ من هجرة سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام. سائلاً مولاه أن يُقيل العثرة ويستر العورة، ويحسن الثّواب، وهو العزيز الوهّاب، الموفّق إلى الصّواب.



مستخلص

كتاب في التصوف يشتمل على مجموعة من المحاضرات والمذاكرات والتعليقات ناقش فيها مسائل أخلاقية وعرفانية وفسّر آيات وشرح أحاديث وأورد أمثالاً وحكايات علّق عليها.

ينقسم الكتاب إلى واحد وسبعين فصلاً في كل فصل فكرة، تدور كل فكرة حول آية قرآنية أو حديث نبوي أو حكمة مشهورة أو قول مأثور أو عبارة متداولة يتحدث حول ذلك كله من منطلق التصور الصوفي الذي يستكنه الحقائق بفكر شفاف صافٍ وأخلاقي ويغوص بطريقة فريدة على المعاني الجديدة يستخرجها بفهم جديد. ومن العناوين البارزة ((كل شيء من أجل الحق))، ((موتوا قبل أن تموتوا))، ((لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً))، ((أرني الأشياء كما هي))، ((رجعنا من جهاد الصور إلى جهاد الفِكَر))، ((اجعلوا أنفسكم بعيدة عن مرادها))، ((نصف الإنسان ملاك ونصفه حيوان))، ((لا يكون طالب الخلاص طالباً للقيد))، ((لا يكون نقش من دون نقاش))، ((صلاة الروح وصلاة الصورة))، ((ترك الجواب جواب))، ((ضيوف العشق))، ((الشكر صيد النعم))، ((أنا جليس من ذكرني))، ((الكافر والمؤمن كلاهما مسبِّح))، ((الخير لا ينفصل عن الشر))، ((الأصل هو العناية الإلهية))، ((الشكاية من الخلق شكاية من الخالق)).

والكتاب يبرز الثقافة الموسوعية لمولانا جلال الدين الرومي وطريقه في فهم التصوف.

Abstract

A collection of lectures, debates and comments on Sufism discussing moral and epistemological matters, interpreting, Qur'anic Verses, explaining Prophetic Sayings and offering aphorisms and tales on which it comments.

The book is divided into 71 chapters, each includes an idea about a Qur'anic Verse, a Prophetic Saying, a well-known aphorism or a circulated statement and tackles them all from a Sufi perspective, which derives truth through a transparent moral thought and plunges uniquely into new meanings derived bearing a new concept. Some prominent headlines are: *"All Things Lead to Truth"*, *"Die before You Die"*, *"My Assurance Would not Increase If the Veil were Removed"*, *"Show Me the Truth of Things"*, *"We Have Quitted Formal Strife to Intellectual Strife"*, *"Keep Your Souls Away from Their Desires"*, *"A Human is Half Angel and Half Animal"*, *"A Seeker of Deliverance Can Never Be a Seeker of Restraint"*, *"Inscription Never Dispenses with an Inscriber"*, *"Spiritual and Formal Prayers"*, *"Quitting a Reply is a Reply"*, *"Love Guests"*, *"Thanksgiving is Game"*, *"I, the All-High, Accompany Those Who Remember Me"*, *"Both a Disbeliever and a Believer Glorify Allah"*, *"Evil Goes Abreast with Good"*, *"Providence is Origin"* and *"Complaining about Creatures is Complaint about the Creator."*

On the other hand, the book highlights the encyclopedic culture of Master Jalal al-Din al-Rumi and his method of understanding Sufism.

FAITHFULNESS through SUFISM

Kitāb fīhi mā fīh

by : Jalāl al-Dīn al-Rūmī

tr. : Dr. ʻĪsá ʻAlī al-ʻĀkūb

نحن بحاجة إلى شيء من التصوف البنّاء الذي يعيد الحياة إلى الروح، ويكشف عن جوهره ماغشيه من غبار السنين، حينذاك نبلغ القوة المنشودة ولا تعصف بنا مخاوف الحرمان من ترهات الترف الزائف.

فمن التصوف أن يتغلب المرء على شهواته، ومن التصوف أن يستهين المرء بالحياة في سبيل أسس الأهداف، ومن التصوف أن يكون المرء مثالياً في مايعتقد وما يقول ويعمل.

د. محمد عبد السلام كفافي

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel:(412)441-5226
Fax:(775)417-0836
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

SROUR ALWANI 2001